المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
INSTITUT ROYAL DE LA CULTURE AMAZIGHE

عبد الشكور ابريك

التراث الثقافي بقصر أسا
دراسة وتوثيق

التراث الثقافي بقصر أسا
دراسة وتوثيق

عبد الشكور ابريك

التراث الثقافي بقصر أسا
دراسة وتوثيق

الطبعة الأولى 2022

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية
مركز الدراسات الأنثربولوجية والسوسيولوجية
سلسلة دراسات وأبحاث رقم 93

العنوان:
التراث الثقافي بقصر أسا دراسة وتوثيق

المؤلف:
عبد الشكور ابريك

الناشر:
المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

الطباعة:
دار أبي رقراق للطباعة والنشر بالرباط

صورة الغلاف:
عبد الجبار إحشاش- اليزيد ابيدار

رقم الإيداع القانوني:
2022MO0535

ردمك:
978-9920-739-55-9

البريد الالكتروني:
chakourichakouri2017@gmail.com

الحقوق محفوظة للمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

إهداء

إلى روح والدي العزيز أسكنه الله فسيح جنانه..

إلى روح إخواني وأختي رحمهم الله..

إلى والدتي العزيزة أطال الله في عمرها..

إلى أحبتي أخي وأخواتي أطال الله في عمرهم..

إلى زوجتي العزيزة..

إلى ابني العزيز محمد امبارك..

إلى ساكنة قصر أسا خاصة.. إقليم أسا الزاك عامة..

شكر وتقدير

الباحث وهو يخطو خطواته الأولى في ميدان البحث العلمي، لابد له من سند يدلل له عقبات الطريق، من ثم لابد لنا من تقديم أسمى عبارات الشكر والعرفان لكل من كان بجانبنا طيلة مدة إنجاز هذا العمل، أخص بالذكر الدكتور عبد الحكيم بوغدا.. أصحاب الرواية الشفوية.. والقائمين على المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية لاسيما أعضاء مركز الدراسات الأنتربولوجية والسوسيولوجية التابع للمعهد.

الفهرس

إهداء.. 5
شكر وتقدير.. 7
تقديم... 15
مـقـدمة... 17
الفصل الأول: الخصائص المعمارية، الاجتماعية، الدينية، الثقافية والاقتصادية لقصر أسا............ 24
تمهيد.. 24
المبحث الأول : الخصائص المعمارية... 25
أولا: موقع قصر أسا 25
ثانيا: فضاء قصر أسا... 27
المبحث الثاني: الخصائص الاجتماعية.. 36
أولا: الإطار الديموغرافي 37
ثانيا: مظاهر التعايش والتعاون.. 38
ثالثا: مظاهر التكافل والتكامل الاجتماعيين... 40
المبحث الثالث: الخصائص الدينية... 42
أولا: المساجد والكتاتيب القرآنية.. 42
ثانيا: زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى: زاوية أسا 42
1 - تأسيس الزاوية:.. 43
2 - وظائف زاوية أسا وأدوارها 43
أ - الوظيفة الاجتماعية.. 43
ب - الوظيفة السياسية.. 44
ج - الوظيفة الدينية والعلمية 44
ثالثا: «لَمْصَلّا» المصلى... 45
رابعا: «لَمْدِينْتْ» المقبرة 45
المبحث الرابع: الخصائص الثقافية... 46

المبحث الخامس: الخصائص الاقتصادية 48
أولا: الأنشطة الفلاحية 48
ثانيا: أنشطة اقتصادية أخرى 50
ثالثا: نظام استغلال الماء بواحة أسا 52
خلاصة.. 56
الفصل الثاني: 58
العادات والتقاليد الشعبية.. 58
تمهيد.. 58
المبحث الأول: العادات والتقاليد المرتبطة بدورة الحياة بقصر أسا.. 59
أولا: عادات وتقاليد الولادة والختان بقصر أسا.. 60
ثانيا: العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج بقصر أسا.. 62
1 - اختيار العروس.. 63
2 - «أسِيكّلْ» الخِطْبة.. 63
3 - «أغْكّاسْ» 64
4 - «أكـُورْ».. 64
5 - «أمْ رْبَا دْ إلِوِي» 65
6 - أسْ نْ تمْغْرَا.. 66
7 - «إضْ أورُوحْ».. 66
8 - «لْعَرْضَة».. 70
ثالثا: العادات والتقاليد المرتبطة بالوفاة بقصر أسا 70
المبحث الثاني: العادات والتقاليد المرتبطة بالمناسبات والأعياد الدينية بقصر أسا.. 71
أولا: «تمَغْرَا لْقُرْآنْ».. 73
ثانيا: «إضْ نْ صَلّ» 77
ثالثا: «وَهَاوادَا بَرْيَانُو» 78
رابعا: «يَا الله يَا رَحْمَان يَا الله يَا رَحِيمْ» 79
خامسا: «لَحْضَرْة» 82
سادسا: العادات والتقاليد المرتبطة بشهر رمضان بقصر أسا.. 82
سابعا: العادات والتقاليد المرتبطة بعيدي الفطر والأضحى بقصر أسا.. 83

ثامنا: العادات والتقاليد المرتبطة بالحج بقصر أسا.. 84
تاسعا: العادات والتقاليد المرتبطة بعيد الأضحى بقصر أسا 85
عاشرا: ظاهرة «إمَعْشَارْنْ».. 85
المبحث الثالث: العادات والتقاليد المرتبطة بالمواسم الزراعية بقصر أسا.................. 88
أولا: «تِيوِيزِي» أو العمل الجماعي... 88
ثانيا: «أشْمُوكْ لْحَنّا»: قطف الحناء.. 89
ثالثا: «بَلْغُنْجَا».. 90
رابعا: «إمَاغَنْ أومَانْ».. 93
خامسا: «إدْبُوهَرّادَا» 94
سادسا: «إهِيَاضَنْ».. 95
سابعا: «أورْكّيمَنْ» 96
المبحث الرابع: العادات والتقاليد المرتبطة بالفرد في مجتمع قصر أسا..................... 96
المبحث الخامس: العادات والتقاليد المتعلقة بالمأكل والمشرب وفض المنازعات بقصر أسا.......... 98
أولا: العادات والتقاليد المتعلقة بالطعام وآداب المائدة بقصر أسا......................... 98
ثانيا: العادات والتقاليد المرتبطة بفض المنازعات بقصر أسا............................... 100
خلاصة.. 100
الفصل الثالث: 101
المعتقدات والمعارف الشعبية... 101
تمهيد... 101
المبحث الأول: معتقدات ومعارف خاصة بالأولياء والمزارات.................................. 102
أولا: تِكُرْكَارْ مُولاَي ابْرَاهِيمْ.. 104
ثانيا: «أوْرِيرْ لاَنْبِيَا» جبل الأنبياء 104
ثالثا: تِكُرْكَارْ «نْ سِيدِي عْبَلاَ أحْمَادْ» المعروف بــ «فَرْكَنْتَا» 106
رابعا: مَعْرُوفْ الأوْلِيَاء الصّالِحِين.. 108
خامسا: «إسَلْمَانْ نَدْ عَمّي نْ آيْتْ يُوبْ» 109
المبحث الثاني: معتقدات ومعارف شعبية مختلفة.. 109
أولا: معتقدات ومعارف شعبية لدفع الشر والحسد وكل مظاهر التشاؤم 110

ثانيا: معتقدات ومعارف شعبية للتفاؤل والاستبشار بالخير 111
ثالثا: معتقدات ومعارف شعبية مرتبطة بالحيوانات 112
رابعا: الماء في الثقافة الشعبية عند ساكنة قصر أسا 112
خامسا: الطب الشعبي 113
1 - علاج الكسور 113
2 - علاج بعض الأمراض النفسية والعصبية 114
3 - العلاج بالكي 114
خلاصة 115
الفصل الرابع: 116
الأدب الشعبي وفنون المحاكاة 116
تمهيد 116
المبحث الأول: «تَنَضّامْتْ »: الشعر 117
المبحث الثاني: الأمثال الشعبية 120
المبحث الثالث: الأحاجي والألغاز والمرددات الشعبية 124
خلاصة 125
الفصل الخامس: 126
الفنون الشعبية والثقافة المادية 126
تمهيد 126
المبحث الأول: الفنون الشعبية 127
أولا: الرقص والغناء 128
1 - رقصة «أحْوَايْشْ» 128
أ – المناسبة 129
ب - المشاركون أو أعضاء الفرقة 129
ج - «رَايْسْ لْعْمْتْ» 130
د - الآلات الإيقاعية 130
ه - «إنْضّامْنْ» 132
و - الفضاء والجمهور 133

ز - الزي والحلي.. 134
2 – رقصات أخرى.. 135
ثانيا: الألعاب الشعبية.. 136
أ - لعبة «بِيسُو».. 137
ب - لعبة الحِصَانْ 137
ج - لعبة «الطْرُومْبِيَة».. 137
د - لعبة «إيغْمَايَنْ».. 138
ه - لعبة «لْبِي» 138
و - «صَامُبُو».. 138
ز - السباحة «تِيقَارْ».. 138
المبحث الثاني: الثقافة المادية.. 139
أولا: الأزياء الشعبية.. 141
ثانيا: الزينة الشعبية.. 142
1 - الحلي.. 143
2 - الزينة وأدواتها 146
ثالثا: المهن والحرف الشعبية.. 149
خلاصة.. 154
خاتمة.. 155
لائحة المصادر والمراجع 158

تقديم

قديما قيل: «في الزوايا خبايا».. وكثيرة هي الخبايا التي لم تفصح عنها بَعدُ زوايا قصر أسا، بما تستبطنه من كنوز وفوائد وأسرار ممتدة امتداد تاريخ القصر الشاهد على غنى الدرسين الأركيولوجي والأنثروبولوجي بالمنطقة لحقب تعود لآلاف السنين.

سعادة بالغة تغمرنا ونحن نرى هذا العمل يستوي بين يدي صاحبه ليتخذ طريقه نحو القراء والباحثين بعد سنتين من البحث والتنقيب والاجتهاد المضني، واكبنا خلالهما العمل وصاحبه واطلعنا عن كثب على ما بُذل من جهد في تجميع مادة الكتاب، عبر استنطاق ما تفرق في أزقة ودروب وساحات المعلمة التاريخية قصر أسا.

وكعادة أي بحث يؤطر مساره ضمن مستلزمات وضوابط علم الأناسة، كان الانكباب الأولي على دراسة خصائص العمران بالقصر، من حيث فرادة الهندسة المعمارية في ارتباطها بخصائص البناء الاجتماعي بكل إسقاطاته الدينية والثقافية والاقتصادية، مرورا بالعادات والتقاليد الشعبية المحلية، وطقوس الاحتفال المختلفة بما فيها طقوس الحرث والزرع والخصب، وصولا إلى معتقدات الإنسان ومعارفه ومحاولاته لفهم وتفسير أسرار محيطه، وما استتبع ذلك من مظاهر الثقافة والأدب والفن والإبداع والمحاكاة.

تأطير العمل مجاليا وزمانيا ضمن مستحاثات التراث المادي واللامادي لقصر أسا، جعل من اعتماد المقابلات الشفهية مرتكزا آخر لإغناء مادة البحث، بما توفره المقابلة من أبعاد نفسية وإنسانية لا يمكن الوصول إليها عبر المخطوط أحيانا، ورغم ما قد يعتري بعض الروايات الشفهية من نقص أو تحريف أو انحياز غير موضوعي، إلا أن خبرة الباحث ودُربته ودرايته أحاطت العمل بمنهج علمي صارم في التعامل مع المعطيات الشفهية واستنطاقها وتوجيهها الرصين لخدمة موضوع البحث بما يتلاءم والحقائق العينية أو الروايات التاريخية.

تم الاعتماد أيضا على ذاكرة المكان من خلال المعاينة والفحص الميداني المباشر والاستنطاق المعزز بإواليات البحث الأركيولوجي والأنثروبولوجي لمآثر القصر وشواهده العمرانية، وهو ما عمد الباحث على نقل بعضٍ منه إلى القارئ عبر وسيط الصور التي تنقل المتلقي البعيد إلى عوالم القصر، وتخفف عنه عنت الاجتهاد في رسم التمثلات الذهنية.

كما حرص الباحث على الوصف الدقيق للكثير من العادات والتقاليد التي مارستها الساكنة ولا تزال، سواء المتعلقة منها بطقوس التعلم الديني لدى الأطفال، أم المرتبطة بأشكال الاحتفالات والفرجة المختلفة، أم أشكال التباري الشعري (النقائض)، وما إلى ذلك من طقوس متنوعة عمل الباحث على إعادة بنائها في ذهن المتلقي المعاصر بشروط إنتاجها نفسها في بيئتها الأصلية الأولى، بما في ذلك المعجم الاصطلاحي التداولي الخاص بكل طقس أو ظاهرة.

إن القيمة العلمية لعمل الأستاذ عبد الشكور ابريك لا تقف عند حدود الاجتهاد المحكوم بتوثيق المعطيات المتداولة، بل تتجاوز ذلك نحو وضع عمل علمي مرجعي يوثق للتراث الشفهي المهدد بالانقراض، فالكثير من العادات والتقاليد والطقوس التي احتفى بها إنسان القصر الأول صارت إلى الزوال وتجاوزها عصر التحول والآلة، والكثير من المصطلحات طالها الانقراض وتجاوزها التداول، ومن هنا تأسست الشرعية العلمية للعمل في سعيه للقبض على ما تبقى من أركيولوجيا الزمن المنفلت وتوثيقها وتحصينها عن الزوال. إنه عمل تقعيدي سيوفر للباحثين مادة علمية مكتوبة موثقة المتواتر المهدد بزوال الذاكرات الهرمة التي ما تزال تحفظ بعضا من تفاصيله.

إن قيمة وأهمية الدراسات المنصبة على التراث الشفهي في علاقته بتاريخ الشعوب، تنبع من الوعي بالقيمة المعرفية المكنونة في هذا التراث، لما يحبل به من معلومات وقصص وأحداث وأخبار وخبرات ستوفر حال الاطلاع عليها ودراستها وتمحيصها، حقائق ووقائع هامة لم تجد بعدُ طريقها إلى التاريخ المدون، لهذا سبقنا وعي الآخر - الذي يحاول الآن إعادة كتابة تاريخه انطلاقا من الهامش. بسبب ما تعرض له من قلة اهتمام- إلى التقعيد لقيمة التراث الشفهي، باعتباره حسب قاموس لاروس Larousse «مجموع التقاليد من أساطير ووقائع ومعارف ومذاهب وآراء وعادات وممارسات». أو حسب قاموس روبير Robert «انتقال غير مادي للمذاهب والممارسات الدينية والأخلاقية المتوارثة من عصر إلى آخر بواسطة الكلمة المنطوقة».

إن أي محاولة لمقاربة ودراسة التراث الشفهي هي محاولة محكومة بالنقص أو الفشل، ما لم يتسلح راكبها بترسانة من العلوم المختلفة التي يمكن أن تنير طريقه في غياب علم مستقل لهذا التراث، باعتباره إرثا مشتركا لحفريات العلوم المختلفة. هناك تزاوج ضمني بين التاريخ والجغرافيا والسوسيولوجيا والأركيولوجيا والأنثربولوجيا وعلم الاقتصاد واللاهوت والأدب... إنها سمفونية متناغمة ومتناسقة لها رَجْعُها بكل تأكيد في هذا العمل الذي اجتهد صاحبه قدر المستطاع في النهل والعودة إلى المضان المختلفة، بغية تقديمه في هذه الصورة الرائعة التي تبحر بنا عبر العوالم المختلفة لقصر أسا، وتقربنا من الساكن والمسكون في دورات الحياة المختلفة بأفراحها وأتراحها.. لحظات انتصارها وانكسارها.. غدوها ورواحها.. إنها قصة كينونة الإنسان في علاقته بالقبيلة والأرض والطبيعة .. في علاقته بذاته والآخر .. في علاقته بالمنظومة القيمية والأخلاقية والاجتماعية التي جعلت منه فاعلا ومتفاعلا مع اللحظة الوجودية بكل ثقلها الممتد ماضيا وآنيا وآتيا.. باختصار؛ هي قصة الحضارة داخل القصر المهجور.

في الختام؛ نثمن عاليا الجهد الذي قام به الأستاذ الباحث عبد الشكور ابريك، في البحث والجمع والدراسة والمقابلات، وتنميق كل ذلك بين دفتي هذا الكتاب، والذي نرجوه مفتاحا وطريقا لمزيد من الأعمال حول المعلمة التاريخية قصر أسا، إعمالا للعقل في الأهم، وصرفا للوقت في الأحق، وإغناءً للذاكرة الجمعية، وندعو الله أن يجزيه خير الجزاء، شاكرين له جزيل الشكر دعوته لنا بتقديم هذا الكتاب، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بقلم الدكتور عبد الحكيم بوغدا
أسا بتاريخ 9 أبريل 2019م

مقدمة

يعد التراث الثقافي بشقيه المادي واللامادي رصيدا هاما لمجموعة من التجارب والخبرات والمواقف المُبْرِزَة لسعي الإنسان في مواجهة مختلف التحديات التي عرفتها حياته على امتداد التاريخ، وهو تجسيد لتفاعل الإنسان مع محيطه، وما نتج عن ذلك من قيم ومهارات وممارسات ومعارف ورثها الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد، لذلك حضي بمكانة هامة من لدن المؤسسات والأفراد على حد سواء. هكذا أولت العديد من المنظمات الدولية والإقليمية اهتماما كبيرا بالمحافظة على التراث الثقافي وحمايته، وذلك بعد أن انصبت الجهود في وقت سابق على حماية الجوانب المادية للتراث فحسب.

لقد أصبح التراث الثقافي بشقيه المادي واللامادي يلقى اهتماما متزايدا في مختلف المحافل الدولية وفي البرامج الثقافية والتربوية وسياسات العديد من الدول والمؤسسات، تأتي منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة «اليونسكو UNESCO» في مقدمتها، انطلاقا من كونه بوتقة للتنوع الثقافي وعاملا يضمن التنمية المستدامة. في هذا الصدد اعتمدت المؤسسة اتفاقية خاصة لصون التراث الثقافي خاصة منه غير المادي Convention De Sauvegarde Du Patrimoine «Culturel Immatériel» في إطار سعيها لحفظ التنوع الثقافي عند مختلف التجمعات البشرية، فشكلت هذه الاتفاقية صكا قانونيا صادقت عليه العديد من الدول بما فيها المملكة المغربية.

يُقصد بعبارة «التراث الثقافي غير المادي» بحسب «اليونسكو» مختلف الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات -وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية- التي تعتبرها الجماعات والمجموعات، وأحيانا الأفراد، جزءا من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلا عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثم احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية. وعموما انتظمت أقسام التراث الثقافي بشقيه المادي وغير المادي على النحو التالي:

التراث الثقافي المادي وينقسم إلى تراث ثابت ويضم التراث الأثري من مواقع ومعالم قديمة ومبان ومراكز وأحياء تقليدية، ومختلف الشواهد من منشآت دينية وجنائزية كالمعابد والمقابر والجوامع والمباني الحربية والمدنية مثل الحصون والقصور والأبراج والأسوار، ثم تراث منقول ممثلا في القطع الأثرية والصناعات التقليدية والنقوش الصخرية والرسومات واللوحات والصور والعملات فضلا عن المخطوطات ومختلف الأعمال المدونة باللغات القديمة.

أما التراث غير المادي فيضم التقاليد ومختلف أشكال التعبير الشفهي والفنون وتقاليد الأداء والممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات والمعارف والمهارات الحرفية، فضلا عن عادات الناس وتقاليدهم ومختلف التعبيرات من آراء وأفكار ومشاعر، والأدب الشفوي بما يتضمنه من أغان

ومرددات شعبية وأهازيج وسير وأمثال وألعاب، كما يضم المعتقدات والنظرة إلى الكائنات فوق الطبيعية والاستطباب الشعبي وفنون الأداء كالموسيقى والرقص وغيرها من الأصناف.

من جانبها أولت المملكة المغربية اهتماما كبيرا بتراثها الثقافي الخصب والغني بروافده المتنوعة: أمازيغية، أندلسية، عربية، أفريقية وغيرها، والذي تقف وراءه أحداث تاريخية وخلفيات وحمولات شعبية حضارية، تأتي في مستوى أشكاله ومضامينه وفي مستوى أهميته ومحتوياته القيمة[1]، وتجسد هذا الاهتمام على مستوى النصوص التشريعية والقانونية الرامية إلى الحفاظ عليه وتثمينه من جهة، وأيضا على مستوى خلق مجموعة من المؤسسات والآليات ودعم كل المبادرات الفردية والجماعية الهادفة إلى صونه وحمايته.

يُقصد بعبارة «الصون» حسب اليونسكو كل التدابير الرامية إلى ضمان استدامة التراث الثقافي غير المادي، بما في ذلك تحديد هذا التراث وتوثيقه وإجراء البحوث بشأنه والمحافظة عليه وحمايته وتعزيزه وإبرازه ونقله، لذلك تزايد الاهتمام وطنيا وأمميا بالتراث الثقافي ومحاولات إحيائه وصيانته وتثمينه والحفاظ عليه من زحف العولمة والتهديد بالاندثار والتلاشي، خاصة مع وفاة العديد من الكنوز البشرية الحية حسب توصيف اليونيسكو، ما يجعل من صونه أولوية أساس، في ظل العولمة المتنامية التي أبانت اليوم عن أهمية صيانته واستغلال موارده لمواجهة تحديات العالم الجديد في المجال الثقافي الهوياتي[2].

ونعتقد أن إعادة الاعتبار لكنوز الذاكرة الثقافية وحفظها للأجيال، وجعلها إرثا للإنسانية يعكس أهمية ما خلفه الأجداد والأسلاف من تاريخ وحضارات وقيم تبرز هوية وخصوصيات المجتمعات وبالتالي الحفاظ على التنوع الثقافي للبشرية، مما يساهم في تشكيل وتغذية العقل الجماعي بالقيم النبيلة والمهارات الإيجابية، فضلا عن الآفاق التنموية التي يتيحها إذا خضع توظيفه لتدبير معقلن ومندمج في برامج التنمية الشاملة، إذ يمكن أن يصبح في بعض الحالات الخيط الناظم للترقية الاجتماعية والترويج الاقتصادي على المستويات المحلية والجهوية بل والوطنية[3].

إن الخطر الذي يتهدد التراث الثقافي وينعكس سلبا على فرص استدامته وصونه وديمومة نقله للأجيال القادمة، يستدعي من مختلف المتدخلين من مؤسسات الدولة الخاصة والعامة المعنية، والمجتمع المدني والإعلام وكل المهتمين والغيورين ومختلف شرائح المجتمع، تكثيف الجهود بغية صيانته، وفق رؤية شمولية متكاملة ومواطنة، تضمن تجميعه وتدوينه، فضلا عن تشجيع البحث والابتكار حول حمايته وإحيائه والتعريف به وجعله جزءا من المعيش اليومي للساكنة، وفي هذا الاتجاه يسير هذا العمل الذي نسعى من خلاله جمع وتدوين التراث الثقافي الأمازيغي التليد بقصر أسا.

1- السعدية عزيزي، سعيد أيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، أول مكنز للتراث الشعبي على الصعيد الوطني، القسم المصنف، المشاريع العلمية للمركز المغربي للتراث الشعبي والمخطوطات، الدار البيضاء، منشورات جمعية وادي الحجاج للثقافة والتنمية، سكورة، ورزازات، مطبعة دار القرويين، الطبعة الأولى 2008، ص: 07.

2- أحمد سراج، تدبير التراث الأثري وقضايا الهوية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2019، ص: 10.

3- نفسه، ص: 19.

وتظل عناصر التراث الثقافي كلٌ واحد متكامل، تسودها العلاقات الوثيقة والتفاعل الدائم، إلا أن جمعه وتدوينه يقتضي تقسيم عناصره لتسهيل البحث والدراسة، من ثم تتأسس الرؤية الشمولية في التعامل مع التراث الثقافي خاصة عند جمعه وتدوينه ودراسته بعدم إهمال أي عنصر من عناصره. موضوع التقسيم هذا شغل مساحة كبيرة من اهتمامات الباحثين والدارسين، نظرا لتعدد عناصر التراث وفروعه كما سبقت الإشارة إليه، وللإحاطة بكل ما أنتجته الشعوب، من خلال التفكير والإبداع والابتكار، وما تراكم من خبرات وتجارب يرجع بعضها إلى زمن سحيق، ظهرت بعض المحاولات العلمية لتصنيف عناصر التراث الثقافي، من أبرزها التقسيم الرباعي الذي قدمه محمد الجوهري[1]:

- العادات والتقاليد الشعبية.
- المعتقدات والمعارف الشعبية.
- الأدب الشعبي وفنون المحاكاة.
- الفنون الشعبية والثقافة المادية.

أعقبته بعد ذلك تصنيفات أخرى إلا أنها لا تكاد تخرج عن التصنيف السابق، ليبقى الهدف الأساس منها هو تيسير سبل البحث والدراسة والتدوين أمام الباحثين والمهتمين، وهو التقسيم الذي سنحاول اعتماده في جمع وتدوين التراث الثقافي بقصر أسا.

عموما؛ إن مسألة التداخل والتفاعل الدائم بين عناصر التراث الثقافي تبقى واردة على أرض الواقع، خاصة وأن التعامل مع عناصره يكون على عدة مستويات في حياة المجتمعات، فالمعتقدات هي تصورات الشعب عن العالمين الطبيعي وفوق الطبيعي، والعادات والتقاليد تمثل الممارسة الشعبية الحية بشكل متكرر، بينما يعكس الأدب الشعبي وجدان الشعب ومجالات فلسفته الشعبية نحو مواقف حياته اليومية وتسريته عن نفسه، على حين توضح الفنون الشعبية ترجمة وجدان الشعب من الشكل اللفظي المنطوق إلى الشكل الحركي الإيقاعي، أما الثقافة المادية فهي تعكس لنا بجلاء النتاج المادي الشعبي الذي يستعين به الشعب فيما يتصل بالزي والسكن والعمل والإنتاج والانتقال[2].

يُجمع ذوي الاختصاص في سياق دراستهم للتراث المادي واللامادي، خاصة على مستوى مناهج جمعه وتدوينه، أن الباحث يحصل على مادته التراثية من مصادر عدة منها الميدان، من خلال الأبحاث الميدانية وجمع المادة التراثية عن طريق المقابلات الشفهية، ثم أرشيف المخطوطات والوثائق والكتب

1- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، منشورات وزارة، الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009، ص: 73.

2- علي محمد المكاوي، التباث والتغيير في العادات والتقاليد والمعارف الشعبية مع الإشارة إلى مجتمع الخليج، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، العدد 03، يناير 1985، الدوحة، قطر، ص: 165.

والمجلات القديمة، فضلا عن وجود مجموعة من المصادر المطبوعة من كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ والأدب وغيرها من المصادر التي ترد فيها المادة الشعبية عرضا.

وعلاقة بما سبقت الإشارة إليه؛ فإن المجال الذي سنشتغل عليه تكاد المصادر المذكورة أعلاه تكون قليلة، خاصة فيما تعلق بالأرشيف، وحتى وإن وجدت بعض المخطوطات والوثائق فهناك صعوبة بالغة في الوصول إليها، أو يمتنع أصحابها عن تسليمها للباحثين والمهتمين مخافة أن تختلط بوثائق الأملاك وما شابه ذلك[1]، وعلى مستوى المطبوعات التي ترد فيها المادة التراثية عرضا ورغم اهتمام العديد من الأجانب بتاريخ المنطقة في فترات تاريخية مختلفة خصوصا منها الاستعمارية، إلا أن موضوع التراث الثقافي بقصر أسا لم يرد ذكره في كتاباتهم بشكل كاف.

ولسد هذا الفراغ الموضوعي، يبقى المصدر الأول هو «الميدان»، وهو المسار الذي اعتمدناه من خلال الروايات الشفوية مع عدد من شيوخ ونساء قصر أسا، فضلا عن المقابلات والجولات الميدانية التي قمنا بها في عين المكان رفقة ثلة من العارفين بشؤونه والذين غالبا ما كانوا يتحدثون بحسرة كبيرة عما آلت إليه الأوضاع، متحسرين على ضياع لحظات المجد والعطاء والطمأنينة والوقار التي ألقت بظلالها على كل فضاءات ودروب وأزقة ومنازل قصر أسا في فترات زمنية معينة.

واستنادا إلى كون التراث الثقافي هو مجموعة العناصر الثقافية المادية والروحية لشعب من الشعوب تكونت على مدى الزمن وعبر أجيال متلاحقة، كل جيل ينقلها إلى الجيل اللاحق عبر عمليات التنشئة الاجتماعية والثقافية[2]، وانسجاما مع ما أكده عباس الجراري حول مفهوم التراث الشعبي باعتباره مصطلحا واسعا وشاملا يتجلى مفهومه فيما أنتجه الشعب بأفراده وجماعاته خلال الأجيال[3]، وأخذا بعين الاعتبار غزارة وتنوع هذا التراث، فإننا سنحاول الإحاطة بكل تجلياته ومظاهره وعناصره ضمن مجال دراستنا: «قصر أسا».

إن ما سعينا التأكيد عليه في هذا سابقا، هو الأهمية الكبيرة التي حضي بها التراث الثقافي باعتباره كل ما هو موروث في مجتمع معين عن الأجيال الغابرة[4]، والدعوة إلى المحافظة عليه وحمايته وتثمينه من طرف مختلف المؤسسات الدولية والوطنية، من خلال تقديم بعض الإشارات المقتضبة، وجعلها نبراسا ينير طريق عملنا، محاولة منا لجمع وتدوين التراث الثقافي بقصر أسا، كما أنه يشكل الجسر الوحيد لإدراك الصورة الحقيقية للمجتمع من خلال سلوكياته، وما يخضع له من تأثر وتأثير، ناجم عن التفاعل مع مجموعة من الظواهر، لنقف في النهاية على الخصائص التي تميزه

1- مجموعة من العائلات بقصر أسا مازالت في حوزتها العديد من الوثائق والمخطوطات، أغلبها تعرض للإتلاف والضياع مع مرور الزمن، منهم من صرح بإتلافها أو وضعها تحت الأرض مع الأسلحة حتى ضاعت خوفا من المستعمر آنذاك، ليضيع معها جزء هام من تراث وتاريخ المنطقة.

2- علي محمد المكاوي، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مرجع سابق، ص: 165.

3- عباس الجراري، من وحي التراث، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971، ص: 87.

4- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي المغربي، الطبعة الرابعة، 1997، ص: 192/191.

كمجتمع عن سواه، والتي ينتجها بنفسه لنفسه[1].

ينضاف إلى هذا ازدياد الإحساس بالمسؤولية لدى الجميع بضرورة إيلاء العناية الخاصة والاهتمام المتزايد بهذا الموضوع، والذي يعتبر الانطلاقة الأساس في بناء البلدان وإبراز هويتها وتعزيز الانتماء إليها، ومن ثم الدفع بعجلة التنمية الاجتماعية والاقتصادية بها. إن تحقيق مبدأ الاستدامة الثقافية للتراث الثقافي تتأسس عن طريق تدوينه وحمايته وتعزيزه وإبرازه وإبداعه من جديد، سيما وأنه أضحى من طليعة الأولويات التي تشغل اهتمامات مختلف المؤسسات والمراكز والهيئات المهتمة. فالخوف يكون دائما على فقدان المادة التراثية نتيجة وفاة العديد من الكنوز البشرية التي ظلت تحملها في الصدور. لذلك انتظمت محتويات هذا العمل لتأخذنا إلى معالم التراث المادي وغير المادي الأصيل والمتجذر بقصر أسا، إحياء لذاكرته ولفتا لانتباه أجيال المستقبل إلى هذا الإرث الذي يعد حلقة وصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

تأسيسا على ما سبق؛ يتناول هذا الكتاب بالدراسة والتحليل التراث الثقافي العريق لقصر أسا، والذي عرف استقرارا مبكرا للتجمعات البشرية الأولى المتوطنة حول واد درعة، على اختلاف أصولها وثقافاتها وأساليبها في العيش وأنظمتها الانتاجية عبر العصور، كما اختلفت أوضاعها الاجتماعية من خلال العادات والتقاليد، منذ أقدم العصور إلى اليوم، ولعل أكثر ما ميزها هو التمدن ضمن قبائل القصور، متخذة من الواحة مجالا للاستقرار، وضمن هذا النمط يندرج قصر أسا[2].

بدأت المعالم الأولى للبحث في التراث الثقافي بقصر أسا، تلوح لنا منذ أمد ليس بالقصير، وازدادت هذه الرغبة إلحاحا مع مرور السنوات، لما كان أسفنا يتزايد وحسرتنا تتواتر، حيث صرنا يوما بعد يوم نخسر جزءا هاما من هذا التراث، ولما كنا نعلم ونحن في عين المكان ضياع الوثائق والمخطوطات، وانهيار البنايات الشاهدة وتلاشي الآثار واندثارها، وانقراض العديد من عناصر هذا التراث الذي شكل الذاكرة الشعبية الجماعية، خاصة بعد وفاة العديد من رجالات ونساء قصر أسا باعتبارهم جزءا هاما من تاريخ هذا المجال وما اختزله من ثقافات تجمعات بشرية تعاقبت على الاستقرار بالمنطقة منذ فترة ما قبل التاريخ إلى العصر الراهن، ولما أدركت أن الجميع على غيرة كبيرة للحفاظ على هذه المعلمة، ورغبة صادقة من أجل العمل على توثيق وحفظ ما تبقى من تراثها، تزايد الإحساس أنه من واجبي أن أسهم في إنجاز هام، يهدف بالأساس إلى جمع وتدوين وأرشفة التراث الثقافي بقصر أسا، بعد الاطلاع على ما توفر من معطيات، والقيام بجولات ميدانية، فضلا عن لقاء عدد من خيرة المهتمين والعارفين بقصر أسا وتراثه.

1- السعدية عزيزي، سعيد أيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، مرجع سابق، ص:29.

2- سنستعمل عبارة قصر أسا لنعني بها قصر «إِدَاوْمَلِيلْ» وقصر «إِدَاوْنْكِيتْ». وردت هذه العبارة في بعض الوثائق بهذا الرسم «قصر أسَ» كما في الوثيقة التالية: «(...) فقد شهدت عكيدة بنت حماد وابنها امبارك بن الحسن (...) أنها باعت ما ورثت من متروك أبيها في الأصل الذي في «قصر أسَ» للحبيب بن بكريم بن الحسين بخمسة مثقال فضة (...)» نسخة أمدنا بها الباحث سعيد عدي.

يبدو في البداية أن الخوض في هذه المهمة العلمية لابد أن يكون مشوبا بالتردد والتخوف من تحمل المسؤولية، وهي مسؤولية جسيمة بحكم صعوبة تصور محاور كبرى لعمل شامل ومتماسك، عمل يضم كل تجليات ومظاهر التراث المادي وغير المادي بقصر أسا، فكانت في الحقيقة مرحلة حيرة لكنها مفيدة جدا حيث توجت باتخاذ قرار خوض غمار إنجاز هذا العمل، إلا أن هذا القرار لم يكن اعتباطيا، بل استمد مشروعيته من مبررات وحوافز عدة منها ما سبقت الإشارة إليه، ومنها أيضا اقتناعنا الراسخ بإمكانية المساهمة في ترجمة الرغبة الملحة والإرادة الجامحة لدى العديد من رجالات ونساء وشباب «قصر أسا» وكل المهتمين والغيورين من أبناء المنطقة، من أجل العمل على جمع وتدوين ما أنتجه الأجداد والآباء ليبقى مفخرة للأبناء والأحفاد.

إن من شأن هذا العمل جمع وتدوين تراث لا شك أنه سينير زوايا البحث المتخصص من جهة أولى، ومن جهة ثانية سيرسخ جذور الانتماء والحفاظ على الهوية الأمازيغية الأصيلة لسكان قصر أسا، في ظروف سوسيو اجتماعية وثقافية متغيرة، مما حتم تطوير وسائل العيش والعمل والإنتاج والسكن، فضلا عن التطور المتواصل لوسائل الاتصال، والتي استطاعت أن تحدث تغييرا وفراغا كبيرين أصبحت معه الكثير من تجليات هذا التراث خارج نطاق الاهتمام والصيانة، بحكم أن هذا التراث بالأساس جزءٌ هام من التراث الوطني الغني بروافده المتنوعة الأمازيغية، الأندلسية، العربية، الإفريقية وغيرها.

من ثم ارتأينا أخذ زمام البحث بقدر ما تيسر من معطيات، وما سمحت به ثقافتنا وخبرتنا من أجل جمع وتدوين التراث الثقافي بقصر أسا، علّ ذلك يكون عاملا محفزا لتوسيع دائرة الاهتمام والبحث والتنقيب حوله من طرف الباحثين والمهتمين من ذوي الاختصاص في مختلف المجالات، خاصة منها ذات الارتباط بدراسة حياة المجتمعات بالواحات. غرضنا في ذلك إعطاء قصر أسا ما يستحقه من البحث والعناية، حيث إنه على الرغم من أهمية هذه المعلمة على مر التاريخ؛ إلا أن الحديث عنها بشكل أكاديمي ظل رهين التأجيل أو لا يتعدى بعض المحاولات المحتشمة، علما أنها تختزل عددا هاما من عناصر التراث المادي واللامادي، والتي هي في مسيس الحاجة إلى التنقيب والدراسة والتحليل.

للوصول إلى الهدف المنشود منطلقا من هذا العمل، اعتمدنا على منهجية بحث مبنية على شقين أساسيين؛ شق نظري اطلعنا خلاله على مجموعة من المؤلفات التاريخية، الاجتماعية، الثقافية والتراثية، فضلا عن المجلات والجرائد، ثم الأبحاث والدراسات الجامعية، إضافة إلى بعض الوثائق والمخطوطات. أما الشق الميداني فاعتمدنا فيه على المقابلة والملاحظة والمشاركة، من خلال العديد من المقابلات والجلسات كان الهدف منها جمع الروايات الشفوية المتعلقة بموضوع البحث، كما سعينا إلى الالتزام ببساطة التعبير ضمانا لتحقيق تواصل أكبر، واخترنا أن نتمسك بحدود المنطقة التي سنبرز خصوصياتها التراثية دون تجاوزها إلى غيرها إلا إذا اقتضت مصلحة هذا العمل ذلك.

كما هو معلوم لدى الباحث أو الدارس في أي ميدان من ميادين البحث، فإن لذة العمل الميداني لا تكمن فقط في الحصول على المعلومات والمعطيات، بل حتى في تلك الصعوبات التي تعترض سبيله وما يبذله من جهد في سبيل تجاوزها. ومن بين الصعوبات التي واجهناها وضع تصور شامل ودقيق لهذا العمل، إذ أنه بمجرد الدخول في محور أو مجال ما إلا وتناسلت أمور أخرى هامة تستدعي الإشارة إليها بشكل معمق وتفصيلي. كما أنه خلال قيامنا بالمقابلات الشفوية وجدنا صعوبة في ذلك، نظرا لضعف مستوى المستجوبين المعرفي، زد على ذلك تعدد الروايات الشفوية حول الموضوع الواحد وحتى تضاربها في أحيان كثيرة. ومن أكبر الصعوبات أيضا تعرض أجزاء هامة من قصر أسا للهدم والزوال، ووفاة العديد من نسائه ورجاله، فدفنت معهم العديد من عناصر تراث هذه المعلمة الضاربة في عمق التاريخ.

ومع كل ما سبق؛ استطعنا من خلال مساعدة وتوجيهات وتفاعل ساكنة المنطقة لاسيما ساكنة قصر أسا، وكل المهتمين والغيورين، تجاوز تلك الصعوبات، من أجل إعداد هذا العمل الذي أردناه أن يكون عاملا محفزا ومستفزا للمزيد من البحث حول معلمة «قصر أسا». وعليه؛ جاء هذا العمل مكونا من تقديم بقلم الدكتور عبد الحكيم بوغدا، ثم مقدمة ضمناها مدخلا استحضرنا من خلاله الاهتمامات المتزايدة بموضوع التراث المادي واللامادي جمعا وتدوينا ودراسة وتثمينا، سواء من طرف الجهات الرسمية أو المؤسسات والهيئات التي تعنى به، من أجل إبراز خصوصيات المجتمعات على مر التاريخ، ضمت المقدمة أيضا دوافع العمل الأساسية، أهميته وأهدافه، العوامل المساعدة وبعضا من الصعوبات التي مررنا بها أثناء إعداده.

وفي محاولة للإلمام بجميع عناصر الموضوع، قسمنا هذا العمل إلى خمسة فصول تضمنت مجموعة من المباحث، خصصنا بذلك فصلا كاملا للإشارة إلى بعض الخصائص المعمارية والاجتماعية والدينية والثقافية والاقتصادية بقصر أسا، باعتباره مجالا حاضنا لهذا التراث، فضلا عن الإشارة إلى تناغم أنسجته المعمارية المحافظة على الإطار العمراني التقليدي، وسعيا إلى التعريف به أكثر، قمنا بجرد لأسماء أهم فضاءاته وأماكنه العمومية، وأسماء الدروب والأزقة المكونة له وأيضا أسماء العديد من الحقول بواحة أسا، مع الإشارة لطرق تدبير واستغلال المياه بها.

ثم خصصنا الفصل الثاني للعادات والتقاليد بقصر أسا ذات الصلة بدورة الحياة من ولادة وزواج ووفاة، وعادات وتقاليد مرتبطة بالأعياد والمناسبات والمواسم الزراعية، فضلا عن عادات وتقاليد أخرى مرتبطة بالحياة الاجتماعية. والفصل الثالث خصصناه للمعتقدات والمعارف الشعبية. في حين خصصنا فصلا رابعا للأدب الشعبي وفنون المحاكاة. وأخيرًا الفصل الخامس استحضرنا من خلاله أهم تجليات الفنون الشعبية والثقافة المادية. أما الخاتمة فقد ضمت نتائج واقتراحات وتوصيات نراها كفيلة بضمان المزيد من العناية والحفاظ على ما تبقى من هذا التراث بقصر أسا. كما استعنا ضمن هذا العمل بمجموعة من الصور التوضيحية وبعض المخطوطات والوثائق التي تساعد في توضيح الصورة أكثر لدى المتلقي.

الفصل الأول:
الخصائص المعمارية، الاجتماعية، الدينية، الثقافية والاقتصادية لقصر أسا

تمهيد

لماذا هذا العمل حول المعلمة التاريخية قصر أسا؟ أهي الغيرة على تراثه الثقافي الغني والمتنوع الضارب في عمق التاريخ، الذي ظلت الصدور تحمل ما تبقى منه ردحا من الزمن؟ أم هو تأكيد على الانتماء وتجسيد للهوية الثقافية الأمازيغية بالصحراء المغربية؟ إنه هذا وذاك. ولكنه أيضا طموح إلى لفت الانتباه إلى ضرورة إيلاء العناية لهذه المعلمة ولذاكرتها التراثية الجماعية الأصيلة، وفاء وعرفانا لما وصل إليه إنسان هذا المجال من إبداع وابتكار في ظل ظروف ومعطيات طبيعية وجغرافية واجتماعية صعبة.

المتأمل للنسيج العمراني بالقصور بواحات الجنوب المغربي عامة، قصر أسا تحديدا، دون أدنى ريب سيكتشف عبقرية الإنسان البسيط الذي سكنها، مخلفا نسيجا معماريا دقيقا ومتناغما وكنوزا تراثية غنية ووثائق ومخطوطات ثمينة وحدت آماله وتطلعاته وانعكست إيجابا على نمط عيشه التقليدي الجماعي الاجتماعي.

عبر الاطلاع على مجموعة من المؤلفات والوثائق والمخطوطات من جهة، واعتماد الرواية الشفوية من جهة ثانية، سنقف عند «قصر أسا» كنمط معماري أوجد لنفسه شروط الاستقرار وظروف العيش وفق طابع معماري أضفى على سلوك الساكنة أبعادا ثقافية ابتكارية معبرة عن عمق وغنى التعابير والدلالات المنسجمة مع خصوصيات مجال الواحات والمحققة للتعاون والانسجام الاجتماعيين بين الأفراد والجماعات.

وضمن هذا الكل المتجانس، ومع وجود الأمن ووفرة الماء وعطاء الأرض، عَظُم ما توصل إليه إنسان الواحة في مجال التدبير التقني الجماعي للمياه، عن تقنية السقي بنظام «تَنَاسْتْ» سنتحدث، وعن بعض خصائصه المعمارية والاجتماعية والدينية والثقافية وتجليات تراثه المادي واللامادي الأصيل بشكل مفصل سَنُبِين.

المبحث الأول : الخصائص المعمارية

أولا: موقع قصر أسا

يقع قصر أسا بإحدى واحات وادي درعة السفلى المحادي للسفوح الجنوبية لجبال باني المتصلة بالأطلس الصغير، وشكل النواة الأولى لمدينة أسا، التي تبعد عن مدينة كلميم بـــ 110 كلم، ويتخذ شكل هلال مسايرا بذلك الوحدات التضاريسية التي بني عليها والمجاورة له[1]، حيث يقع جزء منه فوق ثلة، وتحكم شكل انتظام مجرى الوادي في الحد من توسع القصر في اتجاه الشمال والشرق، فبقي يتوسع بشكل هلالي، ويفصل واد أسا ما بين القصر والمدينة الحديثة التي تحده من جهتي الشمال والشرق، أما من جهة الغرب فتحده بداية سلسلة جبال باني، وتحده من جهة الجنوب الحمادة، ويعتبر من بين أكبر القصور من الناحية المعمارية المتواجدة بمناطق الواحات المغربية.

تشير الأبحاث المنجزة حول المنطقة إلى أن قصر أسا كان مقسما إلى قصرين: «قصر بَنِي مَلِيلْ» و»قصر بَنِي انْكِيتْ»، كما تشير الرواية الشفوية[2] إلى أن مجال أسا ضم قديما قصورا وقصبات عدة منها: «قصر بمنطقة «أَخْنَفُو» تَدَشَّاشْتْ بوادي درعة»، قصر بمقربة من ضريح «سيدي نْعَامْ وُنْعَامْ»، «قصر أدْرُومْ»، ثم «القَصْبَة» التي كانت تتواجد وسط مدينة أسا بالقرب من ضريح الولي سيدي محمد الشّبَكِي، كلها معالم معمارية أثرية اختفت وضاع تاريخها ولم يبقى لها أثر.

الصورة رقم 01: صورة جوية من Google MAPS لقصر أسا. (23 أبريل 2018)

1- أنظر الصورة رقم 01.

2- رواية شفوية، الحسين بن مولود بن عبد الجليل أحشوش، 56 سنة، من أعيان قبيلة آيْتْ أسا، بتاريخ: 23 ماي 2008.

تؤكد العديد من المراجع والمظان التاريخية المهتمة بالمنطقة أن ماضي قصر أسا يعود إلى آلاف السنين من العصر الحجري، سواء فيما يخص تعميره وكذا المنشآت الاجتماعية والدينية والسياسية[1]، كما ترجح الدراسات والأبحاث الأركيولوجية إلى أن مجال أسا استوطن منذ ما قبل التاريخ بناء على المعطيات المتوفرة خاصة منها النقوش الصخرية التي تعود في أغلبها إلى مرحلة ما قبل التاريخ «5000 ق.م». وقد شكل إلى عهد قريب تجمعا سكنيا ومركزا تجاريا وملتقى للطرق بين شمال المغرب وبلاد السودان ازدهرت عبره تجارة القوافل والمبادلات والمقايضات التجارية.

إلى جانب الاستقرار البشري الذي عرفه قصر أسا قديما، ووجود عناصر وثنية ومسيحية ويهودية، ارتبط اختفاؤها بمجيء الإسلام وتأسيس «زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى»، سكنته عشائر عدة تأثرت بمؤثرات أخرى ساهمت بشكل كبير في غنى وتنوع وتشكيل تاريخه وتراثه المادي واللامادي، خاصة منها المؤثرات الصحراوية وانتمائه من جهة لوادي درعة ومن جهة ثانية انتماؤه التاريخي لسوس الأقصى منذ ما قبل الدولة المرابطية، مما انعكس بشكل كبير على غنى تاريخه وتنوع عاداته وتقاليده ومعارفه الشعبية، ثم الصناعة اليدوية والأدب الشعبي وفن العمارة، فضلا عن باقي التعبيرات التراثية الأخرى، لتتشكل بذلك الذاكرة الشعبية الجماعية بهذه المنطقة.

تختلف المصادر والوثائق والروايات حول تسمية المنطقة، حيث تواترت العديد من التسميات منها: أسَا، أسَى، تِيسِيتْ، قصور أسا، قصر أسَ، زاوية أسا، بلاد الأمان، قرية الأولياء، حج المساكين، حج الضعفاء وغيرها. وقد تحدث الباحث «فانسان مونطاي Vincent Monteil» على أن أصل تسمية «أسا» أمازيغي، وتعني الغار أو الحفرة «le trou»[2]. في حين ترد الرواية الشفوية أصل الكلمة إلى «تِيسِيتْ» أي المنخفض الجبلي، فيما رأى الباحث محمد صدوق أن أسا مشتقة من «تَاسَنُو» وتعني بالأمازيغية «كَبِدِي»، وعادة ما ينطق بهذه الكلمة في الحروب، وتنبيء أن الاسم مشتق من «تاسانو»، أي الكبد، وهو بالأصل موجود بداخل الجوف مما يعطي صورة للمكان المغلف بالكثير من الجبال العليا، ومصدر «تاسانو» هو عويل وصراخ النساء كلما فقدن عزيزا. وبالنظر إلى الموقع الطبوغرافي لأسا، زكى البعض مصطلح «تَاسَنُو» أو «تَاسَا» التي تعني أيضا «الجُحْر»، وتبنى الباحث في التاريخ الحسان بوغدا هذا المصطلح الأخير أي «الجُحْر» في تفصيله لسبب التسمية، على اعتبار أن موقع أسا يوجد في منخفض درعة بين كتلتين تضاريسيتين هما سلسلة جبال بَانِي في الجهة الشمالية، وسلسلة جبال الوَارْكْزِيزْ في الجهة الجنوبية، ومما يعزز هذا الطرح وجود واد أسا وهو من أهم روافد وادي درعة ثم واد تِيغْزَرْت، وحسب الباحث نفسه فبمجرد إلقاء نظرة أفقية من على «بُرج إحْشَاشْ» في اتجاه الشمال تجعل الإنسان يعتقد أن أسا لا منفذ واضح لها، إنما الدخول

1- الحسان بوغدا، قصر أسا أقدم بناء أثري يعود تاريخه إلى آلاف السنين، جريدة أصداء مغربية، عدد 37.

2- Vincent Monteil, *Notes sur Les Tekna*, Editions Larose, Paris, 1948, p : 20.

إليها يكون بشكل ملتو بين هذه السلاسل الجبلية. فيما قال صاحب كتاب «الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ» عن المنطقة: هذا الموضع يقال له زاوية أَسَا بفتح الهمزة والسين بعدها ألف، خارج أرض سوس بينها وبين أرض غرب السودان[1].

نستنتج أن كلمة «أسَا» اتخذت أبعادا ودلالات مختلفة من حيث التفسيرات، منها البعد الأسطوري، ومحددات طبيعية مجالية واجتماعية وأخرى دينية، كما لحقها على مستوى المبنى ودلالة المفهوم الكثير من التغيرات، وذلك راجع بالأساس إلى التغيرات الكبرى التي عرفها المجال، وأكد ذلك الباحث عمر ناجيه قائلا: إن التعريفات التي تتخذها المجموعات البشرية والمواقع الجغرافية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالعلاقة التي ينسجها الفرد بالمجال الجغرافي، وقد تتحكم في هذه التعريفات اعتبارات إثنية أو لغوية أو اجتماعية[2]. هذا الأمر أثر على تسمية المنطقة، وجعلها تعرف مدلولات متباينة، وكل مدلول يرتبط بزمانه وحقبته وثقافته، كما يرتبط بالدراسة العلمية والجيولوجية.

ثانيا: فضاء قصر أسا

أشرنا سابقا لإشكالية ندرة المظان الميسرة لمعرفة تاريخ وظروف نشأة القصور بالجنوب المغربي لاسيما قصر أسا، إذ لا تسعفنا المعطيات والمراجع الموجودة لتحديد دقيق لتاريخ نشأته، إنما يمكن القول اعتمادا على الوثائق والمخطوطات المتوفرة والأبحاث المنجزة على أنه يعود إلى آلاف السنين، من خلال العديد من المؤشرات الاجتماعية والدينية والثقافية[3]. وكباقي القصور المشيدة على امتداد واحات الجنوب المغربي، فإن عملية البناء مرت من مراحل عدة، فبعد مرحلة اختيار الموقع والأساس، تأتي مرحلة بناء الجدران «بِالتّابُوتْ» ثم مرحلة «التّسْقِيفْ»، فمرحلة الزخرفة وتبليط الجدران وصباغتها.

اعتمد في تشييد قصر أسا[4]سواء «إدَاوْمَلِيلْ» أو «إدَاوْنْكِيتْ» على الحجارة الصلبة وتقنية البناء «بِالتّابُوت» أو «اللّوح»[5]، ذلك أنه بعد تهييء التربة وتخميرها، توضع الحجارة كأساس، ليوضع لوحان من الخشب فينصبان على أساس، وقد بُوعِد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عَرْضِ الأساس، ويُوصِل بينهما بأذرع من الخشب يُرْبَطُ عليها بالحِبَال والجُدُرِ. ويُسَد الجهتان الباقيتان من ذلك الخَلَاءِ بينهما

1- أحمد بن مبارك بن محمد السجلماسي اللمطي، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص: 288.

2- عمر ناجيه، البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرنين 19/18، قبيلة آيْتْ لَحْسَن نموذجا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1999، ص: 22.

3- منها وجود نقوش صخرية تعود إلى العصور القديمة والمستحثات والأدوات الطينية واللقى إضافة إلى التجمعات البشرية التي تعاقبت على هذا المجال.

4- يلزم إجراء دراسة أثرية «تخصص جدران» لمعرفة النواة الأولى لقصر أسا.

5- أنظر الصورتين رقم: 02 و03.

بلوحين آخرين صغيرين، ثم يُوضَع فيه التراب مُخَلطا بالكِلْسِ ويُرْكَز بالمَرَاكِزِ المعدة حتى يَنْعَم رَكْزُه ويَخْتَلِطَ أجْزَاؤه، ثم يُزَادُ التراب ثانيا وثالثا إلى أن يَمْتَلِئَ ذلك الخَلَاء بين اللوحين وقد تَدَاخَلَت أجزاء الكِلْسِ والتراب وصارت جسما واحدا. ثم يُعَادُ نَصْبُ اللوحين على صُورَة، ويُرْكَز كذلك إلى أن يَتِمَ، ويُنَظم الألواح كلها سَطْرا من فوق سطر إلى أن يَنْتَظِمَ الحائط كله مُلْتَحِما كأنه قطعة واحدة[1].

الصورة رقم 02: منازل القصر. من أرشيفي الخاص (13 يونيو 2002)

الصورة رقم 03: منازل القصر بالتابوت. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

1- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق شرح وفهرسة سعيد محمود عقيل، دار الجيل، 2013م، بيروت، ص: 350.

يشرف على عملية البناء «مْعَلَّم» متخصص، حيث إن جل المنازل والفضاءات والأماكن العمومية شيدت بهذه الطريقة، كما تم الاعتماد فيها على تقنية «التّسْقِيف» التي لا تخلو هي الأخرى من حضور مهارات وإبداع وابتكار «لَمْعَلْمِينْ»، مجسدة بذلك شكلا من أشكال العمارة الواحية المتميزة، كخاصية حضارية ثقافية تناغم فيها الإبداع الإنساني مع حاجياته وتشبته بالأرض وفق تخطيط معماري دقيق. فكل خاصية هندسية من خصائص القصر المعمارية، إلا ولها مبرر منطقي، يظهر في الوظيفة التي تؤديها لصالح أفراد المجتمع[1].

ويتضح انطلاقا من الهندسة المعمارية التقليدية التي شيد بها قصر أسا، أن طريقة البناء وأسلوبه يثيران الانتباه، خصوصا فيما تعلق بالتنظيم الداخلي لمكوناته، والتي طبعها التناسق والتناغم والانسجام ومحيط القصر الطبيعي، ثم استغلال كل ما جادت به الواحة من الحجارة والتراب الممزوج بالتبن وجذوع أشجار النخيل كمواد أساسية في البناء، كلها تقنيات وأدوات استجابت لحاجيات إنسان قصر أسا ونمط عيشه، ملائمة للخصوصيات الطبيعية للمنطقة، خاصة ارتفاع درجات الحرارة، في تعامل ذكي مع شروط المناخ[2]، والسعي نحو الاحتماء من كل أذى وهذا شيء غريزي في الإنسان، كما أشار إلى ذلك ابن خلدون في أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لابد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد[3].

اعتمدت عملية البناء عند ساكنة قصر أسا على ما يعرف بـ «أدْوَالْ»[4]، وتقوم على العمل بالتناوب بين شخصين أو ثلاثة، حيث يوقع اتفاق جماعي تضامني من خلاله يتم التعاون على بناء المنازل والمستفيد بمجرد أن يوفر المواد الأولية وكل الحاجيات الضرورية ولوازم البناء وإعداد أطباق خاصة بتغذية العمال؛ تتم عملية انطلاق الأشغال في أجواء حميمية لا تكاد تخلو من ترديد أهازيج ومرددات شعبية تبث الحماسة في نفوس العمال وتهيئ لهم الجو الملائم لاجتياز كل الصعاب وبعد الانتهاء من بناء منزل معين يُشْرَ ع في بناء المنزل الموالي وهكذا دواليك وبالطريقة نفسها وبشكل جماعي تم بناء مختلف المؤسسات الدينية والاجتماعية، وباقي الأماكن العمومية وبها أيضا يتم إصلاح وترميم كل ما يحتاج منها إلى ذلك[5].

1- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار «غريس نموذجا»، سلسلة الدراسات والأطروحات، رقم 3، مركز الدراسات الأنتروبولوجية والسوسيولوجيا، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط 2005، ص: 228.

2- عبد الكريم جندي، القصر في واحات الجنوب الشرقي: موروث ثقافي فريد في وسط متحول، 2015/10/15، دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الحوار المتمدن، العدد 4956.

3- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص: 349.

4- «أدْوَالْ»: عملية تضامنية تقوم على العمل بالتناوب بين شخصين أو ثلاثة، حيث يوقع اتفاق جماعي من أجل التعاون على بناء المنازل وباقي المنشآت.

5- تشير الأبحاث والدراسات إلى أن قصر أسا لم يصل إلى المستوى الذي هو عليه الآن من البناء المعماري إلا عبر قرون طويلة.

ترافق هذه العملية طقوس عديدة من بينها إقامة الولائم الجماعية، حيث في كل وليمة تذبح ذبيحة أو اثنتين، حسب قدرة صاحب المنزل وهي عادة متوارثة تسمى «تِغَرْسِي نْ سْلُوكْتْ»[1]، إيمانا من صاحبها أن البركة والخير يعمان أرجاء منزله، كما يتم أخذ جميع الاحتياطات حسب المعتقدات الشعبية المتوارثة لدرء العين والحسد، ويعلق البعض قدحا أو إناء أسود اللون بأحد جدران المنزل الخارجية.

تبرز الأهمية الإستراتيجية لموقع قصر أسا بجلاء، من خلال هيئة أبراجه التي اختلفت الرواية الشفوية في تحديد عددها، فهناك من ذهب إلى حصرها في ثمانية أبراج وهناك من قال سبعة أبراج بإضافة «بُرْج إدْبَاهَا»، رأي ثالث أخذ بستة أبراج، ومن خلال زيارتنا الميدانية رفقة مجموعة من شيوخه[2]، توقفنا عند ستة أبراج لا زالت أماكنها واضحة للعيان[3]، منها ما اندثر كليا ولازالت ذاكرة رجالات القصر تحتفظ بمعالمه ومنها ما تزال أجزاء منه صامدة، عرفت هذه الأبراج تنظيما محكما تشرف عليه مكونات القصر سواء «إدَاوْنْكِيتْ» أو«إدَاوْمَلِيلْ». فعلى مستوى القسم الشمالي للقصر أي منطقة «إدَاوْمَلِيلْ» شيدت الأبراج التالية:

- لْبُرْج إحْشَاشْ: يتواجد في قمة الثلة التي شيد فوقها قصر أسا، وتشرف عليه فخدة «إحْشَاشْ»[4].

الصورة رقم 04: لْبَرْج إحْشَاشْ بعد ترميمه. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

1- «تِيغَرْسِي» هي الذبيحة، و«سْلُوكْتْ» بمعنى الوليمة على وجه الصدقة.

2- الزيارة الميدانية كانت رفقة كل من المرحوم مبارك بن مولود بن عبد الجليل بن الحسين امبارك أحشوش من ساكنة قصر أسا، 66 سنة/ الحسين بن عبد الجليل بن الحسين امبارك أحشوش، فلاح، 87 سنة/ عيدا بن محمود بن امبارك الاساوي، فلاح وفاعل جمعوي، 57 سنة/الحسين بن مولود بن عبد الجليل أحشوش، 56 سنة، من أعيان قبيلة آيْتْ أسا. بتاريخ: 23 ماي 2008.

3- هناك من الباحثين من يرى بأن الأبراج المتصلة بالمنازل لا تسمى أبراجا وإنما هي جزء من التصميم المعماري والهندسي للمنازل.

4- أنظر الصورة رقم 04.

- لْبُرْج نْدْ بْزِيزْ: يوجد أمام المقبرة والطريق المؤدية إلى باب «إمِي نْ سُوقْ» تشرف عليه فخدة إدْ حَمْزَةْ[1].

الصورة رقم 05: لْبَرْج نْدْ بْزِيزْ. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

- لْبُرْج نْدْ عْبَيْدْ الله: يقع بمحاذاة سور القصر بمنطقة تدعى «إجَارِيفْنْ» وتشرف عليه فخدة «آيْتْ أحَايَكْ»[2].

الصورة رقم 06: لْبَرْج نْدْ عْبَيْدْ الله. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

1- أنظر الصورة رقم 05.

2- أنظر الصورة رقم 06.

- لْبْرْج أَكَنْكُو: تشرف عليه فخدة «آيْتْ بَحْمَانْ»[1].

الصورة رقم 07: لْبَرْج أَكَنْكُو. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

- لْبُرْج نْ آيْتْ أَحَايَكْ: يوجد بين المقبرة و«أَنْرَارْ نَدْ حْمَادْ»، وتشرف عليه فخدة «آيْتْ أَحَايَكْ»[2].

الصورة رقم 08: لْبُرْج نْ آيْتْ أَحَايَكْ. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

1- أنظر الصورة رقم 07.

2- أنظر الصورة رقم 08.

وعلى مستوى منطقة «إدَاوْنْكِيتْ» نجد برجا واحدا هو «لْبَرْج نْ تَضُوحَانْتْ»[1]، الواقع بين المقبرة وزاوية أسا ويشرف عليه «إدَاوْنْكِيتْ».

الصورة رقم 09: لْبَرْج نْ تَضُوحَانْتْ. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

ولتعزيز الجانب الأمني؛ سُوّرَ قصر أسا من كل الجوانب، فشكل بذلك حصنا يحمي من بداخله من كافة المخاطر الخارجية، ولا زالت بعض من بقايا ذلك السور صامدة تخترقه ثقوب[2] وضعت بشكل دقيق لغرض المراقبة من الجهة المقابلة، وضم مجموعة من الأبواب والمداخل الرئيسة والثانوية.

1- أنظر الصورة رقم 09.

2- أنظر الصورة رقم 10.

الصور رقم 10: بقايا سور قصر أسا تخترقه ثقوب للمراقبة. من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

وتعددت أدوار تلك الأبواب والمداخل، ونذكر منها:

الجدول رقم 01: أبواب ومداخل قصر أسا

الأبواب والمداخل	
إِدَاوْمَلِيلْ	**إِدَاوْنْكِيتْ**
- إِمِي أولْكُوضْ: إِمِي نْ تِمَزْكِيدَا. - إِمِي نْ صَنْدَرْتْ إِدَوْمَلِيلْ: يعرف بباب الرّيحْ حاليا. - إِمِي نْ سُوقْ: من الأبواب الرئيسة يؤدي إلى السوق. - إِمِي نْ دَرْبْ أَكَرّامْ.	- إِمِي نْ زَوِيتْ «بَابْ إِهَرّاسَنْ». - إِمِي نْ صَنْدَرْتْ إِدَاوْنْكِيتْ. - إِمِي إِمِي: بالقرب من مسجد سيدي عيسى بن صالح.

تفتح هذه الأبواب وتغلق بنظام داخلي لا يمكن الإخلال به، وعلى الوافدين إلى القصر أخذ الإذن من مجلس «آيتْ رَبْعِينْ»، عبارة عن رخصة «تَنْفُولْتْ» يتسلمها الوافد للإدلاء بها عند الضرورة.

ومن الداخل وللربط بين التجهيزات الاجتماعية والاقتصادية والمؤسسات الدينية، أنشئت أزقة ودروب سميت بأسماء العائلات التي تقطنها أو بما ميّزها من حرف، أو حملت الوضعية التي هي عليها، وتختلف هذه الدروب والأزقة عن بعضها البعض من حيث الطول والعرض والشساعة وطريقة البناء وضمت فتحات إما فوقية أو جانبية قصد الإنارة والتهوية والاتصال. وحسب ما تحكيه الذاكرة الشعبية فإن تلك الدروب والأزقة كانت مغطاة بشكل كامل تصعب معها الرؤية نهارا، كما تجدر الإشارة إلى أن هذه الأزقة بعضها شديد الانحدار وضيق، والبعض الآخر شاسع

ومنبسط، ويتضمن الجدول التالي أسماء تلك الدروب «لَدْرُوبْ» والأزقة «تِسْوَاكْ» مفرد «تَسُوكْتْ»[1]:

الجدول رقم 02: دروب وأزقة قصر أسا

	الدروب	الأزقة
إِدَاوْمَلِيلْ	- دَرْبْ أوفلاَ - دَرْبْ لَجْمَاعْتْ - دَرْبْ نَدْ بَحَسِي - دَرْبْ نَدْ عَثْمَانْ أعْلِي - دَرْبْ نَدْ حْمَيَدُوشْ - دَرْبْ نْ ثَمْزَكِيدا - دَرْبْ نْ سِيدِي لْحَسَانْ - دَرْبْ نَدْ بَاهَا أعْلِي - دَرْبْ نَدْ بْعَيْكْ - دَرْبْ نَدْ حْمَادْ - دَرْبْ نَدْ بْرَيْكْ - دَرْبْ نْ آيْتْ بَحْمَانْ	- تَسُوكْتْ أَكْضِي نَدْ يَحْيَا «نْ دُوتْكَمّا» - تَسُوكْتْ نَدْ لْمَخْتَارْ - تَسُوكْتْ كَرّوزْنْ - تَسُوكْتْ نَدْ عْبَيْدْ الله - تَسُوكْتْ نْ تْشَرّافِنْ - تَسُوكْتْ إيمْزِيلْنْ - تَسُوكْتْ غَزِيفْنْ: تمتد من مسجد - إِدَاوْمَلِيلْ إلى حدود تَنْفُوسْتْ نْ تَلْبَشَرْتْ - تَسُوكْتْ نَدْ عَمِي نْ آيْتْ يُوبْ - تَڤُولِيتْ
إِدَاوْنْكِيتْ	- دَرْبْ إِهَرّاسَنْ - دَرْبْ أوفلاَ - دَرْبْ نَدْ بَكْرِيمْ «إِدْ لْخَرّاضْ» - دَرْبْ نْ سِيدِي بَكْرِيمْ	- تَسُوكْتْ نَدْ بَابْ سَدْرَة «نَدْ بِيجّانْ» - تَسُوكْتْ إمِي نْ ثَمِيمّيتْ - تَسُوكْتْ نَدْ بَنْ طَالَبْ - تَسُوكْتْ نْ سِيدِي يَعْقُوبْ - تَسُوكْتْ نْ دَحّانْ - تَسُوكْتْ نَدْ مُوسَى أوسْلِيمَانْ - تَسُوكْتْ نْ دُو تْكَمَا «إِهَرَاسْنْ»

ونشير هنا إلى أهمية القيام بدراسة خاصة حول دلالات مصطلحات هذه الأماكن وغيرها بقصر أسا «الأمَاكِنِيّة» من أجل إعطائها التأويل المناسب لها وهذا يتطلب مجهودا كبيرا من طرف الباحثين. وعرفت مختلف الفضاءات والساحات العمومية بقصر أسا إلى حدود الأمس القريب تنظيم العديد من الأنشطة والملتقيات والتظاهرات الدينية والوطنية والاجتماعية، من طرف الرجال والنساء لا زالت الذاكرة الشعبية تحتفظ بها منها:

1- أجرينا عددا كبيرا من اللقاءات والزيارات الميدانية رفقة شيوخ القصر من أجل حصر عدد الدروب والأزقة، قد يتم إغفال ذكر درب أو زقاق وقد تتم إضافتهما.

- تَسُوكْتْ غَزِيفْنْ: عرفت بتنظيم «أحْوَايْشْ» في الأعياد الدينية من طرف فتيات القصر.

- تِشَرّفِينْ: ساحة عُرفت بتنظيم «أحْوَايْشْ» في الأعياد ومختلف المناسبات.

- إمِي أوزِيلاَلْ: ساحة عُرفت «بِأحْوايْشْ نْ تِدّي» من طرف النساء.

- أكْلاَكَالْ: ساحة كانت تشهد تنظيم الحفلات والمناسبات الوطنية.

- إمِي لْحَاوْشْ نَدْ حْمَادْ أوغْلِي : ساحة بـ «إدَاوْمَلِيلْ » تنظم فيها المناسبات العائلية والاجتماعية.

- إمِي نْ زّاوِيتْ: ساحة بالقرب من زاوية أسا عرفت بتنظيم «ألْمُوكَارْ» أي الملتقى أو الموسم السنوي الديني والتجاري لزاوية أسا.

- أنَامَرْ: ساحة بـ «إدَاوْنْكِيتْ» عرفت بتنظيم الاحتفالات المخلدة للمناسبات الوطنية.

- تَاكْنْسَا وساحة إمِي مُولَايْ ابْرَاهِيم وأنْرَارْ أهَمُو[1] وغيرها.

- أجْمُوعْ نْ صّالِحِينْ: مكان يجتمع فيه مجموع الأولياء والصالحين بالمنطقة من جهة، كما يلتئم فيه أفراد القبيلة عند تنظيم «لْمَعْرُوفْ نْ تمَازِيرْتْ»، بالقرب من «إمِي نْ سُوقْ»، في اتجاه المكان المقصود فوق تلة ما بين الطريق المؤدية إلى «تَاوْرِيرْتْ نْ تمْغَارِينْ» و«أوْرِيرْ لاَنْبِيَا» ضواحي قصر أسا، حيث تذبح فيه ذبيحة ويتم توزيعها على عدد كبير من الساكنة من أجل إعداد أطباق الكسكس، وفي اليوم الموالي يلتقي الجميع من نساء ورجال وأطفال وضيوف لتناول هذه الوجبة والدعاء الصالح للبلاد والعباد وأن يرحم الله عباده وبهيمته وينشر رحمته.

المبحث الثاني: الخصائص الاجتماعية

منذ القديم ارتبط قصر أسا بقساوة الظروف الطبيعية وصعوبة الحياة مما انعكس على طابع ساكنته الموسوم بالصرامة والعزيمة على تحقيق الأهداف دون كلل أو ملل، فكانت الحياة الاجتماعية مبنية في الأساس على مجموعة من القيم منها: قيم الأرض، القيم العائلية، القيم الدينية وقيم التعاون والتعايش والتسامح والكرم والإباء والصبر والأخوة. مما جعل السكان ينسجون مجموعة من الروابط الاجتماعية والعلاقات الحميمية فيما بينهم من جهة، وبينهم وبين الأرض من جهة أخرى. وتعد هذه الأخيرة أهم مورد رزق بالنسبة لهم، وهي أيضا محور علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية، إلى درجة أن الفلاح يخاف أن يفقد الأرض ربما أكثر مما يخاف أن يفقد حياته[2]، فالموت كما عبر عن ذلك حليم

1- أنْرَارْ أهَمُو: دلالة مركبة من كلمتين: أنْرَارْ وتعني البيدر أي مكان الدرس، وأهَمُو مركبة بدورها من شقين: (أ) وتفيد الإضافة والتملك والانتماء وهَمُو: اسم ولقب عائلي.

2- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي ميداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، الطبعة السادسة، 1998، ص: 79.

بركات بالنسبة للإنسان البدوي هي استمرار له في الأرض[1].

إن وجود فضاءات عمومية من ساحات ومساجد ومحلات وأزقة ودروب داخل قصر أسا وكذلك التصاق المنازل بعضها ببعض كان كافيا لتتمكن ساكنة القصر من التواصل والاتصال فيما بينها، وأيضا لقضاء حاجياتها الإنسانية، من تعارف وتضامن وبناء علاقات شخصية أكثر منها وظيفية كما هو الشأن في المدن، بالإضافة إلى تمكينها من ممارسة شعائرها الدينية وطقوسها الثقافية عموما[2].

وكما سبقت الإشارة إليه؛ أكدت مجموعة من الأبحاث والدراسات التي أجريت حول قصر أسا، أن هذا الأخير عرف وجودا لعناصر وثنية ومسيحية ويهودية، والتي اختفت بعد دخول الإسلام إلى المنطقة وتأسيس زاوية أسا. وترد الرواية الشفوية سكان قصر أسا إلى أصول مختلفة، وقد سكنته عشائر متعددة، اختفى بعضها وغادر البعض الأخر ومنها السكان الأصليين ونعني بالأصالة هنا الاستقرار المبكر، ثم أناس وافدين على المنطقة انطلاقا من مبدأ «تَكْمَاتْ»[3]، وأخيرا أناس وفدوا من أجل بلغة العيش وطلب العلم. هذه المكونات البشرية كانت تنتشر في مجال قصر أسا وفق تقسيم محكم ودقيق.

أولا: الإطار الديموغرافي

ينقسم سكان قصر أسا إلى وحدتين هامتين هما: وحدة «إِدَاوْمَلّيلْ» ووحدة «إِدَاوْنْكِيتْ». وقبل التفصيل في مكونات كلا الوحدتين، نود الوقوف عند إشكالية تسمية المصطلحين «إِدَاوْمَلّيلْ» و«إِدَاوْنْكِيتْ». حيث تعددت الروايات الشفوية حول دلالاتهما وفي هذا الإطار ذهب بعض الشيوخ العارفين بشؤون القصر إلى أن أصل التسميتين أمازيغي.

الرواية الأولى التي يحكيها أحد أبناء القصر[4]، تعود إلى زمن الغزوات وطغيان الهاجس الأمني على الساكنة، حيث قدم إلى القصر شخصان، الأول إلى منطقة «إِدَاوْمَلّيلْ» وكان أبيض البشرة، بينما الثاني القادم لمنطقة «إِدَاوْنْكِيتْ» كان أسود البشرة، وكانا في مهمة تجسس، لذلك تمت مراقبتهما من طرف رجال القصر وسرعان ما اختفى الأول ولم يعرف سبب اختفائه ومن ثم قال أحدهم «إدّا أومْلِيلْ» بمعنى ذهب أو اختفى صاحب البشرة البيضاء. أما الثاني فقد نطحه ثور وقيل «إِنْكِيتْ» أي نطحه واختفى بعدها فقيل «إدّا أونْكِيتْ» أي ذهب الذي نطحه ثور.

في رواية أخرى؛ يعود مصطلح «إِدَاوْمَلّيلْ» حسب البعض إلى وجود مبنى ذو لون أبيض «أومْلِيلْ» بالأمازيغية شمال القصر، وهو ولي صالح يدعى سيدي عبد السلام أمْحَمْدْ المعروف عند

1- نفسه، ص:79.

2- عبد الكريم جندي، القصر في واحات الجنوب الشرقي، الحوار المتمدن، مرجع سابق.

3- «تَكْمَاتْ»: بمعنى الأخوة.

4- رواية شفوية، عيدا بن محمود بن امبارك الأساوي، فلاح وفاعل جمعوي، 57 سنة، بتاريخ: 15 ماي 2003.

الذاكرة الشعبية بـ «سيدي الوالي» والبعض الآخر إلى وجود منزل بطلاء أبيض «تِكَمِي مَلُولْنْ» بالقرب من برج «أكَنْكُو»، ومن تم أطلق على الذين يقطنون بأعلى القصر بالقرب من المبنيين والأماكن المجاورة لهما «إدَاوْمَلّيلْ». أما المصطلح الآخر فـ «إنْكِي» تفيد السيلان بالأمازيغية، إذ يوجد مجرى مائي جنوب القصر، فأطلق على من سكن بجانبه «إدَاوْنْكِيتْ». والجدير بالذكر أن المصطلحين وردا في بعض الوثائق والمخطوطات القديمة بـ «بَنِي مَلّيلْ» و«إدَاوْنْجِيتْ». وانطلاقا من التفسير الأخير لسبب التسمية، يلاحظ أن الخلفية الجغرافية هي التي تحكمت في هذا التقسيم. وتتشكل وحدة «إدَاوْمَلّيلْ» من الفخدات التالية:

- آيْتْ بَحْمَانْ.
- إحْشَاشْ.
- آيْتْ أحَايَكْ.
- إدْ حَمْزَة.
- إدْ بَاهَا أوصَالَحْ.

أما وحدة «إدَاونْكِيتْ» فتتكون من الفخدات التالية:

- آيْتْ تِيكَا.
- إهَرّاسَنْ.
- إدُوعَدّي.
- إكَرّامَنْ.

يتضح من خلال ما سبق، أن سكان قصر أسا الناطقين بالفرع اللغوي الأمازيغي «تَشَلْحِيتْ» لغة رسمية للتواصل، يتشكلون من مجموعة من الفخدات المتعددة الأصول. وإلى جانب هذين المكونين الهامين نجد مكونات قبلية أخرى كانت تعيش داخل القصر. ومن خلال نصوص الأعراف والاتفاقيات التنظيمية والوثائق المحلية فإن الصراع كان على أشده بين مختلف هذه المكونات من جهة ومع القبائل الأخرى من جهة ثانية، في فترات تاريخية سابقة همّت أساسا الجانب الديني والاقتصادي والزعامة السياسية وملكية الماء والأراضي الفلاحية، ومع مرور الوقت انتفت هذه الصراعات، حيث التحمت العناصر الوافدة مع المستقرة وباقي العناصر الأخرى في إطار ديني اجتماعي لعبت فيه زاوية أسا أدوارا أساسية في تحقيق التلاحم والتعايش ويظهر ذلك من خلال مجموعة من المظاهر.

ثانيا: مظاهر التعايش والتعاون

ساهمت العلاقة بين الأرض والسكان في بروز مجموعة من المظاهر والعادات الاجتماعية والثقافية، مجسدة بذلك نمط عيش متميز بقصر أسا، من ذلك ما ذكرناه سابقا حول تنظيمه الداخلي

الذي كانت تضمنه وتكفله الأعراف والاتفاقيات التنظيمية، فمنازله ومنشآته شيدت بشكل جماعي بفضل عملية «أدْوَالْ» التي تخلق فيها أجواء رائعة ومكرسة للتعاون بين مختلف مكوناته.

من تلك المظاهر أيضا علاقات المصاهرة التي نسجتها مختلف العائلات والأسر وباقي المكونات فيما بينها[1]، واتحادهم عند تنظيم مختلف المناسبات المفرحة والمحزنة على حد سواء، وهذا ما انعكس على النشاط الفلاحي، إذ تستغل كل جماعة مجالا فلاحيا خاصا بها لا تتجاوزه إلا بموجب اتفاق، مما عزز من قيم التعايش والتسامح بين الساكنة.

لم يدخر سكان قصر أسا أي جهد للدفاع عنه وعن القبيلة وحمايتهما من أي خطر يتهددهما، لذلك لم يكن من المقبول التخلف عن أي عمل أمني كان الغرض منه الدفاع عن الأرض والعرض والشرف، وكان السكان يوفرون كل ما يتطلبه الأمر من عتاد وسلاح، كل ذلك من أجل تحصين القبيلة ومكوناتها والدفاع عن القصر أمام أي عدوان محتمل.

لقد كان الجانب الأمني جزءا لا يتجزأ من حياة السكان الطبيعية، حيث أن كل شخص كان مسؤولا عن الدفاع عن أرضه وعرضه وشرفه بصفة خاصة وعن كامل مجال القصر بصفة عامة، وكان حمل الخنجر بالنسبة للرجال أو ما يعرف محليا بـ «لْكُمِيتْ»[2] أمرا عاديا، بل يمكن اعتباره مظهرا من مظاهر الرجولة والشجاعة والشرف. إن هذه المهمة الدفاعية من أبرز مظاهر التعاون الجماعي بقصر أسا.

وتجسدت مظاهر التعاون أيضا خلال موسمي الحرث والحصاد بوادي درعة المعروف عند الساكنة بــ «أسِيفْ نْ دْرَا»، وفي مختلف المناسبات ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي كالزواج والعقيقة والجنازة وغيرها، خاصة إن علمنا أن قيم الخير وإكرام الضيف شكلت على الدوام أهم سمات ساكنة قصر أسا، سواء في علاقاتها مع جيرانها أو الوافدين عليها، ومع قبائل آيْتْ أسَا الناطقين بالحسانية[3]، حيث تقدم المساعدة وذلك في إطار ما عرف بحسن الجوار والحفاظ على مبدأ «تَكْمَاتْ»، في هذا الإطار يتم تخصيص غرفة من غرف البيت عُرفت بــ «أحَاذُو أوَاعْرَابْنْ» للاستقرار ووضع الأمتعة والزاد من المواد الغذائية وتستمر إقامة الرحل فيه طيلة مدة مكوثهم بالقصر، ويحرصون على تبادل المساعدات فيما بينهم من مواد غذائية وعينية كالجلود والأغنام، والتمور والزرع والحناء والألبسة المصنوعة محليا كالجلباب والأكياس المصنوعة من سعف النخيل، فتطورت بذلك هذه العلاقات بين قبائل آيْتْ أسَا بمكونيها الأمازيغي والحساني مجسدة بذلك أرقى

1- تجدر الإشارة في هذا الصدد حسب الأبحاث التي أجريت إلى تطور العلاقة بين مختلف مكونات المجتمعات التقليدية التي كانت ترفض المصاهرة والزواج بين عشيرة وأخرى والاكتفاء بالزواج الداخلي حفاظا على النوع والدم والأملاك.

2- «لْكَمِيتْ»: من صنف الخناجر والسيوف، اشتهر بها الإنسان قديما، يحملها في سفره وتنقلاته للدفاع عن النفس، كما تستعمل للتزيين، وتشكل رمزا من رموز الحضارة والتراث.

3- في هذا الصدد ينبغي إجراء دراسة معمقة حول أشكال العلاقة بين الرحل والمستقرين بقصر أسا من حيث ماهيتها والضوابط المتحكمة فيها وصيرورتها التاريخية وتطورها داخل المجال وخارجه.

صور التعايش والتضامن منذ قرون عدة، ولازالت هذه اللحمة في تماسك واتحاد يتوارثها جيل عن جيل، ولم تقف صور التعاون عند هذا الحد بل تجلت مظاهرها في أنشطة أخرى، منها ما عرف بـِ «تِيوِيزِي» أي العمل الجماعي الذي يعتبر من أرقى الأشكال تجسيدا لهذا التعاون وسنقف لاحقا عند هذا الشكل وأهم تجلياته والعادات التي تصاحبه.

ثالثا: مظاهر التكافل والتكامل الاجتماعيين

كان التكافل والتكامل الاجتماعيين من أبرز سمات مجتمع قصر أسا، ذلك أن مواجهة الظروف الطبيعية القاسية وندرة الموارد والبحث عن الماء وضعف الإنتاج والحماية من الأخطار وتأمين المعيشة، كلها شكلت أساسيات الحفاظ على التنظيم الاجتماعي للساكنة، في إطار نمط عيش بسيط وتقليدي اعتمد على الأشكال الأولية في الاستقرار والتعامل، وقد لعبت التنشئة الدينية لساكنة قصر أسا دورا هاما في توجيه سلوكاتهم وإرسائها على أسس التكافل والتوادد الاجتماعيين، كما كان لـ «زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى» دور كبير في تحقيق ذلك، فكانت تجمع ما يدفع لها من زكاة وأعْشَار وهدايا وصدقات وغيرها ويسلم البعض منها لذوي الحاجة أو لطالب الكفالة أو الوافد إما لطلب العلم أو للزيارة.

تعتبر ذكرى المولد النبوي الشريف والتي يتزامن معها تنظيم موسم زاوية أسا المعروف محليا بـ «ألْمُوكّارْ» أي الملتقى، أكثر تجسيدا لهذه المظاهر، سواء من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية الروحية، كما أنها مناسبة للتوسط وإصلاح ذات البين وذلك كله في إطار الأدوار التكافلية العديدة المنوطة بمؤسسة مجلس «آيْتْ رَبْعِينْ»[1] أو ما عرف عند الذاكرة الشعبية بـ «إنَفْلَاسْ» المتكون أساسا من أعيان القبيلة والشيوخ وذوي النفوذ العلمي والديني.

تجتمع مكونات هذا المجلس في مكان مخصص لتدارس القضايا ذات الصلة بشؤون القصر وساكنته وأيضا الأمور المتعلقة بالقبائل الأخرى، بالقرب من «دَرْبْ لَجْمَاعَتْ» الذي شيد عليه مقر المجلس المعروف بـ «أحَانُو لَجْمَاعْتْ» أي بيت الجماعة. من مهامه أيضا؛ فض النزاعات المختلفة وترسيخ قيم العدل والصلح والتعاون ونبذ الشقاق. وقد اعتمد في مداخيله على ما يتم تقديمه من هبات ومساهمات كالتمور والحبوب من زرع وقمح وحناء وخضروات مجففة وأيضا من إتَاواة الزكاة «لَعْشُورْ»، ومن مداخيل الأحكام المترتبة عن مختلف المخالفات «لَخْطِيتْ»، عبر تطبيق القوانين العرفية المكتوبة التي لازالت ساكنة قصر أسا تحتفظ بالعديد منها وتتمحور مضامينها حول:

1- مجلس «آيْتْ رَبْعِين» أو «إنَفْلَاسْ»: مجلس محلي بقصر أسا خاص بالتشاور حول مختلف القضايا التي تهم الأمن والمجال السياسي والاقتصادي والاجتماعي للقبيلة، تم اختيار أعضائه بناء على المكانة الدينية والمستوى الاجتماعي والسن ومدى حضور العضو الايجابي في القبيلة، يعين على رأسه الشيخ أو الأمغار من طرف القبيلة، من مهامه الإشراف على تسيير شؤون المجلس وكل الأمور المتعلقة بالقبيلة، أما باقي أعضائه فيتم انتدابهم من طرف كل فرع من فروع القبيلة.

تنظيم مختلف العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقضائية والأمنية بين مختلف مكونات القبيلة، أو حول تسيير مرفق من المرافق الاجتماعية للقصر كالطرق ودار الجماعة والسوق والحقول الزراعية ونوبات الماء وموسم الحصاد وجني التمور والتخلف عن إتيان الضيف بوجبة الطعام المتناوب عليها بين أفراد القبيلة[1].

ومن بين الأدوار المنوطة بالمجلس أيضا الإقراض للناس، خصوصا منهم من تمتع بسمعة طيبة، فضلا عن تسديد المصاريف المتعلقة بأمور القبيلة، من إكرام الضيوف وتوفير حاجيات تنظيم «لْمَعْرُوفْ»، ولم تقف مظاهر التكافل والتعاون عند هذا الحد، بل تمظهرت أيضا في التناوب المشترك الذي من خلاله يتم قضاء الحاجات والمصالح.

لعب الأمْغَار «الحُسَين بنْ امْبَارك أحْشُوش» دورا هاما في إرساء عمل هذا المجلس خلال فترات معينة، من خلال تطبيق القوانين والأعراف، كما فصل في الكثير من النزاعات حول الأرض والحقول وعادة ما تم توكيله من طرف أشخاص معينين في بعض الأمور العامة وتؤكد الرواية الشفوية أنه فصل في كثير من النزاعات التي نشبت بين أفراد الجماعة، بل ذهب الرواة إلى جعله «سُلطانا» على القبيلة بقولهم: الأحكام ليست إلا في عهد الحسين بن امبارك، أما قبله أو حتى بعده فليس هناك حكم ما[2]، ونؤكد هنا على أهمية التعريف بهذه الشخصية من خلال عمل يتم التطرق فيه إلى حياته وأدواره الاجتماعية والسياسية والاقتصادية داخل القبيلة، وفي علاقاتها مع الخارج ويعتبر بحق من بين الزعامات الأساسية بقصر أسا، خاصة أن عائلته تتوفر على عدد هام من الوثائق والمخطوطات.

إلى جانب المظاهر الاجتماعية الإيجابية السابقة الذكر، لا نعدم وجود مظاهر أخرى سلبية كالانشقاق والتناقض وتتجلى في طريقة توزيع الثروات ووسائل الإنتاج بين الأسر، هذه الأخيرة نجد بعضها تتوفر عموما على أجود أراضي القبيلة ولها مكانة خاصة، في مقابل ذلك نجد أسر أخرى لم يكن لها الحظ نفسه من الأراضي، وتبقى هذه المسألة طبيعية عند كل المجتمعات، ولقد كان لهذا التوزيع اللامتكافئ الأثر الأكبر والوقع السيئ، مما أفرز ظهور بعض النزاعات التي همت الجانب الاجتماعي، لكن سرعان ما تم التعامل معها بشكل تحترم فيه الحقوق والواجبات، من خلال السعي إلى الصلح واتخاذ الوَقَارْ والاحترام كمبدأين أساسيين لا يمكن تجاوزهما من طرف الجميع.

1- سويلام بوغدا، البنيات السياسية بقصور أسا خلال القرنين 18 و19م، حاضرة أسا، عمق التاريخ وغنى الذاكرة، مركز الدراسات والأبحاث مشاريع، جمعية الباحثين الشباب للدراسات والأبحاث الصحراوية، تنسيق محمد بوزنكاض، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، الطبعة الأولى 2012م ص: 169.

2- الحسان بوغدا، جوانب من تاريخ قبيلة آيْتْ أسا، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف الأستاذ علي الجاوي، جامعة ابن زهر، أكادير، 1993/1994، ص: 77.

من خلال ما سبق؛ يمكن استنتاج أن وجود هذه المظاهر داخل قصر أسا وكما هو الشأن عند المجتمعات البدوية، كما أكد ذلك ابن خلدون أنه كان أمرا ضروريا لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكِنّ[1] والدّفْءِ، إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلْغَة العيش[2]/[3]، وفق تنظيمات اجتماعية مبنية على احترام الاتفاقيات والعقود والأعراف التي هي بمثابة الشروط والضوابط الخاصة بتنظيم الحياة العامة داخل القصر فيما بين الساكنة أو مع القبائل الأخرى.

المبحث الثالث: الخصائص الدينية

حضي الجانب الديني بقصر أسا باهتمام كبير من طرف الساكنة ويبرز ذلك من خلال إيلاء العناية الكبيرة لمجموعة من المؤسسات الدينية، التي تعددت أدوارها ووظائفها، فلم يكن يقتصر عملها فقط على الجانب الديني والحفاظ على المقومات الروحية للساكنة، بل تعدت ذلك إلى نطاق مؤسسات اشتغلت على جوانب عدة، كالجانبين العلمي والاجتماعي ومن بينها:

أولا: المساجد والكتاتيب القرآنية

أولت ساكنة قصر أسا عناية خاصة للمساجد والكتاتيب القرآنية، التي احتضنت العديد من طلبة العلم وحفظة القرآن الكريم، منها مسجدين بمنطقة «إدَاوْنْكِيتْ» هما: مسجد سيدي عيسى بن صالح الذي تفيد الوثائق والرواية الشفوية أنه شيد على يد العلامة سيدي عيسى بن صالح، ويعتبر أول مسجد بني بقصر أسا قبل زاوية أسا[4]، ثم مسجد إدَوْمَسْتَرْ، وبمنطقة «إدَاوْمَلِيلْ» مسجدي إدَاوْمَلِيلْ: «بَنِي مَلّيلْ» و«تِمَزْكِيدَا أوفَلاّ» أي المسجد العلوي.

لعبت هذه المساجد أدوارا هامة في التوعية الدينية ونشر تعاليم الإسلام، كما عملت على تأطير الطلبة «إمَحْضَارنْ» وتحفيظهم القرآن الكريم وعلومه على يد شيوخ وفقهاء أجلاء بمناطق سوس والمناطق المجاورة، ومنهم من تخرج من مساجد القصر وتتلمذ على يده العديد من الطلبة.

ثانيا: زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى: زاوية أسا

شكلت الزوايا بالمغرب بصفة عامة، زاوية أسا بصفة خاصة مؤسسات دينية وعلمية واجتماعية منذ القدم، كما عملت على تدعيم وترسيخ الثقافة الإسلامية الصحيحة ونشرها، خاصة ما تعلق منها بأمور العقيدة والفقه وأصول الدين الإسلامي، فضلا عن العناية بالجوانب الاجتماعية والسياسية.

1- الكِن: المقصود به في المقدمة: كل ما يرد البرد والحر من الأبنية والغيران ونحوها.

2- بلغة العيش: ورد تعريفها في المقدمة: ما يكفي لسد الحاجة ولا يفضل عنها.

3- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، مرجع سابق، ص: 116.

4- تفيد الأبحاث في هذا الشأن بأن هذا المسجد كان في الأصل رباطا دينيا، ثم تحول مع نهاية القرن العشرين إلى مسجد لإيواء المصلين من ساكنة «إدَاوْنْكِيتْ».

1 - تأسيس الزاوية:

استقر إجماع الباحثين والمهتمين بتاريخ «زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى» على أن مؤسسها هو العلامة الشيخ يَعَزّا ويَهْدَى حوالي القرن السابع الهجري[1]،

الثالث عشر الميلادي[2]، وشكلت هذه الزاوية مؤسسة علمية هامة، استقطبت العديد من العلماء والطلبة كان قاسمهم المشترك الزهد والورع والاجتهاد في العبادة والاعتكاف ومدارسة العلوم، وتجدر الإشارة إلى أن البدايات الأولى لهذه الزاوية حسب الذاكرة الشعبية عرفت بوجود غرفة تدعى «أحَانُو نْ زَاوِيتْ» مخصصة لتخزين حاجيات الساكنة من مستقرين ورحل ويمتد ذلك لسنوات وكانت تحضى بالاحترام والوقار والأمان، مما أعطاها حرمة وقدسية خاصة.

2 - وظائف زاوية أسا وأدوارها

إن زاوية أسا بما لها من صيت ذائع وحظوة في المجتمع، باعتبارها من أعرق وأقدم الزوايا المتواجدة بالصحراء المغربية، مكنها من لعب أدوار هامة في ترسيخ أسس الدين الإسلامي الحنيف وقيم التكافل الاجتماعي وتعددت بذلك أدوارها ووظائفها، شأنها في ذلك كباقي زوايا المغرب عامة.

أ - الوظيفة الاجتماعية

لعبت زاوية أسا أدوارا هامة في تمتين عوامل الاستقرار والأمن في نفوس مريديها وكافة سكان المنطقة وضيوفها، كما ساهمت بشكل كبير في تكريس ثقافة التكافل الاجتماعي، حيث كانت تقدم المساعدة على الإيواء وإطعام الطعام وتوزيع الصدقات على المحتاجين والفقراء، كما شكلت رباطا للعلم والعلماء ومقصدا للأولياء والصالحين ومزارا في كل الأيام، وخصوصا في يوم الجمعة وفي كل الشهور وخصوصا شهر رمضان وسنويا خلال ذكرى المولد النبوي الشريف[3]. كما أنها حضيت بالوقار والاحترام عند أهل القصر وعموم ساكنة المنطقة وزوارها.

وتجدر الإشارة إلى أن الزاوية الوهدوية كانت تتوفر على ممتلكات كثيرة سواء منها العقارية أو الفلاحية وغيرها، إضافة إلى العديد من نوبات الماء التي تسقى بها الأراضي الخاصة بها وتعطي

1- للمزيد من التفصيل في هذا الموضوع ينظر: محمد المختار السوسي، المعسول، الجزء العاشر. السعيدي المهدي: ملامح حركة جهادية سوس والصحراء في القرن التاسع الهجري، آيت يَعَزَى ويَهْدَى بزاوية أسا ضمن أشغال ندوة الصحراء وسوس، منشورات كلية الآداب بالرباط 2001. محمد بن سعيد المرغيتي والحاج الحسن البعقيلي حول زاوية الشيخ يَعَزَى وَيَهْدَى «النشأة، التطور، الأدوار». المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا» لمؤلفه محمد بن عبد السلام الناصري.

2- هناك من الباحثين من رأى بأن الشيخ يعَزَى ويَهْدَى لم يؤسس زاوية أسا وغالبا ما تم ذلك من طرف أبنائه وأتباعه بعد وفاته، ونفس الشيء بالنسبة لأغلبية الزوايا بالمغرب.

3- عبد القادر أنزيض، جوانب من عوالم الأولياء: أولياء أسا نموذجا، مجلة وادي درعة، إصدار مركز النخيل للتوثيق، جمعية النخيل للثقافة والفن والتربية، كلميم، العدد 2016/25، ص: 87.

الباقي سلفا للسواقي الأخرى مقابل جزء من المحصول، أو تقديم بعض الخدمات الضرورية لحقولها[1]، كما أن جل مرافقها تمت إزالتها بعد عملية الترميم التي عرفتها.

ب - الوظيفة السياسية

ارتبط الحديث عن الزوايا بالمغرب بشكل كبير بالوظائف السياسية التي لعبتها وأدوارها الجهادية وفي هذا الإطار يشير الباحث في تاريخ الجنوب المغربي سويلام بوغدا[2] إلى الأدوار الهامة التي لعبتها زاوية أسا إبان انهيار حكم الموحدين وصراعهم مع الزناتيين حول المغرب، ثم توطد حكمها وزعامتها مع المد المريني وتقوى أكثر في عهد أبناء الشيخ يَعَزّى وَيَهْدَى، وحسب الباحث نفسه انْتَفَت هذه الأدوار السياسية منذ بداية القرن 20م بناء على المعطيات السياسية المتعلقة بالتنظيمات القبلية بالمجال وخارجه.

ج - الوظيفة الدينية والعلمية

منذ تأسيسها لازالت زاوية أسا تلعب أدوارا ووظائف دينية وعلمية هامة، فهي مؤسسة تمارس فيها العبادات من صلاة وتلاوة القرآن وتحفيظه ومدَارَسَة العديد من العلوم الشرعية، مما ولد ارتباطا وثيقا بينها وبين مريديها، حتى أضحت لدى الذاكرة الشعبية المحلية رباطا للاعتكاف الروحي ولكل من يسعى إلى تقوية الإيمان بالله تعالى وتعلم شرعه عز وجل، وفي هذا الصدد فإن ذاكرة العديد من فقهاء قصر أسا لازالت تحتفظ بأسماء العديد من العلماء من أبناء القصر[3].

شكلت إذن «زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى» على مر التاريخ منارة علمية استطاعت التوفيق بين رسالتها الدينية ومهمتها العلمية من جهة ووظيفتها الاجتماعية والقضائية من جهة ثانية، الأمر الذي جعلها تعرف إشعاعا دينيا واجتماعيا امتد إلى مناطق أخرى بالمغرب، خاصة وأن فضاءاتها تحتضن فعاليات الموسم الديني والتجاري، الذي يتزامن مع ذكرى مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أنه عرف إلى عهد قريب توافد العديد من القوافل التجارية والضيوف من مختلف القبائل، كون المنطقة كانت تشكل ممرا لهذه القوافل من جهة ولما ترمز إليه هذه المؤسسة من تجسيد للحق والعدالة والتوسط وإصلاح ذات البين وصلة الرحم من جهة ثانية.

1- الحسان بوغدا، جوانب من تاريخ قبيلة آيْتْ أَسَا، مرجع سابق، ص: 43/42.

2- مقابلة شفوية مع الباحث في تاريخ الجنوب المغربي، سويلام بوغدا، بتاريخ 20 شتنبر 2018.

3- آثار علماء وفقهاء ومريدي «زَاوِيتْ آيْتْ يَعَزَى وَيَهْدَى» موجودة في العديد من المصادر والمراجع منها: مؤلفات المختار السوسي، الحاج الحسن البلغيتي، سوس العالمة، مؤرخوا المغرب الأقصى، إيليغ قديما وحديثا، الوهدويون «مخطوط»، الهدى في أخبار آل يعَزّى ويَهْدَى «مخطوط»، دار إيليغ، دار تمانارت، دار بيروك، خزانة اليزيد الراضي بتارودانت، مخطوط زاوية تمكروت، كتابات المهدي السعيدي، وغيرها.

وتجدر الإشارة إلى أن الموسم الديني والتجاري لزاوية أسا، يشهد إحياء العديد من العادات والطقوس، منها أداء صلاة المغرب بشكل جماعي ليلة الثاني عشر من ربيع الأول بالقرب من «إمِي نْ زَاوِيتْ» قرب الزاوية وفي صبيحة ذكرى المولد تنحر الناقة، كما تتوفر على صندوق خاص بتبرعات زوارها.

إن الإشعاع العلمي والديني الكبيرين اللذين عرفتهما زاوية أسا تاريخيا وما تم تأليفه من مؤلفات ومخطوطات ووثائق يتطلب تكثيف الجهود من أجل تجميعها في خزانة خاصة تابعة لها تحفظ تراثها وتصونه لينتفع به الباحثون والمهتمون.

ثالثا: «لَمْصَلّا» المصلى

ساحة مخصصة لأداء صلاة عيدي الفطر والأضحى، وتعرف عند ساكنة قصر أسا بــ «لَمْصَلّا» وتجدر الإشارة إلى أن أيام العيدين تمر في أجواء عائلية مترعة بعادات وتقاليد ومعارف متميزة، سنأتي للوقوف عندها ضمن فصول هذا العمل. ونشير أيضا إلى أنه تم تغيير مكان «لَمْصَلّا» القديمة في مناسبتين حيث كان مكانها في البدايات الأولى بالقرب من الولي مُولَاي ابْرَاهيم و«أنْرَارْ نْدْ حْمَادْ»، ليتم تحويلها إلى مكان بمحاذاة المقبرة، بعد ذلك تم تحويلها إلى المكان الذي تتواجد به حاليا، نظرا لصغر مساحتها السابقة.

رابعا: «لَمْدِينْتْ» المقبرة

هي المقبرة المعروفة حاليا بــ «مقبرة الرحمة» تمتد على مساحة شاسعة تقرب من مساحة قصر أسا، قسمت هي الأخرى حسب الكوانين والتشكيلة القبلية بين «إدَاوْنْكِيتْ» و«إدَاوْمَلّيلْ»، وبحسب أفراد العائلات، فيما يخص دفن الموتى.

من خلال هذه اللمحة البسيطة حول قصر أسا نستخلص أنه تميز بخصائص هامة منها:

- الموقع الجغرافي: بالقرب من الواحة ومنابع المياه والواد.
- الزمان: دلالات غامضة «التأسيس».
- المخيال: الخير والبركة والوقار والأمن.
- انقسامه إلى وحدتين هامتين: «إدَاوْمَلِيلْ» و«إدَاوْنْكِيتْ».
- الهندسة المعمارية: أبنية متكيفة مع الظروف المناخية الصعبة والأراضي الصالحة للزراعة، كما أنه موقع استراتيجي يغطي الحاجيات الأمنية والاقتصادية للساكنة.
- المباني: صممت لتقي من بداخلها من الأخطار الخارجية، سواء منها البشرية كالحروب والغزوات، أو الطبيعية كالفيضانات والعواصف، فضلا عن إحاطة السور بكامل القصر بحيث لا يمكن النفاذ عبره إلا عن طريق الأبواب.

- الفضاء الداخلي: يوفر كل المرافق العمومية الضرورية المساهمة في تحقيق الانسجام والتناغم والتواصل والتضامن المعهودين بين الساكنة.

- الأبراج: مشيدة خصيصا للمراقبة والحراسة.

- الساحات العمومية: متنفس للساكنة وفضاءات للمناسبات وأداء العادات والتقاليد والطقوس.

- الأبواب: كانت تقفل بانتظام يوميا عند غروب الشمس ولا تفتح إلا في صلاة الفجر.

- اتخاذه شكل هلال مسايرا بذلك الوحدات التضاريسية التي شُيد عليها، حيث يطل على ضفاف الوادي والواحة التي تتضمن عددا هاما من أشجار النخيل والحقول الممتدة «تِيغُولاَ».

- إحاطته بسورين أول من التراب المدكوك المخلوط بالحصى«التّابُوتْ» لا تزال بعض من بقاياه تتضمن ثقوبا للمراقبة تمنع كل محاولات اختراقه في الجانب الموالي للمقبرة وثان من الحجارة الصلبة المتراصة بشكل محكم من الواجهة المطلة على الواحة والوادي.

- أزقته ضيقة مغطاة ومظلمة، بعضها يشمل أماكن ومحلات تجارية.

- التناغم والتنظيم المحكمين، بحيث أن كل الأزقة والدروب تؤدي إلى الأماكن العمومية والمنشآت الاجتماعية والاقتصادية والفنية، من مساجد وساحات ومقبرة ومجزرتين وسوق و«أحَانُو لْجْمَاعْتْ» وغيرها.

- بساطة النقوش والزخارف التي تكسو المنازل والمنشآت وواجهاتها.

- طلاء الجدران بمادة «طْفَالْ» المُسَاهِمة في جمالية المنازل.

المبحث الرابع: الخصائص الثقافية

عرف مجتمع قصر أسا منذ القدم خصائص ثقافية هامة، ساهمت بشكل كبير في تحقيق التماسك والشعور بالانتماء بين مختلف مكوناته، حيث سيادة قيم الأخلاق والوقار، مما جعله مجالا لتحقيق الضبط الاجتماعي وامتثال الجميع للقيم السائدة التي غالبا ما كانت تلقن للناشئة وفق مبادئ وأهداف لا يمكن الإخلال بها، وهي مبنية أساسا على تطبيق الأعراف وتعاليم الدين الإسلامي السمحة.

كما كان لانتشار الكثير من العادات والتقاليد المتوارثة عبر الأجيال، دورا هاما في المحافظة على طبيعة القيم الثقافية السائدة بين أوساط الساكنة. من جهته أضفى الطابع العمراني لقصر أسا بعدا ابتكاريا على سلوكيات الساكنة من خلال تناغم متميز للأنسجة البنائية المتكيفة مع طبيعة المجال والخصائص الحضارية والثقافية للقصر.

كانت أبواب العديد من الدور السكنية، التي تقطنها عائلات بأكملها، قصيرة جدا، حيث وصل عدد الغرف ببعض المنازل بـــ «إدَاوْمَلّيلْ» إلى أزيد من عشرين غرفة، مبنية على شكل طابقين أو ثلاثة وهي في ملكية كبار العائلات، وتبرير قِصَر الأبواب حسب الساكنة يرجع من جهة إلى وظيفتها الأمنية والدفاعية، سواء للقصر أو للمنازل في حد ذاتها، فحينما تتعرض إحدى المنازل للسرقة، فإنه عند مطاردة السارق غالبا ما يصطدم رأسه بعتبة باب المنزل، في حين فسر البعض الآخر قِصَر هذه الأبواب، إلى أهمية الاحترام والوقار اللذين يجب أن يسودا القصر وكل مرافقه، حيث أن الداخل أو الخارج من إحدى المنازل، عليه أن ينحني إكبارا وإجلالا واحتراما لها ولساكنتها.

تجدر الإشارة إلى نقطة أساس، تتعلق بوجود نقوش صخرية لحيوانات وآلات قديمة في أسفل منطقة «إدَاوْمَلّيلْ» على الواجهة المطلة على الواحة[1]، بعضها تعرض لإتلاف كامل. يبدو من خلالها أن إنسان قصر أسا عبر عن نمط عيشه ومعارفه ومعتقداته وحيواناته والآلات التي كان يستخدمها وثقافات ساكنة المنطقة عموما، وهي تشكل جزءا هاما من التراث الوطني الصخري المنقوش المتواجد بمناطق عدة بالمغرب منها جبال الأطلس الكبير وضفاف وادي درعة وروافده وجوانب الأودية الجافة بالمناطق الصحراوية.

الصورة رقم 11: نقوش صخرية لحيوانات وآلات قديمة في أسفل منطقة «إدَاوْمَلّيلْ» على الواجهة المطلة على الواحة.
من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

من خلال ما سبق؛ يظل قصر أسا بخصائصه ووظائفه وبرموزه ودلالاته الثقافية وتراثه المتنوع، نمطا معماريا تقليديا عريقا، وإرثا حضاريا أصيلا، وجزءا هاما من حياة وتاريخ وثقافة إنسان المنطقة بصفة عامة، الإنسان الأمازيغي بصفة خاصة.

1- أنظر الصورة رقم 11.

المبحث الخامس: الخصائص الاقتصادية

أولا: الأنشطة الفلاحية

ارتبط سكان قصر أسا بالأرض منذ القدم مستعينين في خدمتها، بتقنيات وأدوات تقليدية بسيطة، بعضها كان يصنع بمواد محلية تجود بها الواحة كـ «إمَاسَنْ»، «أمَادِيرْ»، «تِيزُونْتْ»، «تَمَدِيرْتْ»، «تِيمَنْقَشْتْ» «تَزْكَاْوتْ»، «أسَرْتِي»، «شَبْكَة»، «شْوَارِي» وغيرها، هذا إلى جانب تعاطي بعضهم لحرف أخرى، مما ساهم بشكل كبير في تنامي النشاط الاقتصادي خاصة الأنشطة الفلاحية واستغلال الفرشة المائية بجوار الواحة، فضلا عن المنابع المائية الأخرى، مما انعكس بشكل إيجابي على أنشطة الفلاحين، عبر استغلال الأراضي المجاورة والممتدة على جنبات القصر على شكل حقول «تِيغُولاَ» أو «تَارْكَا»، منها ماهو في ملكية فردية أو عائلية، مثلها مثل ملكية أشجار النخيل وحصص مياه العيون، ومنها ما هو موقف في إطار أحباس الزاوية ومساجد قصر أسا، ومنها: «أورْتِي نَدْ عْبَيْدْ الله»، «أدُوزْ نْ تَرْكَا»، «أكْزُومْ نَ شِيخْ»، «تِي نْ حُورِيَة»، «أكَمّونْ»، «تِيلْبَصْتْ»، «تِينْ آيْتْ لَحْسَنْ»، «بُوِيزَانْ»، «تِنْ لْعَمْرِي»، «إزِيكَا»، «تَبَنَبّورْتْ»، «تَالْعِينْتْ نْ طَلْبَا»، «إمِي أوسَاكَا»، «إمِي إفْرِي»، «إكِي أمْدَرْ»، «تِينْ أوسُوّانْ»، «أمّو يَكْضَاضْ»، «تِيزِكَرْتْ»، «دّو تَزَارْتْ»، «أورْتِي نَدْ حْمَادْ»، «بُونَكَارْفْ»، «أورْتِي وَاسِيفْ»، «تِيلَمْرَاغْ»، «إكَرْسَافْ»، «تِي مُوكْرُودْ»، «تِينْ يَحْيَا أو مُوسَى»، «أسَرَاكْ»، «تِيغْزَرْتْ وَاسِيفْ»، «إمَلاَلْنْ»، «إكُرَارْ»، «دّو وَاتِيلْ»، «بُوتَفْزَة»، «أكَلاَكَالْ»، «وِي إمَجّاضْ»، «نَكَرْ إدَازْنْ»، «تَبْحِيرْتْ»، «أورْتِي مَقّورْنْ»، « تِرْمَانِينْ»، «أورْتِي يَفْضْ»، «تِينْ زّاوِيتْ»، «أبْلَكّا»، «تَالاَتْ»، «تِينْ نْ تَنُوطْفِي»، «تَكْرُورْتْ»، «تَغُولْتْ نْ بَرّا»، «أغْرَابُو»، «سَانْ كْمَاضْ»، «إغَارِيونْ»، «إتْرِيمَنْ»، «إمِي نْ تَكْمِي»، «تِي أورحَالْ»، «إعْزَا أو يَاسِينْ»، «أرْزِيونْ»، «يَحْيَا أويَدَرْ»، «مُو أغْرُومْ»، «تَعْتَمَانْتْ»، «تِي مُوسِي»، «بُولْفَرْكْ»، «تَمَرْسَالْتْ»، «إسْمَاعِينْ»، «تِينْ يَمْنَة»، «تِغْرَاسْ»، «أكَيْوَارْ»، «تِيغْزَرْتْ نْ آيْتْ مُوسَى»، «أمُو إفْكِيسْ»، «الدُكَانْ»، «أمُو وَاوْتَمْ»، «تِينْ هَامِينْ»، «أورْتِي نْ عَدِي»، «أمُو إفْرَانْ»، «أكْضِي إفْرَازْنْ»، «وَارْكِيغْتْ»، «تِينْ تْكَرَامْتْ»، «أمْ نَقْلاَتْ»، «تِفَرْسِينْ»، «وُدَايْنْ»، «أكَمُونْ نْ حْمَادْ أمُولُودْ»، «بُولَخْمَاسْ»، «وَصْكَادْ»، «تِيدِيرِنْ»، «تِينْ حْمَادْ نْ جَدَا»، «تِي إسَارْنْ»، «أمْلاَلْ»، «تِينْ حْمَادْ أعْلِي»، «تَغُولْتْ إدْرَانْ»، «مُو وَشَانْ»، «تِينْ ابْرَاهِيمْ أو عِيسَى»، «تِينْ دَدَا عَلُو»، «تِي أومْغَاشِيشْ»، «أكَمُونْ نْ زَاوِيتْ»، «أوسْعِيدْ»، «أكَمُونْ نْ تَمْزْكِيدَا»، «تِينْ كَيْمُوشْ»، «أكَمُونْ أوجَكَانْ»، «تِيزْكَرْتْ»، «نَكَرْ إكَمُونْ»، «حْبِيبْتِي»، «تَزَرْمَسِيتْ»، «تِينْ دَدَا الْبَرْكَة»، «تَاسْكَلَا»، «تَكُو مْغَارْتْ»، «تَاغُولْتْ إكِي أمْدَرْ»، «أورْتِي وَيَاوْنْ: (الأحفاد)، «تِينْ كُوغْتْ»، «تِينْ عِيشَة أمُوسَى»، «أورْتِي حَكَا»، «تَبَاهْرُونْتْ»، «تَبَاهْلِيتْ»، «لْخَدْمَاتْ»، «تِيغَدْوِينْ»، «تِي إسَمْكَانْ»، «أكِينَانْ إمَلاَلْنْ»، «تُوطَلْحُو»، «تَلْمَاوْتْ»، تِينْ تَمَازِيغْتْ»، «تِخْزَانِينْ»، «كُلاَ»، «تِينْ شَرْضْ»، «أورْتِي نْ عَبُو»، «تِينْ مْحَمْدْ أوسْلِيمَانْ»، «لْحَنَا نَدْ لَمَحْجُوبْ»، «تِيزُونْتْ نْ آيْتْ بَحْمَانْ» و«تِيزُونْتْ إحْشَاشْ» اللتان تضمان العديد من الحقول وغيرها.

وللربط بين هذه الحقول فيما بينها من جهة ومع القصر من جهة أخرى، أنشئت مجموعة من الأزقة منها: «تَسُوكْتْ نْ شّيخْ»، «تَسُوكْتْ نْ تِلْعَمْرِي»، «تَسُوكْتْ تِيزِيكَا»، «تَسُوكْتْ نَدّو تَزَارْتْ»، «تَسُوكْتْ أمُو يَكْضَاضْ»، «تَسُوكْتْ إِمِي إِفْرِي» وغيرها.

تنوعت منتوجات النشاط الفلاحي بالواحة بين الشعير والذرة والقمح، بالإضافة إلى بعض أنواع الخضر كـ «تِرَكْمِينْ أوبَلْدِي»، «ابْرْوَاكْنْ»، «خِيزّو أوبَلْدِي»، «تَمَطِيشْتْ»، «إِفِيفَلْ» و«تَخْسَايْتْ» وغيرها، ثم الفواكه كالرمان، «أَخَنْدُوفْ»، العِنَبْ، الكَرُوم، والدّلاَحْ وغيرها، فضلا عن النعناع والتمور بمختلف أنواعها، ومنها: «تَغَنِيمْتْ»، «بُوفَكّوسْ»، «أزُكّاغْ»، «تَبَنْهَمّوتْ»، «بيَطّوبْ»، «تَمَخْلُوفْتْ»، «لْجِهْلْ»، «بُوسْكْرِي»، «تَحَدّاتْ»، «تَمُوشّة»، «سَايَرْ بأنواعه»، «تَبُوعَطِيرْتْ»، «أمُ و إقُودّانْ»، «أكْرَارَايْ»، «إِدْمّو لْعَلْكْ»، «بُولَبْلَحْ»، «تِيلْ حِيجْ»، «اللّيبْسْ»، «تَمَنْزُوتْ» وغيرها، وتجدر الإشارة إلى أن عملية تخزين التمور كانت تتم بطرق تقليدية مبتكرة، وذلك عن طريق التخزين في «تِبْضَانِينْ» جمع «تَبْضَانْتْ»[1]، و«أسْلِيغْ» ثم «لْخِبِيتْ»[2]، وتؤكد الرواية الشفوية أنه مهما طال تخزين التمور تبقى هذه الأخيرة عالية الجودة.

الصورة رقم 12: «تَبْضَانْتْ». من أرشيفي الخاص (14 يوليوز 2018)

1- «تَبْضَانْتْ»: عبارة عن كيس مصنوع بدقة وجمالية من سعف النخيل بأحجام وأشكال مختلفة يستعمل لتخزين التمور لفترات طويلة وبجودة عالية. أنظر الصورة رقم 12.

2- «لْخِبِيتْ»: جرة مصنوعة بأحجام وأشكال مختلفة، استعمالاتها متعددة منها تخزين التمورلفترة طويلة وبجودة عالية. أنظر الصور رقم 13.

الصورة رقم 13: «لْخِبيتْ نْ تَقَايِنْ». من أرشيف جمعية قصر أسا (9 يونيو 2008)

كان الحقل الواحد يدر على صاحبه الكثير من المنتوجات الفلاحية، إلا أن البعض منها كان مخصصا لمنتوج واحد كتلك التي عرفت بزراعة الحناء، منها حقول: «أَحَمْزَة»، «أورْتِي نَدْ حْمَادْ»، «أورْتِي نَدْ بَاهَا أوعْلِي»، «تِرّمَّانِينْ» وغيرها. وجميعها حققت الاكتفاء الذاتي لساكنة قصر أسا، بل في مواسم فلاحية كان يتم تصدير مجموعة من هذه المنتوجات خاصة منها التمور إلى المناطق المجاورة كتَغَجِيجت، أكلميم، تِغْمَرت، تَزَرْوَالْت وأسْرِيرْ وغيرها.

ثانيا: أنشطة اقتصادية أخرى

زاول سكان قصر أسا أنشطة أخرى؛ منها تربية الماشية خاصة الأبقار، وازدهرت العديد من الحرف الأخرى بفضل المواد الأولية التي تجود بها الواحة، كصناعة بعض الأواني المطبخية من سعف النخيل، وصناعة الأبواب والنوافذ والأقفال وبعض مستلزمات المنازل، كما عرفت الحدادة هي الأخرى تطورا ملحوظا، حيث ضم القصر مكانا يجتمع فيه ممتهنوا هذه الحرفة «تَسُوكْتْ إمْزِيلْنْ». ومن جهتها ساهمت المرأة بشكل كبير في تطوير ونمو اقتصاد القصر، شأنها شأن باقي النساء القرويات فعملها لم يكن يقتصر على الأعمال المنزلية بل يتعداها إلى الفلاحة والحصاد والاستحطاب والحياكة والنسيج[1].

1- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مرجع سابق، ص: 82.

ضم قصر أسا مجموعة من المراكز الاقتصادية، منها «تَكَزّارْتْ إدَاوْمَلّيلْ» مجزرة «إدَاوْمَلّيلْ» و«تَكَزّارْتْ إدَاوَنْكِيتْ» مجزرة «إدَاوْنْكِيتْ»، هذه الأخيرة لازالت في مكانها وهي عبارة عن أحجار كبيرة قاتمة اللون في منطقة شاسعة في ملتقى «تِسْوَاكْ»[1]، يتم عليها تقسيم اللحوم عن طريق «تَسْكِوِينْ»، وبالقرب منها بئر يتم استعمال مائه من أجل تنظيف الذبيحة والمكان بصفة عامة، كما ضم مجموعة من المحلات التجارية، فضلا عن «إمِي نْ سُوقْ»: باب السوق وهو مكان قريب من أحد الأبواب المؤدية إلى القصر، تُعْرَض به منتوجات الفلاحين وسلع الصناع المحليين والتجار الوافدين يتزود منها السكان بالحاجيات الضرورية.

الصور رقم 14: «تَكَزَارْتْ إدَاوْنْكِيتْ»: مجزرة «إدَاوْنْكِيتْ». من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2018)

نستخلص من خلال ما سبق، أنه عبر خدمة الأرض واستغلال الواحة بنخيلها الذي انتشرت تحت ضلاله الحقول «تِيغُولاَ»[2] الوفيرة الإنتاج وبإمكانيات بسيطة وعزيمة وإرادة قويتين، يكون قصر أسا قد حقق لنفسه اقتصادا متنوعا ومتكاملا، ساهم بشكل كبير في تأمين حاجيات السكان الغذائية خاصة مع وجود فرشة مائية مهمة.

1- أنظر الصورة رقم 14.

2- «تِيغُولَا»: مفردها «تَغُولْتْ» وهي حقل صغير غالبا ما يكون مسيجا ويخصص لزراعة الحبوب والخضروات. أنظر الصورتين رقم15 و16.

الصور رقم 15: بعض الحقول «تِيغُولاَ» بواحة أسا التي يخترقها واد أسا. من أرشيف محمود أطويف (23 نونبر 2014)

الصورة رقم 16: بعض الحقول «تِيغُولاَ» بواحة أسا. من أرشيف جمعية قصر أسا (08 يناير 2014)

ثالثا: نظام استغلال الماء بواحة أسا

يحضى الماء عند المجتمعات التقليدية بأهمية كبرى، وتزداد أهميته عندما يتعلق الأمر بالمجتمعات الزراعية خاصة منها المستقرة بالواحات، وهذا ليس بغريب حيث أكد بن محمد قسطاني أن مجتمع الواحة مجتمع عمل وشغل أساسا... وذلك في إطار الصراع مع شح الأرض والسماء، وبذلك نجد زمن الماء يفرض نفسه على الإنسان[1].

1- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 99.

واعتبارا لأهمية هذه الثروة الحيوية في الاستقرار وضمان القوت اليومي، فقد حضيت بالبحث والدراسة من طرف الباحثين والمهتمين، خاصة على مستوى تدبيرها وطرق استغلالها عند المجتمعات الواحية بصفة عامة، واحة أسا بصفة خاصة، التي اعتمد فيها على التنظيم العرفي كأسلوب قانوني لتوزيع مياه مجال قبيلة آيْتْ أسَا[1]. وعن نظام استغلال الماء بواحة أسا والطريقة التي كان عليها، وجدناه لا يختلف كثيرا عن باقي الواحات بالمغرب كواحات غريس، واحات مناطق طاطا: «أكادير لَهْنَا» و«أكَجْكال»، وواحات بويزكارن وغيرها.

تميزت أنظمة توزيع الحصص المائية بواحات الجنوب المغربي عامة، وواحة أسا تحديدا بالدقة والصرامة. كان الفلاح يحرص كل الحرص على انتظار دور الماء، حيث يوزع على النهار والليل على حد سواء وعلى صاحب الأرض أن ينتظر الماء متى حل ولو في عز الليل وقد يبيت الفلاح في الحقول ينتظر حصته المائية[2].

كما شكل السقي بنظام «تَنَاسْتْ»[3]، التقنية المعتمدة في سقي وري حقول واحة أسا، عرفها المختار السوسي في كتابه المعسول قائلا: والطاسة إناء صغير مصنوع صنعا خاصا من النحاس، فيثقب ثقبا صغيرا فتجعل في سطل ماء، فيتسرب الماء من الثقب أسفلها شيئا فشيئا حتى تمتلئ فتغطس في ماء السطل، فهي الطاسة الواحدة... وقد رسم في وسط الطاسة داخلا: النصف والربع بخطوط مستديرة محبوكة الصنع[4]، ومن جهته عرفها بن محمد قسطاني على أنها ساعة مائية على شكل إناء مثقوب من الأسفل يوضع في إناء أخر أكبر منه وأوسع، يملأ الأول بالماء ومتى فرغ من مائه فتلك مدة زمنية[5].

1- ناجم أمجود، ملكية الأراضي وتوزيع المياه في قبيلة آيْتْ أسا، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف علي الجاوي، السنة الجامعية 2000م/2001 جامعة ابن زهر، اكادير، ص: 22.

2- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 103.

3- أنظر الصورة رقم 17.

4- محمد المختار السوسي، المعسول، الدار البيضاء، 1991، الجزء 20، ص: 152.

5- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 103.

صورة رقم 17: «تَنَاسْتْ». من أرشيف جمعية قصر أسا. من أرشيف مصطفى أنشاد (25 غشت 2018)

وعادة ما كانت تتم هذه العملية في أماكن عمومية، فعلى مستوى واحة أسا بالقرب من «إمِي نْ صَنْدَرْتْ إدَاوْنْكِيتْ»، «إمِي نْ سْمُوكَنْ»، «إمِي نْ تِمَزْكِيدَا إدَاوْمَلّيلْ»، «إكِي نْ تكُرْضَاتْ»، أو في مفترق السواقي، وتتم في جلسات منظمة لا تكاد تخلو من نقاشات بين الفلاحين وشيوخ القصر، حول الأمور ذات الصلة بقضايا القبيلة، وكل الأمور المرتبطة بالفلاحة من مردودية الحقول واستصلاح السواقي وغيرها.

منذ القديم أبدع سكان قصر أسا فيما تعلق بسقي الحقول، فتم اللجوء إلى نظام دقيق وصارم لاستغلال الماء الذي تعددت منابعه بواحة أسا، منها «تَكُرْضَاتْ» و«إغَالَنْ» وتُوزُونْتْ وغيرها، والتي تحمل نوبات سقي متوالية، بأسماء خاصة:

الجدول رقم 03: نوبات الري بعين «تَكُرْضَاتْ»:

عدد النوبات ستة عشرة نوبة	
- آيْتْ أوفَلاَ1	- الرّوسْتْ9
- آيْتْ هَارُونْ2	- السّيو صَالَحْ10
- إيعَزّا أويَاسِيْن3	- عْبَلاَ أُمُومَنْ (2)11
- إيفَضْ4	- آيْتْ سْلِيمَانْ12
- امْحَمْدْ أوعْمَرْ5	- آيْتْ يُوفْتَنْ13
- نْزَالْ6	- آيْتْ صَالَحْ14
- السّي أوهَارُونْ7	- آيْتْ يَعْقُوبْ15
- عْبَلاّ أُومَنْ(1)8	- أمْ إيكَمَانْ16

جدول رقم 04: نوبات الري بعَين «إغَالْنْ»:

عدد النوبات: سبعون نوبة	
- دَوْلَتْ[1] وَاوْدُوتْ:1	- دَوْلَتْ مَرْضَى:5
- أول وَاوْدُوت: نوبتين	- أول مَرْضَى: نوبتين
- ثاني وَاوْدُوتْ: نوبتين	- ثاني مَرْضَى: نوبتين
- ثالث وَاوْدُوتْ: نوبتين	- ثالث مَرْضَى: نوبتين
- رابع وَاوْدُوتْ: نوبتين	- رابع مَرْضَى: نوبتين
- خامس وَاوْدُوتْ: نوبتين	- خامس مَرْضَى: نوبتين
- دَوْلَتْ كَنْزَالْ:2	- دَوْلَتْ طُغَى:6
- أول كَنْزَالْ: نوبتين	- أول طُغَى: نوبتين
- ثاني كَنْزَالْ: نوبتين	- ثاني طُغَى: نوبتين
- ثالث كَنْزَالْ: نوبتين	- ثالث طُغَى: نوبتين
- رابع كَنْزَالْ: نوبتين	- رابع طُغَى: نوبتين
- خامس كَنْزَالْ: نوبتين	- خامس طُغَى: نوبتين
- دَوْلَتْ انْكْرَا:3	- وَنْكَلْ:7
- أول انْكْرَا: نوبتين	- أول وَنْكَلْ: نوبتين
- ثاني انكْرَا: نوبتين	- ثاني وَنْكَلْ: نوبتين
- ثالث انكْرَا: نوبتين	- ثالث وَنْكَلْ: نوبتين
- رابع انكْرَا: نوبتين	- رابع وَنْكَلْ: نوبتين
- خامس انكْرَا: نوبتين	- خامس وَنْكَلْ: نوبتين
- الزَّايَدْ: نوبتين4	- الزَّايَدْ: نوبتين8
	- تِفْرَاسْ: نوبتين9
	- تَسْدَرْتْ: نوبتين10
	- بُومْيَا: نوبتين11

● عَيْن تُوزُونْتْ إحْشَاشْ وعَيْن تُوزُونْتْ نْ آيْتْ بَحْمَانْ: سقي الحقول بهذه العيون يكون عن طريق الصهريج «تَنْطِفِي»[1]، مرتين في اليوم من الساعة السادسة صباحا حتى الساعة الثانية عشرة زوالا، ومن الساعة الثانية عشرة زوالا حتى الساعة السادسة مساء.

1- أنظر الصورة رقم 18.

الصورة رقم 18: «تَنُطْفِي» بعَيْن إحْشَاشْ وعَيْنْ تُوزُونْتْ. من أرشيفي الخاص (17 فبراير 2018)

تميزت واحة أسا بنظام رَيْ أو سقي دقيق ومتميز لا يمكن الإخلال به، ويمكن اعتباره من التراث المائي الذي ميز مناطق الواحات، نظام استطاع الفلاحون والمزارعون رغم بساطة أدواتهم ومحدودية قدراتهم أن ينظموا به عملية سقي وَرَي الحقول بانتظام، وذلك عن طريق قوانين عرفية وقبلية معتمدة ومتفق عليها. ويبقى مجال البحث في هذا الموضوع مفتوحا لأهميته، من أجل الوقوف على أهم تفاصيله من نظام الخطارة و»تَنَاسْتْ» والأعراف المنظمة للسقي ونوبات الماء «تِرَامْ» فضلا عن دلالة الأسماء والأدوات المستعملة فيه. إن إثارتنا لهذا الجانب من التراث الثقافي بقصر أسا، يعود أساسا إلى أهميته وأهمية دراسته، خصوصا وأن نظام الري الدقيق والصارم المتبع بواحة أسا، يمكن اعتباره من أعظم ما توصل إليه إنسان قصر أسا في محاولته تدبير الثروة المائية واستغلالها.

خلاصة

انتشرت القصور بالعديد من مناطق الواحات بالمغرب، خصوصا بالجنوب والجنوب الشرقي، ومنها المعلمة التاريخية قصر أسا كفضاء حاضن لمختلف تجليات التراث الثقافي، حيث توقفنا عند مجموعة من الخصائص المميزة له، وهنا نؤكد على أهمية إجراء دراسة تاريخية متخصصة تميط اللثام عن تاريخ نشأته وطبيعة الحياة به وخصوصياته، خصوصا أنه بمجرد أن يضع الباحث الأصبع على محور أو عنصر ما من عناصر هذه المعلمة التاريخية إلا وتناسلت محاور وأمور أخرى ذات الصلة بالموضوع، وهذا هو حالنا في هذا العمل، إذْ برزت أمامنا جملة من العناصر التاريخية والديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية والتراثية، عناصر تحتاج للمزيد من تعميق

النقاش والبحث حولها وتوثيقها بشكل معرفي دقيق وحديث بناء على مكتسبات العلوم الحديثة وإماطة اللثام عن أسرارها الجمالية ودلالاتها الرمزية في سياقاتها التاريخية والاجتماعية والثقافية والفنية، من خلال دراسات متخصصة ومركزة على كل جانب من تلك الجوانب على حدة، من منطلق أن لا شيء وُجِدَ في قصر أسا اعتباطا، بل إن استمرار الحياة في هذا الربع من البلاد لم تكن لتكتمل لولا الروح التي يبثها وادي درعة في المكان عند كل سيلان، فاتحا العنان لخبرات وتجارب الإنسان في تطويع الطبيعة وإقرار التعايش والاستقرار والأمان.

إن تاريخ وثقافة وتراث قصر أسا، عبارة عن خلاصة لتجارب وخبرات وحياة يومية أنتجتها الساكنة عبر تاريخ طويل، لتتشكل بذلك الذاكرة الشعبية الجماعية، مختزنة أهم الأحداث والوقائع والتعابير التي عاشتها ساكنة القصر منذ نشأته إلى اليوم. ويبقى التراث الثقافي بشقيه المادي واللامادي جانبا هاما في تسليط الضوء على المراحل السابقة من الحياة الثقافية والاجتماعية للمجتمعات.

الفصل الثاني:
العادات والتقاليد الشعبية

تمهيد

اهتمت الدراسات كثيرا بموضوع العادات والتقاليد باعتبارها جانبا هاما وحيويا من التراث الثقافي، حيث انكبت جهود الكثير من الباحثين والدارسين على التأسيس النظري للمفهومين ودلالاتهما وما يدور في فلكهما من عناصر وأصناف، فضلا عن الإحاطة بالجانب المنهجي المتعلق بالجمع والتدوين والدراسة والتحليل، حيث تعتبر الخزان الأكبر لمنظومة القيم التي تحكم سلوك الفرد والجماعة وتوجه مسار الحياة اليومية للمجتمع[1]. ويعرف بعض الباحثين التقليد «Usag» أنه سلوك أو نمط سلوكي يتميز عن العادة في أن المجتمع يقبله عموما دون دوافع أخرى عدا التمسك بسنن الأسلاف[2]، من جهة أخرى أفضى الاهتمام المتزايد بدراسة العادة الاجتماعية «Custom»، من حيث دلالة المفهوم إلى تعدد التعريفات المقدمة له ونكتفي بذكر تعريفين؛ إذ عرفها الباحث «هولتكرانس Hultrantzk» بأنها سلوك أو نمط سلوكي تعده الجماعة الاجتماعية صحيحا وطيبا وذلك بسبب مطابقته للتراث الثقافي القائم[3]. فيما عدها الباحث محمد الجوهري ظاهرة أساسية من ظواهر الحياة الاجتماعية الإنسانية، هي حقيقة أصلية من حقائق الوجود الاجتماعي، فنصادفها في كل مجتمع تؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة عند الشعوب البدائية كما عند الشعوب المتقدمة، في حالة الاستقرار كما في حالة الانتقال... وهي موجودة في المجتمعات التقليدية التي يتمتع فيها التراث بقوة قاهرة وإرادة مطلقة[4].

وهناك من الباحثين من يميز بين التقليد والعادة الاجتماعية، وبعضهم يرفض هذا التمييز ويستخدم المصطلحين كمترادفين للدلالة على السلوك الجماعي للمجتمعات بما يستجيب لظروف وحاجيات الحياة، فهما بذلك يشكلان ظواهر ثقافية واجتماعية تتمثل في سلوكيات وممارسات يقوم بها الإنسان، وفي معرض حديثه عن العادات والتقاليد اعتبرهما المفكر عباس الجراري: ظواهر سلوكية نمارسها تلقائيا ودون وعي منا في الغالب[5]، إلا أن هذه الممارسة التلقائية مع مرور الزمان

1- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، مرجع سابق، ص: 78.

2- محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، الطبعة الأولى 2006، ص: 92.

3- علي محمد المكاوي، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مرجع سابق، ص: 177.

4- المرجع نفسه، ص: 178/177.

5- عباس الجراري، من وحي التراث، مرجع سابق، ص: 89.

وتعاقب الأجيال تصبح شيئا ضروريا يتم القيام به بشكل منظم، لتشكل بذلك في جانب من جوانبها أساس تشكل الملامح المشتركة للشعب والجماعة الشعبية.

تتميز التقاليد والعادات الاجتماعية بسمات وخصائص عدة، فهي أفعال اجتماعية تظهر إلى الوجود عند ارتباط الأفراد بالآخرين، كما أنها تكتسي طابعا تاريخيا واجتماعيا وتراثيا جماعيا، تستمد منه سلطتها داخل المجتمع الذي يمارسها، فإما أن ترتبط بزمن أو بموعد أو مناسبة، أو بمواقف وأحداث تتخذ من خلالها أشكالا متعددة تقدم لنا صورة كاملة للحياة، صورة تعطي للحياة بهاءها ورونقها، وتضفي عليها شرعيتها ومعناها، فالوجود الإنساني يفصح عن نفسه في العادات، وهي التي تضع في يد الإنسان السلاح الذي يواجه به أسرار الوجود ومشكلات الحياة، وهي الأداة التي يدعم بها علاقاته مع مجتمعه[1].

حدد المفكر عباس الجراري تجليات العادات والتقاليد في المناسبات التي تصاحب مختلف أطوار حياة الإنسان، وفي جميع مظاهره الحيوية، وكذا في علاقته بالأرض التي يعيش عليها، بل أكثر من ذلك فإن هذه العادات والتقاليد أوجدت لنفسها مكانا أيضا في عالم ما وراء الطبيعة، من خلال نظرة الإنسان للكون والحياة.

وفي ضوء ما تقدم؛ تعد العادات والتقاليد الشعبية، الوعاء الرحب الذي ضم العديد من العناصر، التي تتشكل عبرها شخصية المجتمعات وتتحدد هوياتها، من خلال سلسلة من المظاهر والتجليات والممارسات اليومية والسنوية والموسمية، ولتيسير سبل جمعها وتدوينها، اقترح محمد الجوهري تصنيفا للموضوعات التي تندرج تحتها[2]:

- عادات وتقاليد دورة الحياة.
- عادات وتقاليد الأعياد والمناسبات والمواسم.
- العادات المرتبطة بالفرد في المجتمع المحلي.
- العادات والتقاليد المتعلقة بالمأكل والمشرب.
- العادات والتقاليد المرتبطة بفض المنازعات وغيرها.

وتأسيسا على ما سبق؛ سنحاول الوقوف عند مجموعة من العادات والتقاليد بقصر أسا[3].

1- علي محمد المكاوي، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مرجع سابق، ص: 182.

2- محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، مرجع سابق، ص: 42/41.

3- للتفصيل أكثر حول أقسام وموضوعات العادات والتقاليد ينظر مؤلف مكنز التراث الشعبي المغربي، لسعدية عزيزي، سعيد أيت زهرة، طارق المالكي.

المبحث الأول: العادات والتقاليد المرتبطة بدورة الحياة بقصر أسا

بين ثنايا وتفاصيل مناسبات دورة الحياة «الولادة- الزواج- الوفاة»، عند سكان قصر أسا، نشأت العديد من التقاليد والعادات، عززت وجودهم الاجتماعي، مع تكرار ممارستها ترسخت داخل المجتمع، مساهمة في تمتين عرى الروابط والتعاون، فأصبح من الصعب على السكان التخلي عنها، بعضها مرتبط بتعاليم الدين الإسلامي، والبعض الآخر ظهر بفضل التجارب والخبرات، فتجدرت في التاريخ، مما فتح لها باب التلاقح مع مختلف الثقافات الأخرى، مع احتفاظها بالهوية الأمازيغية المغربية الغنية، لتصير متداولة بين الأجيال وتنتقل من السلف إلى الخلف.

أولا: عادات وتقاليد الولادة والختان بقصر أسا

كما تشير الدراسات فعملية الولادة قديما، كانت تنعدم فيها التجهيزات الطبية الأساسية، والاحتياطات اللازمة التي تسبق عملية الوضع، خصوصا في المناطق المنعزلة والبعيدة، فكانت العديد من الحوامل يضعن حملهن وهن يمارسن أعمالهن المنزلية أو الزراعية وغيرها، ورغم ذلك فإن ساكنة هذه المناطق بما فيها قصر أسا لم تقف مكتوفة الأيدي، بل كانت تبحث جادة عن الطرق التي ستسهل على الأم الحامل وضع جنينها دون أدنى صعوبة، وفي هذا الإطار عرف قصر أسا قديما، بطبيبات تقليديات: «إمّا زْبِيبَة»، «تَوَيَا مُهِينْ»، «فَيْطُومْ» وغيرهن، تمت الاستعانة بخبراتهن العالية في مساعدة النساء الحوامل على الوضع بطريقة تقليدية خاصة.

تتحول الأجواء عند الإعلان عن الولادة بقصر أسا؛ من احتفالات دينية إلى احتفالات اجتماعية جماعية بـ «المَوْهُوبْ»، ذكرا كان أو أنثى، احتفالات تبرز فيها العديد من التقاليد والعادات، فبعد الاطمئنان على حالة المولود ووالدته، وتيمنا بالسنة النبوية الشريفة، يؤذن والده أو أحد أقاربه في أذنه اليمنى، ثم الإقامة في اليسرى، وتحنيكه بالتمر و«الزُبْدَة البَلْدِيَة»، لتتلقى العائلة التهاني والتبريكات «أَسَعْدِي دُو مَحْضَارْ» إن كان ذكرا و«تَمَحْضَارْتْ» إن كانت أنثى.

في اليوم الثالث من ازدياد المولود، تحتفل الأسرة بـ «كْرَادْ أوسّانْ» أي مرور ثلاثة أيام على ازدياد المولود، حيث يتم استدعاء النساء المسنات لتناول وجبة «الكسكس»، ويحرصن على تقديم هدايا عينية «أَسَعْدْ» حسب الإمكانيات المتاحة، تتسلمها الأم بركة للمولود، وبعد تناول الوجبة تقدم لهن أدوات الزينة التقليدية من سِواك وماء العطر وغيرها، ليختم ذلك بالدعاء الصالح للجميع. وفي اليوم السابع الذي يلي ولادة المولود، وبنية العقيقة، تذبح العائلة ذبيحة أو ذبيحتين حسب استطاعتها، وجرت العادة أن يتكلف إمام المسجد بهذه المهمة، وهو اليوم نفسه الذي يتم فيه إقرار تسمية المولود، حيث يتم إخبار الفقيه بذلك وكافة أفراد العائلة.

تجدر الإشارة إلى أنه في تقاليد تسمية المولود غالبا ما تسند للأب أو أحد أقاربه، وعادة ما تفضل العائلات تسمية المولود الذكر بأسماء الله الحسنى أو بأسماء الأنبياء وصحابة الرسول ﷺ، أو باسم جده أو اسم شخص عزيز في العائلة، أو شخص معروف في القبيلة، والأنثى باسم جدتها وقد تسمى بأسماء النساء الصالحات من زوجات النبي ﷺ أو بأسماء الصحابيات الجليلات، وتعد العائلة وليمة يصطلح عليها «إِسْمْ» يدعى لها الرجال والنساء ومن تعذر عليه ذلك لسبب من الأسباب يؤجل الوليمة إلى الأسبوع الموالي.

يحضى المولود برعاية كبيرة من طرف الأم، مما يدفعها إلى ممارسة العديد من العادات والمعارف، تحمل بين طياتها دلالات عميقة حماية له ودرءا للعين والحسد؛ تبدأ هذه الحماية عن طريق «التَبْخَارْ» و«التّعْلاَقْ»[1]، حيث تقوم أم الرضيع أو إحدى قريباتها، بصنع «تُومّيسْتْ»[2] أي التميمة و»لَحْجَابْ»، يعلقان في معصم المولود، وفي حالة أصيب بمرض، يقال «إِزْرَى» أي أنه رأى شيئا ما تسبب في مرضه، ولتجنب ذلك؛ تحرص الأم أشد الحرص على ألا تراه النساء، خصوصا في البدايات الأولى من ولادته وقبل نمو أسنانه، من أجل اتقاء شر ما يمكن أن يراه أو يسبب له المرض، وإكسابه مناعة خاصة ضد أي مخلوق كيفما كان قد يضر بصحته.

واعتبارا لأهمية الرضاعة في نمو المولود، تحرص الأم على الرضاعة الطبيعية، وبشكل يومي ومنتظم تضعه داخل قماش، يلف جميع أطرافه وتشده بشكل محكم حتى تستقيم جميع أطرافه بواسطة حبل يسمى «أَسَاتَلْ»[3]، من بين ما تردده وهي تقوم بذلك:

أَكّيكْ رَبّي غِكّي يَخْفْ يَانْ كِيرَانْ أولاَ يَانْ كْيُوكِينْ

ثلاث مرات، معنى ذلك: رفعك الله فوق من أحبك ومن لم يحبك، وحفظك الله، وتهدف من كل ذلك العناية به وحفظه من كل المخلوقات الضارة.

وعند بلوغه الأربعين يوما من عمره؛ تتم حلاقة شعر الرأس في أجواء عائلية خاصة، بحيث يتولى الجد أو أحد أقاربه عملية الحلاقة، باستثناء ثلاث مناطق، حيث يتم إبقاء ما يسمى بـ «لْعُرْفْ»، وهو عبارة عن قليل من الشعر من الأمام حتى خلف الرأس، على شكل طولي، وفي الجانبين

1- يقصد بها عبد الرحيم العطري: ما يحمله المرء من تمائم تتوزع على «الكتابات» و«الحجابات» وهي جداول ووريقات ملفوفة جيدا في حوامل معدنية صغيرة، تكتب فيها بعض الآيات القرآنية. مثلما تكون هذه التمائم عبارة عن خواتم مرصعة بأحجار معينة، أو قلادات تضم شكل اليد (الخميسة)، كما تكون التميمة عبارة عن سوار جلدي. عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2014، ص: 185.

2- «تَوْمِيسْتْ»: عبارة عن تميمة تحتوي على مواد «الشَبَة»، «لْكَبْرِيتْ»، «لْحَرْمَلْ»، الملحة الحية، وقليل من شعر المولود، توضع في معصم اليد درءا للعين.

3- «أَسَاتَلْ»: عبارة عن حبل مصنوع من الصوف بعد وضعه في الحناء، توضع في رأسه تميمة، يتم صنعه في اليوم الثالث من ولادة المولود «كْرَادْ أَسَانْ» يستعمل للف الرضيع من كتفيه إلى القدمين، بشكل تستقيم معه أطرافه لينام بشكل مريح.

تترك منطقتين تسميان «تِكْوِيَاضْ»، على أن يتم الاحتفاظ بقليل من الشعر يعلق في لباسه ضدا على العين والمخلوقات الشريرة.

وفي مرحلة لاحقة من عمره، عندما يقترب من الوصول إلى السنتين، تعمل الأم على فطامه، بتوقيف عملية الرضاعة الطبيعية وتعمل جاهدة من أجل ذلك، وفي حالة عدم تفوقها، تلجأ إلى الفقيه ليكتب له حجابا، أو ما يعرف عند الذاكرة الشعبية بـ «السْبُوبْ/ «سَبّبِيَاسْ»[1]، اعتقادا منها أن ذلك سيساعده في تجاوز هذه المرحلة.

كما خصت ساكنة قصر أسا عملية الختان «طْهَارَة» بعادات وتقاليد واحتفالات خاصة. إذ كانت عملية الختان تتم بشكل جماعي، وتقام وليمة بالمناسبة يدعى لها الفقهاء وأقارب العائلة والجيران حيث تعم الأفراح وتقدم الهدايا للطفل المختون وتعلو الزغاريد وتبادل التهاني، والرقص على إيقاعات «أحْوَايْشْ» الرجال والنساء.

يكون الطفل في أبهى حلة في ذلك اليوم، بلباس تقليدي مميز ويحضى بعناية خاصة، وغالبا ما كان وَالِدَيْ الطفل يمتنعان عن الحضور لحظة ختانه، من جهتهن النساء يقمن بترديد مرددات شعبية ويطلقن الزغاريد في أجواء ممتعة، يرمن من ذلك إخفاء صوت بكائه حتى لا تتأثر أمه، وتعمل إحدى قريباتها على طهي قطعة من اللحم، وبيضة طازجة تقدمان له، علّهُما يخففان من آلامه، وتهدآن من روع والدته. وتحتفظ الساكنة بأهمية الحدث، فكان الآباء يقدمون لأبنائهم هدايا ثمينة بالمناسبة منها على سبيل المثال نخلة، حقل وغيرهما تعبيرا عن فرحهم.

حضيت هذه العادات والتقاليد عند ساكنة قصر أسا بعناية كبيرة، واكبت مختلف مراحل حياة المولود، بدءا بالمراحل الأولى لنموه، مرورا بمرحلة تتبع تربيته وتنشئته الاجتماعية، وصولا إلى مرحلة البلوغ والزواج.

ثانيا: العادات والتقاليد المرتبطة بالزواج بقصر أسا

يحاط الزواج في كل الثقافات ولدى كل المجتمعات- بما فيها مجتمعات الواحات- بكثير من الطقوس والعادات والتقاليد المتميزة، لكونه حدث اجتماعي جماعي هام، تحكمه قوانين دينية واجتماعية متوارثة، فهو نقطة مرور بالغة الأهمية في حياة الأشخاص من الجنسين، حيث من خلاله يكون الإعلان الكبير بقيام

1- حسب العطري: السْبُوبْ من «الأسباب» وهي جداول يكتبها الفقهاء لفائدة طالبيها، على أساس أنها تتضمن آيات وكلمات من القرآن الكريم، ولا تندرج ضمن السحريات، بل تصنف ضمن آيلات الاستشفاء بالمقدس لا بالمدنس، وتستند في السبوب في تبريرها إلى الحكمة القائلة «سَبّبْ يَا عَبْدِي وَأنَا نْعِينَكْ». عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي مرجع سابق، ص: 181.

العلاقة الزوجية، ويترتب عليه حقوق والتزامات لكل من العروسين تجاه الآخر[1].

جرت العادة تنظيم مناسبات الزفاف بقصر أسا بعد موسم الحصاد، ولكي تكتمل مراسم الزواج على أحسن وجه، يتم الاستعداد المبكر له، بناء على الإمكانيات المادية للعائلتين، والتي غالبا ما تكون بسيطة وخالية من التكلف، وكانت المناسبات قديما تمتد إلى خمسة عشر يوما، ثم انتقلت إلى سبعة أيام، وتمر بمراحل عدة كل يوم بأجوائه وطقوسه وعاداته:

1 - اختيار العروس

جرت العادة ألا يرى الشاب المقبل على الزواج الفتاة التي ستكون شريكة حياته[2]، فإذا لم تقتنع الأم بإحدى قريبات ابنها، كابنة عمه أو عمته أو ابنة خاله أو خالته، تتسع دائرة البحث رفقة صديقاتها أو قريباتها عن فتاة تكون جميلة خِلْقة وخُلُقا، أدبا ومعرفة، ولها مهارات في الطبخ وأشغال المنزل.

عندما يقع الاختيار على الفتاة، تعمل الأم على إبلاغ أفراد العائلة خاصة الأب، وبمجرد الموافقة، تقصد رفقة عدد محدود من أفراد العائلة وقريباتها منزل الفتاة، لتطلب يدها من والديها أو ولي أمرها، وتفتتح الجلسة بعبارة «إنْكْبِيوْنْ نْ رَبِي» أي ضيوف الرحمن، فترد العائلة بالتحية والترحيب، وبعد التفاوض حول الأمور المرتبطة بالزفاف، عادة ما يعطي أهل العريس مهلة لأهل العروس من أجل التشاور والاستقرار على رأي، وتقتضي التقاليد ألا يلتقي العريس بالعروس حتى ليلة الزفاف.

2 - «أسِيكّلْ» الخِطْبة

إذا كان الرد بالموافقة، يتم إرسال كبار العائلة إلى بيت العروس، مرفوقين بهدية الخطبة «أسِيكّلْ» أو «لْوَاجَبْ» التي عادة ما كانت تتكون من لباس وَالِديْ العروس ومن[3]:

- «لَعْبَرْة نْ تْمْزِينْ»: عَبْرة من الزرع
- «سْنَاتْ تَغَاطِينْ»: شاة أو شاتين
- «إجْعَاضْ نْ تِسْلِيتْ»: ملابس العروس
- «تَمَلْحَافْتْ»: لِحَافْ

1- على محمد المكاوي، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مرجع سابق، ص:256.

2- السالكة موسي، العرس الحساني- الأمازيغي، منطقة أسا الزاك، دراسة في أوجه التشابه والاختلاف، بحث لنيل الإجازة في الأدب العربي، إشراف عبد العالي الدكالي، السنة الجامعية 2001/2000، جامعة ابن زهر اكادير، ص:20.

3- المرجع نفسه، ص:21.

- «سِينْ إِقَشْبَانْ»: فستانين
- «إِدُوكَانْ نْ بَابَاسْ»: بَلْغَة خاصة بأب العروس أو ولي أمرها.

كل ذلك من أجل إضفاء الطابع الرسمي على الزواج، ليفتتح الحديث بعد ذلك حول واجبات المُهر[1]، وتحديد موعد الزفاف وغير ذلك من الأمور، التي غالبا ما يكون فيها النقاش بين وليا أمر العريسين، واللذين يشرفان على مراسم توثيق عقد الزواج بحضور إمام المسجد، وتجدر الإشارة إلى أنه طيلة مرحلة الخطوبة، خاصة في الأعياد الدينية «عيدي الفطر والأضحى» يقدم العريس لخطيبته هدية عبارة عن ملابس العيد.

بعد «أسِيگّلْ» الخطبة، كأول خطوات الزواج المعلنة بشكل رسمي، يشيع الخبر في أرجاء القصر، لتستعد باقي العائلات لهذه المناسبة، فالزواج كما تمت الإشارة إلى ذلك يعد من أهم المناسبات التي تبرز فيها مظاهر التعاون والتضامن بين العائلات، وبعد اتفاق العائلتين وتحديد تاريخ العرس، تبدأ عائلة العروس بتوفير جهازها وعادة ما يتكون من فراش «بَنْشَكْرَا»، حِلِي العروس[2]، «أعْكّادْ»[3] وغيرها من التجهيزات التي تحتاجها.

3 - «أغْكّاسْ»

يوم خاص تلتئم فيه نساء العائلة والجارات والصديقات وغيرهن، في أجواء احتفالية لا تخلو من ترديد أهازيج أمازيغية، يقمن خلالها بتنقية القمح والشعير ويوزعانهما على الفتيات لطحنهما في الآلة اليدوية «أزَرْكْ»، ليكونا جاهزين للمناسبة، من جهة أهل العريس وأصدقاؤه من الشباب، يُحَضِرُون مُتعلقات العرس، كجلب الماء والتزود بالحطب حيث يتم استعماله لإعداد الولائم، ويتم ذلك في أجواء جماعية مُتْرَعَة بالفرح والحيوية والحماس.

4 - «أكُورْ»

عادة وصفها قريب جدا من «ليلة الحناء»، ولا تختلف كثيرا عن عادات المناطق المغربية الأخرى، تقوم بها النسوة ليلة الزفاف، وخلالها يتم إعداد الحناء وتزيين العروس وتسريح شعرها، كما تغتسل فوق «أزَرْكْ» وقاية لها من كل شر محتمل قد يصيبها، ومن بين الأهازيج الآ مازيغية التي يرددنها:

لْحَنّا إيسْلاَنْ إِتعُزّو َربِي

1- المهر قديما بقصر أسا يتكون من: كْرَادْ إِصَاعِينْ نْ تُمْزِينْ «ثلاثة عبرات من الزرع»، سِينْ أرْطَلْ نْ زّيتْ لْعُودْ: لترين من زيت المائدة، كْرَادْ أثْمَانْ وَاتَايْ: ما يعادل 100 غرام، كُوزْ أثْمَانْ نْ سُكّرْ، 04 أثمان سكر، نَصْ بَيْصَة: قطعة ثوب وخروف.

2- من بين هذه الحلي «دمالج، خلاخل، خواتم، لْمْحَيصْرَاتْ، أمْزَيَرّادْ وغيرها».

3- «أعَكَادْ»: عبارة عن حبل مزخرف مصنوع من الجلد يستعمل لتعليق الملابس.

إوَافَقْتْ إوِلّي تِيدْ إوِينْ
أكُزْدْ أيَا يّورْ غِضَاضْ أكُنْ رِيغْ
أتْغْمُو إيلّي تِضُوضِينَسْ
لِزَارْ أورْلْسِيغْ غِضَاضْ إحَرْكِي
أبَزْكْ أورْنَقّينْ غِضَاضْ إبِي نِيتْ
لْحَنّا أورْغْمِيغْ غِضَاضْ إقّارْ نِيتْ
أيَلّي حَنّا تِتْرِيتْ نْ زِيكْ زِيكْ
لِي فَا يَتْصَبَاحْ نْبِي مُحَامْدِي
كِيغْكِينْ ألْفَالِينُو عَلَى خِيرْ أيْكَا
يَوِيدْ تِمَلّي دِيغْتْ إنّا رَبّي
أيَلّي حَنّا مَا تْكِيتْ إدُو إمِي
أكّورْنْ إيجّانْ دْ وَرْكَانْ أدَاسْ كِيغْ
أيْدْ سِيدِي عَبْدْ الرّحْمَنْ أتِيزْوَا
أوِيلّي زْضَانِينْ تِمّنْتْ إ نْبِي
أدْيَاوِي رَبّي أنْزَارْ
أيّوتْ تِحْدُودِينْ
تُومْزِينْ أتّنْتْ إيكَانْ
أيْسَنْدْ رَبّي أضُو
أيَاضُو نْ كْمَاتَنْغْ

بعد ذلك يتفرق الجميع، بعد ضرب موعد اللقاء في اليوم الموالي.

5 - «أمْ رْبَا دْ إلِوِي»

تتوالى عادات العرس بـ «أمْ رْبَا دْ إلِوِي» وهي عادة تقوم بها النساء يحملن خلالها:

- «أكَجْضَا»: وهي قطعة من الخشب طويلة.
- «إزِيمّرْ»: كبش.
- «طْفَالْ»: قطعة من الصّلْصَالْ.
- «تَزْكَاوْتْ»: قفة بها الزرع والسكر وفستان العروس.

يتجهن بهذه الحاجيات صوب منزل العروس، وفي الطريق إلى المنزل تتعالى الأصوات والزغاريد، ويرددن:

أَمْ رْبَا دِ إِلِوِي أَمّو أَحْبُوبْ نْ تَاسَا

تَنّا تْرَى إِسَمْغَارْ زَكْزَاوْنِينْ

أَتَغْلاَ دِ إِزَمّرْ مَزّنِينْ

مُونِينْ غِيمُولاَيْ زَكْزَاوْنِينْ

6- أَسْ نْ تَمْغْرَا

يوم العرس، يوم تستدعي فيه عائلة العريس أفراد العائلة والقبيلة كرفقاء لهم من أجل إقامة العرس، أو ما يعرف بـ «أَدْ أَسِينْ تَمْغْرَا» أي نقل الهدايا نحو منزل العروس، في موكب بهيج تتخلله الأهازيج والزغاريد، وعند وصولهم إلى منزل أهل العروس، يتم استقبالهم بالترحاب، ويتم تقديم الحليب والتمر «وَمَرْحْبَا مَرْحْبَا، مَرْحْبَا سِيتُونْ أولاَ مَاذْ دِيدُونْ إمُونْ»، أي مرحبا بكم وبمن رافقكم وَسْطَ أجواء من الفرح والابتهاج من طرف الجميع.

7 - «إِضْ أُورُوحْ»

ليلة الدخلة، عشية هذه الليلة يتم حمل جهاز العروس، إلى منزلها الجديد في أجواء احتفالية، يتم خلالها تحضير «تَزْلاَفْتْ أوزَكّيْرْ» أي قصعة عقد الزواج، ويتم حملها في اتجاه منزل العروس لعقد القِران من طرف فقيه المسجد وسط أجواء عائلية مُتْرَعة بالفرح والسرور حيث تتعالى الزغاريد، ليتم بعد ذلك تقيّيم ملابس العروس وباقي التجهيزات «لْقِيمْتْ»، وفي الموعد المحدد سلفا لإحضار العروس إلى بيت الزوجية، يدور حوار شيق بين النساء من أهل العروس من داخل المنزل، وأهل العريس خارجه يسمى بـ «تَنَكّيفْتْ»، قبل ذلك قريبات أهل العريس، وهن في طريقهن إلى منزل العروس يرددن أهازيج أمازيغية:

وَبِسْمِ اسْمِ الله الرّحْمَن الرّحِيمْ

إنّاتْ أَبَنّايْ إبْنَانْ تِمَصْرِيّينْ

إنّاتْ أَمَحْضَارْ مَزّينْ إغْ بْدَانْ غْتِلْوَحِينْ

إنّاتْ أورَامْ إغْ إكُنْ أَيَاسِي لَحْمُولِي

وَبِسْمِ اسْمِ الله الرّحْمَن الرّحِيمْ

ثم يدور الحوار كالتالي:

- أهل العريس: سْلاَمُ عَلَيْكُمْ أ يَايَتْ تْكَمّي: سلام عليكم أهل البيت

- أهل العروس: وَعَلَيْكُمْ السّلاَمْ أمَتِيدْ إنّانْ: وعليكم بالسلام على من بدأ السلام

- أهل العريس: كَاتْ لَجْوَادْ أيْضُولاَنَغْ: كُونوا من أهل الكرم أصهارنا

- أهل العروس: لْعِينْ لْعِينْ غْ دُو تْكَمِي: العين بالقرب من المنزل

- أهل العريـس: صِيفْدَتَاغْ يَكُوكْ أغْرَاسْ: أرسلونا الطريق بعيدة

- أهل العروس: إيغْ يَكُوكْ تَنْسِيمْ غْدَارْنَغْ: إن كانت بعيدة فَمَبِيتكم عندنا

- أهل العريس: يَغَاغْ تَرْوَا مَزّينِينْ: لا نستطيع ذلك بسبب أطفالنا الصغار

- أهل العروس: إغْ مَزّينْ نَازَنْ سْمَا تْنِيدْ إتّاوِينْ: إن كان ذلك هو المانع، نرسل أحدا يأتي بهم

- أهل العريس: وَيغَاغْ كَانْ تَرْوَا إيمْغَارْنْ: لا نستطيع لأنهم أبناء شخصيات

- أهل العروس: إغْ تَنْكَانْ أفِينْدْ وِيَاضْ: إن كانوا هم كذلك، سيجدون أمثالهم هنا

حوار تسعى من خلاله كل عائلة إبراز سمعتها وكرمها وجودها وتحملها للمسؤولية، بعد ذلك يفتح الباب إيذانا بقرب مغادرة العروس في اتجاه بيتها الجديد، ويتم ذلك في أجواء تمتزج فيها مشاعر الفرح وحزن الفراق، فرحة أهل العريس بقدوم الزوجة وقلق أهل الزوجة المؤقت لمغادرة ابنتهم إلى بيت جديد وعائلة جديدة.

تستعد إذن العروس، حيث يتم لفها في ثوب أبيض وترتدي جوارب حمراء من أحد أقاربها من الشباب، وتضع فوق رأسها أغصان من شجرة الرمّان وجريد النخل وأغصان شجرة الحناء، يتم لفها بلثام لتصبح مثل تاج، وجرت العادة أن تبدي العروس حسرتها وعدم رغبتها في مغادرة بيت الأهل الذي تربت وترعرعت فيه، فتجهش بالبكاء وللتخفيف من صعوبة الفراق، فتردد والدتها بلحن حزين:

أَلْحُورْمَانُونْتْ أتَادْجَرِينْ

أَلْحُورْمَانُونْتْ أتَادْجَرِينْ

إلِينُو إلِينُو تْعَزَا دَارِي

إلِي حَنَا تْعَزَا دَارِي،

إلِي حَنَا أتِيلِي كْرَاتُونْتْ

بعدها تردد النساء أهازيج أمازيغية، عبارة عن نصائح وتوجيهات تذكرها بمسؤوليتها بعد الزواج منها:

أَيلِينُو أدَكْ أورْتَلاَتِي إسْتْمَامْ أدَامْ إسُوتَلْنْ
إنَيَامْ بَابَامْ أو لاَ إمّامْ
تِيكَمّينْمْ غِيدْ أولاَ غِينْ تْرِيتْ
إسْتْمَامْ غِيدْ أولاَ غِينْ تْرِيتْ
أيَلِينُو أدَمُورْ تِينِينْتْ
غْلِيدْ دَارَنْغْ هَادْ تِيكَمِينْغْ تْزُوزْوَا نِيتْ
إنَاسْ حَتّى كَمِي غْلِيدْ دَارَنْغْ
هَادْ أغكَمِينْو إزُوزْوَا نِيتْ
ألْمَسْوَاكْ لْحُرْ إيلاَ غْ دَارِي
أيَلِيُنو أدَامْ أورْ تِينِينْتْ
إغْ دْيَادْ نُوكَمْ تَاوِيدْ أمَانْ
أيَلِيُنو أدَامْ أورْ تِينِينْتْ
إغْ دْيَادْ نَزْدَمْ تَاوِيدْ إغِيلْ
أيَلِيُنو أدَامْ أورْ تِينِينْتْ
أمُو كْرَاتْ تْرَبْعِيِنْ أو كُورْنْ
أيَلِيُنو أدَامْ أورْ تِينِينْتْ
أمُو كْرَاتْ تِكِنِينْ نْ تُودِيتْ
أمُو كْرَاتْ تِكْنِينْ إلحْ يَاتْ
وتردد أخريات:
أورْتَا إظْهِيرْ مَا تْكَا إلِيمْ
إغْ أورْ تُورُو، تَارُو تْفُونَاسْتْ
غَصَانْ كَ يَظْهَرْ مَا تْكَا إلِيمْ
إغً أورْ تُورُو، تَارُو تْفُونَاسْتْ
إلِينْ إنَكْبِيوْنْ غُو أغْكَمِي
إلِينْ إكَشُودَنْ غُوسْغَارْ

وفي اعتقاد أن نجاح المسؤولية الجديدة مرتبط بتحلي العروس بالخصال الحميدة والثقة وانتظار ازدياد مولود، والاهتمام بالمواشي وإحضار الحطب وإعداد الطعام في وقته وإكرام الضيوف؛ آنذاك ستظهر مكانة العروس ويبرز دورها داخل البيت، كلها نصائح وتوجيهات تقدم للعروس بشكل غير مباشر حتى تكون في مستوى المسؤولية الزوجية، بعد الانتهاء من ترديد تلك الأهازيج الآ مازيغية التي تسعى من خلالها النساء إلى التهدئة من روع العروس وتشجيعها، يقوم شاب من أفراد عائلتها يكون والديه على قيد الحياة بحملها نحو منزل العريس الذي يكون في انتظارها مرتديا الزي التقليدي الرسمي المكون عادة من جلباب أبيض وسلهام و«لْكُمِيتْ» حاملا في يده «تَكُرَايْتْ» ويرافقه «لُوزِيرْ»[1] وأصدقاؤه بإحدى المنازل القريبة وعند وصول العروس يلتحق بها العريس، وبدخوله تخرج النساء ويقفل الباب ليفض بكارتها مكتشفا سر أنوثتها، وفي انتظار ذلك؛ تنطلق أمام الباب الأهازيج والمرددات: إهْيَا مَالُ أو مَال إهْيَا مَالُ أومَالْ يِهْ يَا مَالُ يِهْ يَا مَالُ أو مَالْ. لحظات ويفتح الباب ليتوج عائلة العروس بوسام الشرف، وتذهب قريباتها لإبلاغ والدتها بالخبر[2].

بعد ذلك يخرج العريس عند أصدقائه للسهر إلى وقت جد متأخر من الليل، وفي الصباح يرافقه أصدقاؤه للتوضئ بعين «تَكُرْضَاتْ» وبعد عودته يتلقى التهاني والتبريكات من الجميع، ومن عادات العريس وضع طبق يضم التمر والحلويات والفواكه الجافة بجانبه، تعرف بـ «لْعَادَة»، يوزعها على كل من تقدم لتهنئته، ويحرص الكل على تسلمها لتعم الفرحة والبركة.

دائما في أجواء العرس، ومن التقاليد التي كانت توليها ساكنة قصر أسا عناية كبيرة خاصة أقارب العريس، في اليوم الثالث ما يسمى بـ «أسْ نْ طْوَاجَنْ» يوم الطواجن، حيث يقوم أقارب وأصدقاء العريس بطهي «طْوَاجَنْ» وتقديمها للعريس ويكون ذلك بأعداد هامة قد تصل إلى عشرين طاجينا أو أكثر، ويستدعى الأهل والأحباب وفرقة «أحْوَايْشْ» في تلك الليلة لتناول وجبة العشاء وإحياء أمسية لرقصة «شّطْحَة» يستمتع بها الجميع إلى وقت متأخر.

في اليوم الموالي، يقوم العريسان بزيارة أهل العروس للسلام عليهم، وتعرف هذه الزيارة عند الساكنة بـ «أدِيسُوتَلْ إسْلِي» أي قيام العريس بجولة رفقة أصدقائه، وغالبا ما تكون داخل القصر، في حين تذهب العروس رفقة مجموعة من النساء إلى الوادي المجاور للواحة «إكِي أمْدَرْ»، لملء «تَبُوقّالْتْ» بالماء كأول عمل تقوم به خارج المنزل منذ زواجها، والعودة بها إلى منزل زوجها ويتم ذلك في أجواء خاصة تتعالى فيها الأهازيج الآ مازيغية والزغاريد، ويعتقد أن بعملها هذا جاءت بحياة جديدة؛ حياة الخصب والخير للعائلة.

1- «لُوزِيرْ»: شاب وشابة يتم تعيينهما من طرف العريسين لينوبا عنهما في القيام بمجموعة من الأمور الخاصة بهما طيلة أيام الزفاف.

2- السالكة موسي، العرس الحساني- الأمازيغي، منطقة أسا الزاك، مرجع سابق، ص:29.

8 - «لْعَرْضَة»

وليمة العرس من المظاهر الاحتفالية التي ارتبطت بالعرس بقصر أسا ولا زالت؛ إعداد وليمة خاصة يحضرها الفقهاء والأهل والضيوف والمدعوين من الرجال كما النساء اللواتي يتجملن بأروع الحلي المسبوكة بشكل دقيق ومتناسق، ويرتدين الملابس التقليدية الفاخرة في تعبير عن الفرحة الجماعية المتميزة بهذه المناسبة.

تتنوع عادات وتقاليد العرس من بلد إلى آخر ومن منطقة إلى أخرى، وتبقى المشاهد العامة للاحتفال هي نفسها، مع بعض الخصوصيات بقصر أسا. شكل الزواج على مر التاريخ حدثا اجتماعيا جماعيا متميزا، يتوكل فيه العروسان على الله ويعقدان العزم لإتمام حياتهما، وتسعى من خلاله العائلات إلى إظهار الحرص التام والعناية والاحترام الكاملين لمختلف مراحله والعادات والتقاليد والطقوس المرافقة له، المبنية في مجملها على البساطة وتكريس مظاهر التعاون والتعاضد والحفاظ على نظم العلاقات بين أفراد العائلات، في انسجام تام وخصوصيات المجال الواحي واستغلال ما يجود به هذا المجال، وتأكيد بالتشبث بالأرض وما تنتجه.

طال الإهمال العادات والتقاليد المرتبطة بالعرس بقصر أسا قديما واندثر جلها وحلت محلها عادات وتقاليد جديدة، نتيجة تطور وسائل العيش والإمكانيات، وتمازج ما تبقى منها مع عادات أخرى، اختزلت أيام العرس وطوت مراحله وصعبت تكاليفه، فكان أن تنبأت حكمة الآباء والأجداد لما سيكون عليه هذا الحدث الاجتماعي المشهود مستقبلا، واختزلت ذاكرتهم ذلك في المثل الشعبي الأمازيغي «وَنّا إنّانْ تَمَغْرَا تَرْخَى يَكْمَاسْ أمَانْ»، معنى ذلك من قال بأن العرس سهل فليوفر حاجياته من الماء فقط وسيرى.

ثالثا: العادات والتقاليد المرتبطة بالوفاة بقصر أسا

تحتفظ الذاكرة الشعبية بالعديد من العادات والطقوس التي كانت تمارس قديما، وخصوصا بعد انتشار خبر وفاة شخص معين، فبعد تجهيز الميت، تبدأ مراسم الدفن حيث يلتئم الجمع من فقهاء ورجال وشباب داخل المقبرة، ثم يصلى عليه، بعد ذلك يوضع الجثمان في القبر وتوسيد رأسه بنبتة «أسّايْ» وبعد ذلك يتم إعداد القبر وبنائه بالحجارة من أعلى، وتغطيته بالتراب المبلل بالماء ويوضع عليه «إفْرِيكْ» وهو عبارة عن أربعة جدائل من النخيل الأخضر وبعض الأحجار الطويلة توضع بشكل عمودي كالصخرة الطويلة التي توضع عند الرأس وأخرى عند الأرجل هذا بالنسبة للذكر، وصخرتين عند الرأس بالنسبة للمرأة وصخرة عند الأرجل[1]، ويراد من ذلك التمييز بينهما، وداخل المقبرة تتم

1- عبد الله بونا، المعتقدات والمعارف الشعبية المرتبطة بالحياة الاجتماعية «أنموذج قصر أسا»، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف خالد الرامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، 2010/2009، ص: 47.

تلاوة آيات من الذكر الحكيم من طرف الفقهاء وباقي الرجال، خاصة سورتي «يس» و«الملك» والدعاء للميت ولجميع موتى المسلمين والمسلمات، بعدها يعود الجميع إلى منزل عائلة المتوفى، لتقديم واجب العزاء ومواساة العائلة في مصابها الجلل. يقوم الجيران والأهل والأصدقاء بإعداد الطعام، وتحرص النساء خاصة المسنات على المبيت عند العائلة لمدة ثلاثة ليال، وفي اليوم الثالث تقام وليمة تعرف بـ «لْمَعْرُوفْ»، بمساعدة الأهل والأصدقاء والجيران، يحضرها الفقهاء «طَلْبَة» وكبار القبيلة، خلالها تتم تلاوة القرآن الكريم والدعاء للميت، وبالصبر والسلوان لعائلته والرحمة والغفران لجميع موتى المسلمين والمسلمات.

من عادات الوفاة أيضا، مشاركة العائلة في أحزانها، خاصة إذا تزامنت الوفاة مع فرح إحدى العائلات، فإنه يتم توقيف جميع مظاهر الفرح، أما إن كان الفرح قريبا ومن أقارب العائلة، فعادة ما يتم تأجيله مدة طويلة قد تصل إلى سنة أو أكثر، كما أن بعضا من أفراد العائلات خاصة النساء، من يمتنعن عن لبس الملابس الجديدة أو التزيين أو وضع الحناء، حتى وإن تعلق الأمر بعيدي الفطر والأضحى.

تجدر الإشارة إلى أن الطقوس المصاحبة للوفاة والدفن كما هو متعارف عليها لدى ساكنة قصر أسا، لا تنتهي إلا بعد مرور أربعة أشهر وعشرة أيام وإزالة «إِفْرِيكْ» من على قبر الميت، وإعداد وليمة يحضرها الفقهاء وباقي رجالات القبيلة.

المبحث الثاني: العادات والتقاليد المرتبطة بالمناسبات والأعياد الدينية بقصر أسا

لعبت التنشئة الدينية والاجتماعية التي تلقاها أبناء قصر أسا، دورا هاما في توجيه سلوكهم وتربيتهم على تعلم تعاليم الدين الإسلامي، حيث شكلت المساجد والكتاتيب القرآنية، فضلا عن زاوية أسا، أهم مؤسسات التنشئة الدينية والاجتماعية، ومن أهم مناهل العلم والمعرفة، ومراكز لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة بالطريقة التقليدية الأصيلة المتوارثة عبر الأجيال، فكان الآباء يحرصون بشكل كبير على أن يرتادها الأبناء خلال مرحلة الطفولة، باعتبار ذلك حجر الزاوية في إعدادهم، وعدة أساسية في توجيه سلوكاتهم، مما عكس إلى حد كبير أصالة وعراقة المجتمع في المنطقة، المتشبع بقيمه الدينية والروحية.

واعتبارا لأهمية ما سبقت الإشارة إليه؛ كانت الجماعة تتعاقد مع أحد الفقهاء، فتقدم له واجباته وشروطه، أو ما يعرف عند الذاكرة المحلية بـــ «شَرْطْ نْ طّالَبْ»، أي الملازمة السنوية، وهي بمثابة عقد عمل بين الفقيه والقبيلة يتضمن مجموعة من الالتزامات، منها بالنسبة للفقيه الإمامة في المسجد، صلاة الجمعة، صلاة العيدين وتعليم الأبناء القرآن الكريم وعلوم الدين، وإرشادهم في أمور دينهم ودنياهم، في المقابل تلتزم القبيلة بتوفير المسكن والطعام «تَفَلّونْتْ نْ طّالَبْ» وأضحية العيد ومساعدته متى استدعى الأمر ذلك.

يحضى الفقيه بالتقدير والاحترام لدى الساكنة، ويحتل مكانة متميزة بقصر أسا، استمدها من وظيفته الدينية والاجتماعية ودوره في القبيلة «لَجْمَاعْتْ» باعتباره مستشارا لها في مختلف الشؤون الدينية والدنيوية.

من هنا إذن جاء حرص الآباء على إدخال أبنائهم إلى الكتاب، ابتداء من السنوات الأولى من عمرهم «الثالثة أو الرابعة»، باعتباره مؤسسة أولى يتعلم فيها الطفل القرآن الكريم وقواعد الأخلاق والدين ولكي تتفتح بصيرته، فكان التعليم في هذه الكتاتيب يمر بعدة مراحل وترافقه عادات وتقاليد متميزة.

عند بداية التحاق الطفل بالكتاب، يرسل معه أهله هدية إما للفقيه أو الأطفال الآخرين، فإن تضمنت الهدية الثمر أو الخبز أو «تِيرُوفِينْ»، يتم توزيعها على الأطفال، أما إن كانت من النقود مثلا أو الزرع والسكر، فيتسلمها الفقيه لنفسه، القصد منها «التَبَرّْكْ» وأن يتيسر للطالب «أَمَحْضَارْ»[1] الاندماج واستيعاب وحفظ القرآن الكريم، حتى يتسنى له هو كذلك أن يتخرج فقيها.

للوصول إلى هذه المرحلة، يبدأ الطفل أولا بتعلم حروف الهجاء وبعض المبادئ الأولية في الكتابة وبعض الأخلاقيات، ولم يكن تلقين الأطفال هذا يخلو من الضرب والتخويف الذي غالبا ما يكون بمساندة أب أو ولي الطفل، ويهدف أساسا إلى تربيته واحترامه وخضوعه للقواعد والأخلاق المتعارف عليها داخل الكُتاب، فكان الطالب «أَمَحْضَارْ» يتابع لوحه صباح مساء ويرتدي جلبابا من الصوف الداكن حتى في أوقات الحرارة، لكي يتقي به ضربات العصا التي يوجهها له الفقيه في حالة تهاونه[2]، هذه الصرامة تجعله يمتثل لأوامر ونواهي الفقيه، فضلا عن التزامه التام بمواعيد الدخول التي كانت تبتدئ بعد صلاة الفجر. يسهر الفقيه على تتبع رحلة «أَمَحْضَارْ» التعليمية بكل عناية حتى يتم ختم القرآن الكريم على يديه.

قبل ذلك نشير إلى أنه يتم تقسيم تلقين القرآن الكريم إلى مراحل ترافقها عادات وتقاليد تهدف إلى تحفيز وتشجيع الطفل على ختمه، فعندما يصل إلى الحزب الثاني والثلاثين «سورة طه»، كمرحلة أولى يحمل معه طعاما إلى المسجد يدعى «تِزْلاَفِينْ زْوَارْنِينْ» أي القصعة الأولى، وفي المرحلة الثانية عند وصوله الحزب الخامس والأربعين يتم إعداد «تِزْلاَفِينْ نْ تِزُومْتْ» أي قصعة الوسط وإعداد أكلة من الدقيق والبيض تسمى «لَبْسِيسْ»، فيقدم نصيب للأطفال داخل المسجد، في حين يستدعى الفقيه وفقهاء آخرين إلى منزل الطالب لتناولها، ثم «تِزْلاَفِينْ كْرَانِينْ» أي القصعة الأخيرة عند حفظ الحزب الستون، لتتوج هذه المرحلة من مسيرة حفظ القرآن الكريم بـ «تَمَغْرَا لْقُرَآنْ».

1- «أَمَحْضَارْ»/«تَمَحْضَارْتْ»: يطلق على الطلبة والطالبات بالكتاتيب القرآنية، كما يطلق على المولود عند الولادة.

2- بوغد الحسان، جوانب من تاريخ قبيلة آيْتْ أسا، مرجع سابق، ص: 49.

أولا: «تمَغْرَا لْقُرْآنْ»

«تمَغْرَا لْقُرْآنْ» أو عرس ختم القرآن الكريم من بين العادات الدينية التي لازالت تُحييها ساكنة قصر أسا، عند ختم الطالب «أمَحْضَارْ» القرآن الكريم، بحيث يعمل الفقيه على إبلاغ عائلته بالخبر، وإبلاغ الفقهاء الآخرين وكبار الشيوخ والطلبة «إمَحْضَارْنْ»، ويقوم الفقيه بكتابة الخاتمة في اللوح الذي سيحمله «أمَحْضَارْ»، وبالمناسبة يقدم له الطالب هدية قد تكون عينية أو نقدية، وبدوره يقوم الأب بشراء بذلة بيضاء لابنه وأخرى للفقيه، في غالب الأحيان تتكون من جلباب أبيض ثم بلغة وعمامة بيضاء.

يعم خبر «تمْغْرَا لْقُرَان» أرجاء القصر، مباشرة بعد صلاة العصر بأحد المساجد، ينطلق الجميع مشيا على الأقدام، وفي مقدمتهم «أمَحْضَارْ» ممتطيا فرسا مزينا معدا خصيصا لهذا العرس الديني، يحمل الطالب لوحا به خاتمة القرآن الكريم[1] المزين برسوم وزخارف جميلة وآيات من القرآن الكريم، ويحيط به الفقهاء وكبار الشيوخ وبقية الأطفال، الكل يرتدي أبهى ما لديه من ملابس بيضاء، مجسدين بذلك مظهرا احتفاليا أخاذا ومشهدا دينيا جماعيا تتراءى فيه ملامح الخشوع والابتهال الممزوجة بالفرحة والابتهاج بهذا الإنجاز العظيم.

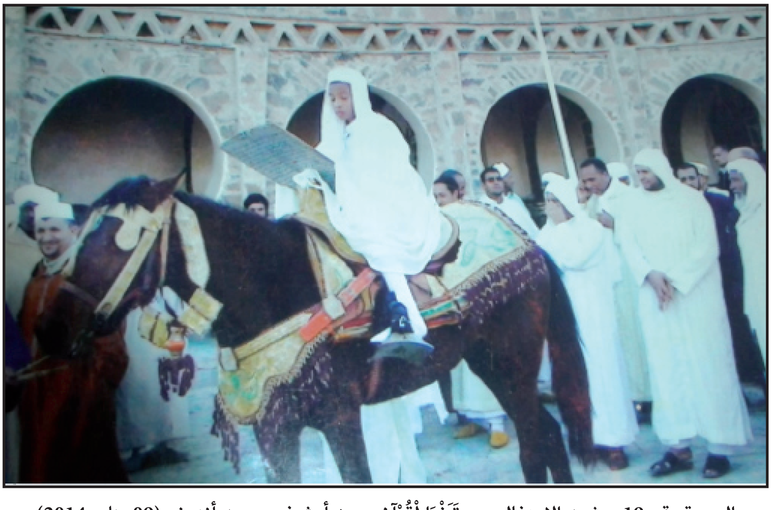

الصورة رقم 19: مشهد الاحتفال بــ «تمَغْرَا لْقُرْآن». من أرشيف محمد أنزيض (09 يناير 2014)

1- أنظر الصورتين رقم 19 و20.

الصورة رقم 20: لوح ختم القرآن الكريم. من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

وفي الطريق إلى المنزل تصطف جنبات المنازل التي سيمر منها الموكب[1] بالأطفال والنساء، وتتعالى الزغاريد والتبريكات ويقدم الأطفال العطور لـ «أَمَحْضَارْ» والفقيه وكافة أفراد الموكب وذلك لبث روح الحماس فيهم وتشجيعهم على الاجتهاد والعمل على الاقتداء بالطالب المجد والسعيد، وفي طريقه إلى المنزل يردد الموكب العبارات الدينية التالية:

كَلاَمُ الْحَقّ وَجَبَ مَا نَقُولُ   ومَا مُحَمّــدٌ إلاّ رَسُولُ

1- أنظر الصورة رقم 21.

الصورة رقم 21: موكب «تَمَغْرَا لْقُرْآنْ». من أرشيف محمد أنزيض (09 يناير 2014)

إلى حين الوصول لمنزل «أمَحْضَارْ» فيستقبل الجميع بالزغاريد وبأنواع مختلفة من التمور وأزكى أنواع العطور والبخور وبعبارات الترحيب والتبريك «بَرْكَاتْ مَرْحْبَا بِكُمْ»، بعد ذلك تخرج أمه أو أحد أقربائه إناء من اللبن الصافي «تَاطّاسْتْ أوغُو» يشرب منه الفقيه ثم الطالب ويقدم اللبن للجميع، لينعم الكل بصفاء هذا اليوم السعيد وبالقرب من المنزل يجلس الجميع في جو احتفالي ديني لتلاوة سورة «يس» وسورة «الملك»، بعد ذلك يأذن للموكب بالدخول إلى فناء المنزل، وفي أجواء دينية متميزة تصدح حناجر الفقهاء بتلاوة آيات من القرآن الكريم ويقدم لهم الشاي، بعد ذلك يتناولون جماعة وليمة خاصة، وبمجرد الانتهاء منها، يقوم الطالب المتخرج بتقبيل رأس شيخه وبقية الفقهاء والشيوخ ووالدته وبدوره يقف الفقيه طالبا من الفقهاء والحضور الدعاء له بالصلاح والمزيد من التفوق وبالهداية في حياته، كما يدعو بالجزاء الحسن من الله تعالى لأهله الذين سهروا على متابعة مراحل تعلمه، وتحملوا تربيته وتعليمه حتى تخرج وأصبح حاملا لكتاب الله.

أما فيما يخص الهدايا التي كانت تقدم «لأمَحْضَارْ» غالبا ما تكون من نقود وثياب، وهناك من يقدم صدقة أو هدية لابنه عبارة عن حقل أو نخلة[1]، ونورد مضمون وثيقة في هذا الصدد:

1- الصورة رقم 22: وثيقة هدية وصدقة عائلة لابنها بمناسبة ختمه حفظ القرآن الكريم، من أرشيف الحسان بوغدا.

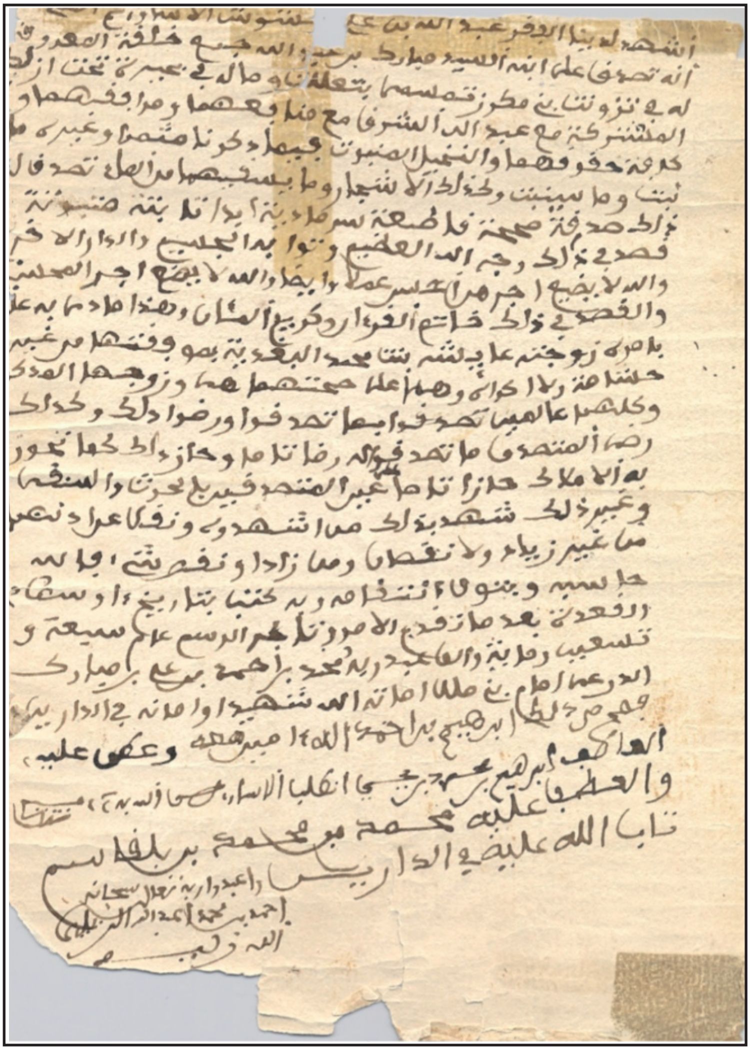

مضمون الوثيقة:

الحمد لله وحده وصلى الله.

أشهد لدينا الفقير عبد الله بن علي أحشوش الأساوي ثم المليلي أنه تصدق على ابنه السيد مبارك بن عبد الله جميع حقلته المعروفة له في توزونت بني مكرز تسمى بتعلان وماله في بحيرة تحت أزلك المشركة مع عبد الله الشرق مع منافعها ومرافقها وكافة حقوقهما والنخيل المنبوت فيما ذكرنا مثمرا وغيره. ما نبت وما سينبت وكذلك الأشجار وما يسقيها من الماء. تصدق له ذلك صدقة صحيحية قاطعة سرمادية أبدا ثابتة مثبوتة قصد في ذلك وجه الله العظيم وتوابه الجسيم والدار

الآخرة، «والله لا يضيع أجر من أحسن عملا»، وأيضا «والله لا يضيع أجر المحسنين» والقصد في ذلك ختم القرآن وكريم الشأن وهذا ما أدى به علي بأمره زوجته عائشة بنت محمد البغدية بموافقتها من غير حشمة ولا إكراه، وهما على صحتهما هي وزوجها المذكور وكلهما عالمين تصدقوا بما تصدقوا ورضوا ذلك وكذلك رضى المتصدق ما تصدقوا به رضى تاما وجاز ذلك كما تحوز به الأملاك حيازا تاما على غير المتصدقين بالحرث والسقي وغير ذلك. شهد بذلك من أشهدوه ونقل عن إذنهما من غير زيادة ولا نقصان ومن زاد أو نقص شيء فالله حاسبه ويتوق انتقامه.

وبه كتب بتاريخ أواسط ذي القعدة بعدما تقدم الأمر وتأخر الرسم عام سبعة وتسعين ومائة وألف (1197هـ).

عبد ربه محمد بن أحمد بن علي بن امبارك الدرعي، إمام بني ملل، أماته الله شهيدا وأصانه في الدارين، فصح من ذلك براهيم بن احمد أمين معه وعطف عليه العاطف ابراهيم بن محمد بن يحي الطلب الاساوي، والعطف عليه محمد بن محمد بن بلقاسم تاب الله عليه في الدارين.

عبد به تعالى سبحانه أحمد بن محمد أعبيد الله الله وليه.

وبخصوص الحفل فإنه يستمر في المساء حتى وقت متأخر وذلك بحضور فرقة «أحْوَايْشْ» لمشاركة العائلة أفراحها ونجاح ابنها. وفي حالة إعادة الطالب ختم القرآن الكريم للمرة الثانية، تقوم عائلته باستدعاء الفقهاء مباشرة إلى المنزل وتقدم لهم مأدبة عشاء يكرم فيها الفقيه والطالب، وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقليد ظل راسخا متوارثا في ذاكرة مجموعة من المناطق المغربية، الهدف منه تجسيد مظاهر الاحتفاء بحفظة القرآن الكريم، وتشجيع الأطفال على ذلك وشحذ همم الناس على البدل والعطاء تكريما «لإمَحْضَارْنْ»، ونشير إلى أن قصر أسا عرف بمجموعة من النساء الحافظات للقرآن الكريم.

هذه إذن معظم المراسم والعادات المرافقة لهذا العرس الديني المتميز، ونشير أنه مباشرة بعد نهاية حفل ختم أحد الطلبة للقرآن الكريم، يحصل «إمَحْضَارْنْ» على عطلة تشمل يوم الاحتفال واليوم الموالي، وجرت العادة في الكُتَاب أن يكون يومي الخميس والجمعة أيام عطلة بالنسبة للطلبة، وأن تقدم هدية أسبوعية كل أربعاء للفقيه «لْعَرْبَة»، وهناك عطل أخرى أو ما يعرف بـــ «لَعْوَاشِرْ»، منها في ذكرى عاشوراء «ثلاثة أيام»، ثم عطلة العيدين وعطلة ذكرى المولد النبوي الشريف.

ثانيا: «إِضْ نْ صَلّ»

ليالي صل؛ ليال دينية يتم إحياؤها بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، تمتد لإثنتي عشرة ليلة من هلال شهر ربيع الأول إلى ليلة العيد، خلالها يلتئم الفقهاء والساكنة وزوار وضيوف المنطقة،

لتلاوة الحزب الراتب جماعة[1]، وإنشاد أمداح نبوية «الهمزية والبردة»، تعظيما لهذه الليالي المباركة، ولمولد الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام، ومن بين ما يردده الجمع:

صَلّ يَا رَبّ صَلّ ثُمّ سَلّمْ

عَلَى مَنْ هُوَ لِلْخَلْقِ رَحْمَةٌ وَشِفَاءُ

وَعَلَى الأهْلِ وَالصّحَابَةِ جَمْعًا

وَعَلَى مَنْ لَهُ إلَيْكَ انْتِمَاءُ

إلى أخر الهمزية، ويقدم الطعام للفقهاء من طرف العائلات، ونشير إلى أنه قديما يتم إحياء هذه الليالي الدينية بمساجد القصر، قبل أن يتم نقلها إلى الزاوية، وتختتم في وقت متأخر بالدعاء الصالح للجميع.

ثالثا: «وَهَاوَادَا بَرْيَانُو»

عادة يحييها «إمَحْضَارْنْ» في ذكرى عاشوراء يجتمعون خلالها، للقيام بجولات بين منازل القصر لجمع الهبات والصدقات، وأثناء أدائهم لهذه العادة يرددون العبارات التالية:

وَهَاوَادَا بَرْيَانُو

تِفُلّوسِنْ تِكِيّاوِنْ

إلاّ كْرَا إغْدْ أورِلّي

إلاّ رَبّي سُبْحَانَهُ

نَتّانْ أيَزْكَانْ إدَاوَمْ

إلاّ لْخِيرْ إنّاتْ رَبّي

أوَا عَلَى مَا تَنْيَاكّانْ

بِيضَة بِيضَة لاَلّة

يَاتْ تَكْلاَيْتْ، سْنَاتْ

تِسَكْرَاتْ تِسَكّوسْتْ

تِينْ طّالَبْ مَسَايَغْ إتْرَا تِلْوَاحَنْغ

1- تلاوة القرآن الكريم بطريقة جماعية ومتميزة للفقهاء، تشكل جزءا هاما من التراث الديني بقصر أسا.

معنى ذلك: نحن «إمَخْضَارْنْ» نريد صدقة نقدمها للفقيه، لكي يكتب لنا الألواح، وهم يرددون هذه العبارات يحملون أعواد جريد النخيل الخضراء، إما دفاعا عن النفس، أو تماشيا مع ما تمت الإشارة إليه من أهمية التربية والأخلاق التي كان يتلقاها طلبة الكُتاب، حيث أنه عند وصولهم إلى إحدى المنازل، يضربون العتبات عوض ضرب الباب وفي ذلك عدم انتهاك لحرمات المنازل، وتقدم لهم العائلات الصدقات وهناك من النسوة من يقمن برشهم بالماء قاصدة من وراء ذلك هطول أمطار الخير والرحمة، وفي مقابل الصدقات التي يتلقاها أصحاب «وَهَاوَادّا بَرْيَانُو» يحملون معهم سَعَف النّخِيل، يصنعون منه قلادة تسمى «تِبَكّارِينْ»، تسلم لأفراد العائلة كهدية للأطفال الصغار قصد التبرك.

إن الهدف من «وَهَاوَادّا بَرْيَانُو» هو لمّ شمل الطلبة وسعيهم دائما نحو التكتل إلى جانب الفقيه، باعتباره السند الحقيقي في توجيه سلوكهم ومسارهم التعليمي، فضلا عن الاحتفال بذكرى عاشوراء، وعند الانتهاء من جمع الصدقات تنظم وليمة جماعية «لْمَعْرُوفْ» داخل المسجد، تختتم بالدعاء الصالح للجميع، كما يرجى منها طلب الغيث والدعاء لذلك.

رابعا: «يَا الله يَا رَحْمَان يَا الله يَا رَحِيمْ»

من العادات المرتبطة بالجانب الديني التي ينفرد بها قصر أسا، يتم إحياؤها خلال شهر رمضان، تحديدا الثالث والعشرون منه، وذلك للأهمية التي تحضى بها الأيام العشر الأواخر من هذا الشهر الفضيل، سواء عند المسلمين بصفة عامة، وساكنة قصر أسا بشكل خاص، أما عن المراسم التي تميز إحياء هذه العادة، فمباشرة بعد صلاة الصبح يلتقي جميع الفقهاء والشيوخ والشباب، يتوسطهم الأطفال حاملين ألواحا تضم آيات بينات من الذكر الحكيم، مكونات «إدَاوْمَلّيلْ» يلتئمون بالقرب من الولي الصالح مولاي ابراهيم، في حين يجتمع «إدَاوْنْكِيتْ» عند مسجد سيدي عيسى بن صالح، فتبدأ مراسم الاحتفال مشيا على الأقدام، ويردد الجميع العبارات الدينية التالية[1]:

يَا الله يَا رَحْمَان يَا الله يَا رَحِيم

1- أنظر الصورة رقم 23.

الصورة رقم 23: مشهد من «يَا الله يَا رَحْمَانْ يَا الله يَا رَحِيم». من أرشيف مصطفى أنشاد (07 يناير 2005)

يلتقي الجمعان بالقرب من الولي الصالح مولاي ابراهيم، ليبدأ المسير داخل القصر وبالقرب من الأولياء المتواجدين بداخله وبالمقبرة والزاوية، ترفع أيادي الجميع إلى السماء رجاء من الله عز وجل أن ينعم على الجميع برحمته والدعاء بالرحمة والغفران لجميع موتى المسلمين والمسلمات، ثم بعد ذلك يتوجه الجميع إلى مقر الزاوية لتلاوة آيات من الذكر الحكيم، سورتي «يس» و«الملك»، ثم الختم بالدعاء الصالح للجميع.

يستمر الموكب في ترديد العبارات الدينية السابقة إلى أن يصل مكونات «إدَاوْنْكِيتْ» إلى مسجد سيدي عيسى بن صالح، ويجلسون بباحته، في حين يواصل «إدَاوْمَلّيلْ» المسير في اتجاه مسجد «إدَاوْمَلّيلْ» وتحديدا «إمِي نْ تِمَزْكِيدَا»، قرب المسجد في أجواء مترعة بالخشوع والابتهال مرددين العبارة الدينية السابقة، وتقدم الهدايا لكلا الطرفين كل في مكانه، من نقود وتمر وسكر وخبز ودقيق و»تِرُوفِينْ» وغيرها، من طرف النساء والرجال والأطفال، القصد منها الزيارة والتبرك ببركة هذا الشهر العظيم، وتحديدا هذا اليوم السعيد ويوزع السكر والنقود على الفقهاء والتمر والخبز على الأطفال وجميع الحاضرين.

ومن العادات التي تستحضرها الذاكرة الشعبية أنه خلال الانتهاء من «يَا الله يَا رَحْمَان يَا الله يَا رَحِيم»، فإن التمر الذي يتسلمه الحاضرون يُحتفظ به إلى يوم عيد الفطر للإفطار به في الصباح الباكر، بحيث تلح الذاكرة الشعبية على ضرورة الإفطار به باكرا «سبع تمرات» قبل تناول وجبة الفطور، القصد من ذلك؛ التبرك أو ما يعرف محليا بـــ «زِيَارَتْ»، ومن بين التقاليد التي ترافق هذه الظاهرة أيضا؛ أن هناك بعض النساء من تأتي بطفلها ممن يعاني مرضا أو كربة من كرب الدنيا، إلى بين يدي الفقهاء «لْكُورْ»، حيث تُتْلَى عليه آيات من الذكر الحكيم، ثم بعض الأدعية بالشفاء، ويعتقد أن المريض سيشفى ببركة هؤلاء الفقهاء وهذا اليوم السعيد، ولا تخلو أجواء «يَا الله يَا

رَحْمَان يَا الله يَا رَحِيم» من تبادل عبارات التسامح وإصلاح ذات البين والدعاء الصالح للجميع، وأن يتقبل الله الصيام والقيام والرحمة والغفران لجميع العباد الأحياء منهم والأموات وأن ينزل شآبيب رحمته على عباده الصالحين، ليضرب الموعد في السنة المقبلة: «أدَانْغْ إكْ رَبّي دْ إينَكَانْ نْ إمَالْ»، نرجو الله تعالى أن يجعلنا من شهود المرحلة المقبلة.

يتمثل الهدف الأساس من إحياء «يَا الله يَا رَحْمَانْ الله يَا رَحِيم»، في إبراز الأهمية الكبيرة التي يوليها سكان قصر أسا للأيام العشر الأواخر من شهر رمضان الأبرك، فضلا عن التواصل والتسامح وصلة الرحم بين عموم الساكنة[1].

الصورة رقم 24: مشهد من «يَا الله يَا رَحْمَانْ يَا الله يَا رَحِيم». من أرشيف مصطفى أنشاد (07 يناير 2005)

الصورة رقم 25: مشهد من «يَا الله يَا رَحْمَانْ يَا الله يَا رَحِيم». من أرشيف عبد الجبار إحشاش (07 يناير 2005)

1- أنظر الصورتين رقم 24 و25.

خامسا: «لَحْضَرْة»

«لَحْضَرْة» من بين العادات التي ترافق يوم «يَا الله يَا رَحْمَان يَا الله يَا رَحِيم» كما في الأعياد والأيام الأخرى، حيث تجتمع نساء قصر أسا في مكان داخل الزاوية «أحَانُو نْ زَاوِيتْ»[1] بيت الزاوية ويقمن برقصة تسمى «لَحْضَرْة» يرددن خلالها مرددات وأمداح، يستمر ترديدها إلى درجة أن هناك بعض النساء يغمى عليهن من شدة التأثر بها[2]، ومن بين هذه المرددات:

اللـه اللـه إغ فَــــلاّغْ	إلاَ أزْرُ و دِيـــفْـرِيـكْ
نَتُ ـو دُونِـيـــــتْ أولاَ	مَـا كِيـسْ إلاّنْ أيَـا حْبِيـبْ
أبُـوِيَ ـا لْـعِـينْ إفَـاضْ	غِـيمِ ـي نْ زّاوِيـــتْ أسَـا

معنى ذلك: أنه إذا توفي الإنسان ووُرِي جثمانه الثرى، سينسى الدنيا وما فيها ولن يتبقى له إلا ما فعل من خير، يا الله نطلب مغفرتك، فأعيننا هناك بالقرب من زاوية أسا تفيض دموعا، نرجوا مغفرتك وثوابك يا غفور يا رحيم.

سادسا: العادات والتقاليد المرتبطة بشهر رمضان بقصر أسا

ربما اجتماع العائلات بقصر أسا يكون بشكل يومي حول مائدة الطعام، إلا أن ذلك يزداد دفئا وحميمية خلال شهر رمضان الأبرك، باعتباره من المناسبات الدينية التي تكتسي طابعا خاصا، وذلك بالنظر لما يميزه من عادات وتقاليد تخيم على أجواء القصر طيلة الشهر الفضيل.

عادة ما يتم التحضير لهذا الشهر الكريم قبل حلوله بأيام، حيث تعمل الأسر على توفير كل المستلزمات المتعلقة بالوجبات الغذائية المتنوعة المعتادة في هذا الشهر، وقبل موعد صلاة العصر تفوح رائحة الأطعمة من المنازل لتعم جميع الأزقة والدروب، وعادة ما تكون مائدة الإفطار مكونة من «أسَكّيفْ» الحريرة، وأنواع مختلفة من التمور، والسمن المنزلي المستخرج من حليب الغنم أو البقر والخبز «تَحْكُوكْتْ نْ تَكَاتْ»، وفي وجبة العشاء يتم تحضير «طَاجِينْ» أو الكسكس بـ «ابْرْوَاكْنْ»، فيما يعتبر السحور واحدا من الوجبات التي توليها الساكنة عناية خاصة.

كما شكل شهر رمضان مناسبة لإحياء مجموعة من العادات والتقاليد، ففي أجوائه الروحانية يتم إحياء صلة الرحم، ويحرص الرجال والنساء على أداء الصلوات الخمس وصلاة التراويح في المساجد، فضلا عن تلاوة وحفظ القرآن الكريم، وفيه تزداد طقوس العبادة خاصة في النصف الثاني، والعشر الأواخر وليلة القدر المباركة، كما تستغله النساء ليجتمعن في إحدى المنازل لصناعة الأدوات

1- «أحَانُو نْ زّاوِيتْ»: بيت الزاوية مرفق مخصص لتخزين حاجيات الساكنة، تمت إزالته خلال أشغال ترميمها.

2- رواية شفوية: المرحومة فاطمة تبهات، من ساكنة قصر أسا، 63 سنة، بتاريخ 2002/02/14.

والأواني التقليدية من سعف النخيل، يُبْرِزن من خلالها مهاراتهن اليدوية، أما الرجال فيغتنمون الوقت للعمل واستصلاح الحقول.

وتجدر الإشارة إلى أنه في ليلة السابع والعشربن من رمضان، تحتفل الساكنة بـ «إضْ نْ تْفْلَّنْ»، وهي عادة اجتماعية يتم فيها إعداد طبق أو طبقين من الكسكس، ويتم حمله إلى منزل العائلة الكبيرة حيث يلتئم الجميع بحضور الجد والجدة والأبناء والأحفاد لتناوله بشكل جماعي، في أجواء عائلية تسعى لتقوية الروابط الأسرية. وبهذا لا يزال شهر رمضان، بأجوائه الدينية والإيمانية الروحانية وطقوسه الخاصة لدى ساكنة قصر أسا، متميزا ومحافظا على العديد من هذه التقاليد والعادات باستثناء بعض الأطعمة التي انقرضت وحلت محلها أخرى جديدة ومواكبة للعصر[1].

سابعا: العادات والتقاليد المرتبطة بعيدي الفطر والأضحى بقصر أسا

في ذاكرة من استجوبناهم الكثير من صور وملامح وعادات وتقاليد عيدي الفطر والأضحى، محفورة في الوجدان الجمعي لساكنة قصر أسا، لازالت نفحاتها الربانية الإيمانية تفوح من منازل وأزقة ودروب القصر، في اتجاه «لَمْصَلّا»، حيث تلتقي جموع المصلين لأداء الصلاة والإنصات لخطبة العيد، في أجواء متميزة تكاد تشكل القاسم المشترك في عموم بلاد المسلمين، لكن بخصوصيات متمايزة بقصر أسا.

اعتادت ساكنة قصر أسا بدء الاحتفالات بالعيدين قبل حلولهما بأيام، من خلال الاستعدادات لشراء المستلزمات، وإعداد الأطعمة والملابس الجديدة خاصة للأطفال والنساء ونظافة البيوت والأزقة. ففي عيد الفطر وقبل بزوغ شمسه أي قبل أداء الصلاة، توزع زكاة الفطر «تِلْفَطْرِينْ» على الفئات المحتاجة، وعادة ما تكون من قوت أهل البلد كما هو منصوص عليه في الدين الإسلامي. وغالبا ما تتكون من القمح أو الشعير أو الدرة وغيرها.

أول ما يتم الإفطار به في صباح يوم العيد هو التمر الذي تم الاحتفاظ به منذ الثالث والعشرين من رمضان، يوم «يَا الله يَا رَحَمَانْ يَا الله يَا رَحِيم»، بعد ذلك يرتدي الرجال والأطفال أجمل الثياب ويتعطرون بالطيب، ابتهاجا بهذا العيد السعيد، ويتجهون صوب «لَمْصَلّا»، وفي انتظار التحاق عموم المصلين، يردد الجميع المرددات التالية:

سُبْحَانَ الله وَالْحَمْدُ لِله وَلاَ إِلَهَ إلاَ الله

الله أكْبَر الله أكْبَر الله أكْبَر

ولله الحَمْد عَلَى مَا هَدَانَا

1- من بين هذه الأطعمة: «تَحْكُوكْتْ نْ تَكَاتْ»، «بُوفِي وَاسَكْسُو» وغيرها.

اللّهُمَ اجْعَلْنَا لَكَ مِنَ الشّاكِرِينْ

بعد أداء الصلاة والإنصات لخطبة العيد، يتصافح المصلون ويبارك بعضهم البعض العيد في أجواء احتفالية دينية متميزة، يكتمل فيها مشهد الفرح بانتشار رائحة الكسكس الذي تعده نساء قصر أسا، حيث جرت العادة أن يتم إعداد «تِزْلَاَفِينْ نْ طْعَام» من طرف عائلات: «إدْ حْمَادْ» و«إحْشَاشْ» عن «إدَاوْمَلّيلْ» و«إدْ بِيجّانْ» و«إهَرّاسَنْ» عن «إدَاوْنْكِيتْ»، تقدم لجموع المصلين، الغاية منها مشاركتهم فرحة العيد، وفي طريق العودة إلى المنازل يتم تبادل التحايا والتهاني، وبعد ذلك تليه زيارات الأهل والأقارب والجيران والأصدقاء، إحياء لصلة الرحم وتقوية للروابط الأسرية، وطلبا للأجر والثواب، ويأمل الجميع حضور الموعد المقبل في السنة الموالية: «أَرْ إمَالْ».

ثامنا: العادات والتقاليد المرتبطة بالحج بقصر أسا

قديما يستغرق الذهاب إلى الحج وقتا طويلا، وكان ذلك من الصعوبات الكبيرة التي وقفت حاجزا أمام العديد من الراغبين في أداء هذا الركن العظيم من أركان الإسلام الخمسة، خاصة في المناطق البعيدة والمعزولة. عاشت ساكنة قصر أسا هذا الوضع كباقي المناطق الأخرى، لكن ذلك لم يمنع العديد من رجالاته من زيارة هذا المكان المقدس وأداء مناسك الحج، ولا زالت الذاكرة الشعبية[1] تتذكر أسماء بعض الحجاج الذين انتقلوا في ذلك الوقت على الدواب، واستغرق ذلك شهورا وأياما عديدة، مما جعل عودتهم لأهاليهم مطبوعة بالشوق والانتظار.

بعودة أقارب العائلات من المقام المقدس سالمين، وأدائهم مناسك الحج، تستقبلهم العائلات والأهل والأصدقاء بالترحاب والتبريك، فكانت العائلات تزين مداخل أبواب المنازل بسعف النخيل والأعلام الوطنية فرحا وابتهاجا بقدوم الحاج، وتتوالى وفود الزوار والمهنئين من الرجال والنساء، واعتاد الرجال التحلق حول الحاج ليحكي لهم تفاصيل رحلته الصعبة، ووصف أجواء الحج جميعها، وجرت العادة أيضا أن يقتسم الحاج بركة هذا المكان الطاهر مع الأهل والأصدقاء وكل المهنئين، من خلال توزيع بعض الهدايا عليهم، كالسواك، البخور، السبحة «جمع سبحات»، قطع الأثواب، التمور، وماء زَمْزَم، وفي ذلك توثيق لأواصر المحبة والأخوة التي تجمع الساكنة ويتم إعداد وليمة خاصة بالمناسبة يستدعى لها الفقهاء والأهل والجيران.

تختلف عادات وتقاليد استقبال ضيوف الرحمان عند عودتهم لأهاليهم من منطقة لأخرى، إلا أنها تتوحد في إبراز مظاهر الاحتفاء والغبطة والسرور بالحاج بعد أدائه لمناسك الحج وعودته سالما غانما إلى أهله وذويه.

1- رواية شفوية، الحسين بن مولود بن عبد الجليل أحشوش، 56 سنة، من أعيان قبيلة آيْتْ أسا، بتاريخ: 2017/06/22.

تاسعا: العادات والتقاليد المرتبطة بعيد الأضحى بقصر أسا

أجواء الفرح والابتهاج بعيد الفطر نفسها يعرفها عيد الأضحى، غير أنه يتميز بذبح أضحية العيد «الخروف»، وتحرص العائلات بقصر أسا على تسمين الأضحية والعناية بها كل سنة، وبعد أداء الصلاة والإنصات للخطبة مباشرة، وتناول «تِزْلَاَفِيْنْ لْعِيدْ» يعود الجميع إلى منازلهم، ليتم الشروع في ذبح الأضحية وسط أجواء عائلية متميزة، ولا يتم ذلك إلا بعد أن يذبح الفقيه أضحيته بالقرب من «لَمْصَلّا» وتجدر الإشارة إلى أنه عند حلول عيد الأضحى تعمل ربة البيت على طلي مقدمة رأس كبش الأضحية بالحناء وقبل ذبحها يوضع قليل من أوراق الحناء والزرع وقليل من الملح في فمها، اعتقادا بأن يكون الموسم الفلاحي جيدا وأملا في جلب البركة والتفاؤل والخير.

واعتادت بعض الفخدات داخل القصر على عدم تقطيع لحم الأضحية حتى اليوم الموالي، وهناك من العائلات من تؤجل ذلك إلى اليوم الثالث، وجرت العادة عند عائلات أخرى، الاحتفاظ بكتف الأضحية الأيمن، حتى ليلة ذكرى عاشوراء، تعد منه وليمة بالكسكس تسمى «تِيفَلّانْ» يتحلق حولها أفراد العائلة، وبعد تناول الوجبة يشترط ألا تكسر عظام ذلك الكتف، فيتم وضعها في إناء مملوء بالماء حتى الصباح، ترش به جميع أركان المنزل، أما العظام فيتم تخضيبها بالحناء وتعلق في مكان معين داخل المنزل، وترى الذاكرة الشعبية أن القيام بهذه الممارسات سيجلب الخير والرحمة والتبرك ببركة عاشوراء للعائلة وإبعاد كل ما هو ضارعنها.

عند ذبح أضحية العيد، يتم التخلص من كل بقاياها، باستثناء ما يعرف بــ «إزِي» «المرارة Vésicule Biliaire»، فإن وجد الكيس مملوءا يقال: «إعَمّرْ أخْزَانْ» أي امتلأ الكيس، وفي ذلك اعتقاد بأن محصول السنة الزراعية سيكون جيدا، والعكس إن وجد فارغا يقال: «إخْوَا أخْزَانْ»، اعتقادا بأن المحصول سيكون ضعيفا.

عاشرا: ظاهرة «إمَعْشَارْنْ»

عرف المغرب منذ عهود قديمة، استقرارا لتجمعات بشرية مختلفة وثنية ومسيحية ويهودية هذه الأخيرة استطاعت أن تحقق التعايش مع السكان المستقرين، كما شكلت القصور نقط التقاء تمر عبرها القوافل التجارية، وقد نتج عن ذلك أن نشأت علاقات اجتماعية طيبة بين سكان القصور والوافدين بمختلف انتماءاتهم الدينية والاجتماعية، خاصة التجمعات البشرية اليهودية التي تشكلت من مجموعة من التجار اليهود الوافدين إلى قصر أسا من مناطق مجاورة كإفران، كلميم، تغجيجت وغيرها في إطار المعاملات التجارية.

اتسمت علاقة سكان قصر أسا مع اليهود التجار بالتسامح والتعاون والاحترام، فكانوا مندمجين ومتمتعين بحقوقهم، وعاشوا على قدم المساواة مع السكان، فنتج عن ذلك عملية التأثير

والتأثر، كان لها حضور قوي في ثلة من الطقوس الفرجوية، احتفظت الذاكرة الشعبية المحلية بمجموعة منها، لعل أبرزها ظاهرة «إمَعْشَارْنْ».

تعتبر ظاهرة «إمَعْشَارْنْ» من الظواهر الاجتماعية الفرجوية المميزة للجنوب المغربي بصفة عامة، قصر أسا بصفة خاصة، وهي ظاهرة ثقافية تتقاطع مع بعض المظاهر المسرحية ذات الصبغة الفرجوية والاحتفالية[1]، وتعرف مدن المغرب ظواهر أخرى تماثلها أو على الأقل تتقاطع معها في مجموعة من الخصوصيات مثل ظاهرة «بُوجْلُودْ»، «إصَوّابَنْ»، «إسَمْكَانْ»، «بُويَلْمَاوْنْ»[2] وغيرها، كلها ظواهر ثقافية فكرية تنفرد بخصوصيات خاصة، إلا أن ما يجمعها أنها ليست وليدة إبداع خاص وإنما هي إبداع عام يشارك الجميع في خلقه[3].

«إمعشارن» ظاهرة اجتماعية، تبرز فيها ملامح الفرجة الجماعية من خلال الفعل والحركة الإنسانيين تجاه الطبيعة والحياة، فماذا إذن عن الوصف المورفولوجي لهذه الظاهرة؟ وما هي الأبعاد والدلالات التي تحملها؟

تبتدئ مراسم الاحتفال بظاهرة «إمَعْشَارْنْ» في اليوم الخامس عشر من عاشوراء، وقبلها في الخامس منه تفتتح بشكل فرجوي آخر يعرف بــ «تِيوِيوِينْ»، من أداء مجموعة من الرجال يرتدون ملابس نسائية سوداء اللون ويتزينون بحلي خاصة ويتنكرون تحت اللون الأسود، مما يصعب معه التعرف عليهم ويقومون بجولات بين منازل القصر لجمع الصدقات والهبات طيلة ثلاث ليال، لا تخلو من مظاهر الفرجة والاحتفالية، وفي الليلة الرابعة يجتمعون بإحدى المنازل لتناول وليمة يحضرها جمهور غفير من فرقة «إمَعْشَارْنْ» والمدعوون من الرجال والنساء[4].

بعد الانتهاء مباشرة من «تِيوِيوِينْ»، تبدأ الطقوس الفرجوية «لإمَعْشَارْنْ» بالاستعداد لها في أماكن خاصة لا يعرفها إلا الأفراد المشاركون، وتستمر لمدة ثلاث ليال ابتداء من ليلة ذكرى عاشوراء، ويصل عددهم إلى حوالي سبعة عشر فردا، تتوزع أدوارهم بين الأساسية والثانوية وهم كالتالي:

✓ «لَحْزّابْ»: يتولى مهمة تنظيم الشؤون الداخلية للأفراد المشاركين، فتصدر منه عبارات يصعب فهمها، يرددها الأفراد الآخرون، وأهم ما يميزه عنهم أنه يحمل عصا طويلة يَدُك بها الأرض، وضرباته هي المحددة للاتجاه الذي سيسير فيه الآخرون، وعن أهم الملامح المميزة لشخصيته أيضا، أنه يرتدي ملابس مخالفة تماما لملابس البقية وله لحية طويلة ويحمل «تَسْبِيحْ كَبِيرْ» وبذراعه حقيبة يحمل بداخلها كتابا يقرأ فيه بعض العبارات عند تسلمه للصدقات أو ما يطلقون عليه «لَعْشُورْ».

1- مقال ظاهرة بوجلود، جريدة الأحداث المغربية، العدد: 144.

2- تجدر الإشارة إلى أن:»بُوجْلُودْ»، «إصَوّابَنْ»، «إسَمْكَانْ»، «بُويَلْمَاوْنْ» يتم الاحتفال بها خلال عيد الأضحى في حين ظاهرة «إمَعْشَارْن» بقصر أسا يتم الاحتفال بها في ذكرى عاشوراء.

3- مقال ظاهرة بوجلود، جريدة الأحداث المغربية، مرجع سابق.

4- رواية شفوية، عيدا بن محمود بن امبارك الأساوي، فلاح وفاعل جمعوي، 57 سنة، بتاريخ: 17 أبريل 2017.

✓ «شَمْعُونْ»: وهو شخصية مهمة داخل الفرقة، يقوم بأعمال مختلفة لا تقل أهمية عما يقوم به «لْحَزّابْ»، ويشكلان عضد «إمَعْشَارْنْ»، وبدونهما لا تستقيم الفرقة.

✓ «سْمِيحَة»: زوجة «لْحَزَابْ»، يلعب دورها رجل يتزين بزي النساء، يتولى الاتصال بالنساء ومغازلتهن كي يحصل منهن على الهدايا والصدقات، ومن بين الأدوار الأخرى التي تؤديها سميحة أنها تأتي وراء «لْحَزَابْ» أثناء أداء الفرقة لطقوسها الخاصة.

✓ بقية أفراد الفرقة: ويطلق عليهم «أودَايْنْ» وتقابله بالعربية اليهود، ومهمتهم ترديد ما يقوله «لْحَزَابْ» من كلام ومرددات غالبا ما تكون فاحشة وبطريقة غامضة وملتوية.

أما «إنَكْفَارْ»، تتوزع مهامهم بين الحراسة وتنظيم الشؤون الخارجية للفرقة كمنع اختلاط المتفرجين بها وجمع الهدايا وغير ذلك.

ويعد الحمار أهم الحيوانات التي تسترعي اهتمام «إمَعْشَارْنْ»، يستعمل لحمل «لَعْشُورْ» والصدقات المقدمة من طرف السكان، كما يلعب دورا هاما في الفرجة، هذا وتجدر الإشارة إلى أن الإحتفاء بـ «إمَعْشَارْنْ» قديما يتم عبر تنظيم جولات داخل أسوار القصر، بعد ذلك وبفضل أولى المبادرات الجمعوية تم تحديد ساحة خاصة لهذا الأمر داخل القصر قرب الولي الصالح مولاي ابراهيم، حيث تتوافد إليها جموع المتفرجين من نساء ورجال وأطفال.

وإذا كان زي «لْحَزّابْ» شبيه بزي اليهود، فإن بقية أفراد الفرقة يختلف زيهم من فرد لآخر، ويرتدون أقنعة يتم صنعها من جلود الحيوانات، يصعب معها التعرف عليهم في الحفل، لدرجة أنه يتم الاحتفال بهذه الظاهرة دون معرفة أغلبية الأفراد الذين شاركوا فيها، مما يجعلها تحضى بالمزيد من مظاهر التشويق والإثارة والفرجة، الأمر الذي يدفع بالمتفرجين إلى بدل قصارى جهودهم سواء أثناء الاحتفال أو داخل البيوت من أجل التعرف على المشاركين، وعند نهاية كل ليلة من ليالي الظاهرة الفرجوية ينظم حفل خاص بإحدى منازل القصر.

إلى هنا ينتهي الوصف المورفولوجي لهذه الظاهرة، التي من الصعب حسب الذاكرة الشعبية المحلية تحديد تاريخ تنظيمها. وعن أبعادها ودلالاتها، فهناك من ربطها بما كانت تعرفه الأمم والشعوب، بما له من صلة بالاعتقادات الطوطمية كالشعوب البدائية التي واجهت تحديات الطبيعة بردود فعل نفسية وذهنية، تولدت عنها احتفالات ذات نزعة فرجوية، في حين ربطها محللون آخرون بالحياة الإنسانية في عهدها الأول حيث أن الإنسان يحتك احتكاكا مباشرا بمحيطه الطبيعي ويحاكي الظواهر الطبيعية، كما يقلد الحيوانات التي يراها مصدر خير له، أو ليتقي شرها، ولذا فهو يميل إلى هذه المحاكاة تقريبا وتقربا من الظواهر الطبيعية[1].

1- مقال ظاهرة بوجلود، جريدة الأحداث المغربية، مرجع سابق.

أما الذاكرة الشعبية المحلية، فقد ربطت ظاهرة «إِمَعْشَارْنْ» بالوجود اليهودي بقصر أسا قديما، وبالاعتقادات التي كانوا يمارسونها وهناك من ربطها بالتأثير والتأثر بثقافات قديمة أخرى وفدت إلى المنطقة في إطار التبادل التجاري، عموما تبقى هذه الظاهرة جزءا لا يتجزأ من الطقوس والعادات والتقاليد المميزة والمتجدرة في التراث اللامادي لقصر أسا.

المبحث الثالث: العادات والتقاليد المرتبطة بالمواسم الزراعية بقصر أسا

منذ أن نشأ الإنسان وهو ويحاول التأقلم مع الطبيعة من أجل الاستفادة من خيراتها، لتحقيق أغراضه وضمان أمنه ووجوده واستقراره، فكان النمط الواحي بخصوصياته الاجتماعية بداية السعي الحقيقي لإنسان الواحة للتكيف مع الظروف الصعبة والقاهرة المحيطة به، والامتثال لعادات وتقاليد ونظم اجتماعية مكنته من الحفاظ على حياته وممتلكاته، في ظل متطلبات اجتماعية مرتكزة على تدبير المعيشة وتأمينها ومواجهة تقلبات الطبيعة، ونشدان الماء والمراعي، وفي هذا الإطار ولتحقيق هذه الضروريات الحياتية، مارس إنسان قصر أسا العديد من التقاليد والعادات.

أولا: «تِيوِيزِي» أو العمل الجماعي

ارتكزت الحياة الاجتماعية بقصر أسا، على الفلاحة كمصدر أساس للعيش، لذلك تعاون السكان فيما بينهم من أجل تهييء مجالهم وتمهيده للاستغلال الزراعي، فكانوا مجبرين على إنجاز الأشغال الكبرى التي لا يستطيع الفرد القيام بها، وكان لضخامة هذه الأشغال أن تم التفكير في شكل «تِيوِيزِي».

«تِوِيزِي» من العادات الأمازيغية الأصيلة المنتشرة بالعديد من مناطق المغرب، وهي عمل جماعي مبني على التضامن والتعاون والتكافل بين الأهل والأقارب والجيران، بشكل تطوعي ينخرط فيه الجميع من رجال ونساء وشباب وأطفال بهدف إنجاز أعمال تخدم المصلحة العامة أو الخاصة للساكنة.

حضيت عمليتي «أَدْوَالْ» و«تِوِيزِي» باهتمام كبير من طرف ساكنة قصر أسا، وحملت أبعادا ودلالات عميقة، ساهمت بشكل كبير في تقوية وتماسك مكونات القصر، وكرست ثقافة التعاون والتعاضد فيما بينهم عند القيام بمختلف الأشغال، وتجسدت مظاهرها في العديد من المناسبات؛ في الأفراح كما الأتراح، عند العمل في الحقول وخلال موسم الحصاد، وأيضا فيما يعرف محليا بـ «رْوَا»، وجني المحاصيل أو بناء منشأة معينة وحفر الآبار وغيرها، ومن أبرز مظاهرها عند النساء أعمال النسيج وغسل الصوف وحياكة الزرابي وغيرها، حيث تتعالى الأغاني والأهازيج التي تحث على الحيوية والنشاط وشكر الله على ما أنعم به عليهم، ويحرص صاحب «تِوِيزِي» على إعداد وليمة خاصة للمتطوعين، ولعل أرقى شكل تجسدت فيه «تِوِيزِي» عند فتيات ونساء قصر أسا موسم «قطف الحناء» أو ما يعرف محليا بـ «أَشْمُوكْ لْحَنّا».

ثانيا: «أشْمُوكْ لْحَنّا»: قطف الحناء

تمر عملية «أشْمُوكْ لْحَنّا»[1] أو قطف الحناء في أجواء متميزة، ترافقها عادات وتقاليد خاصة، وقبل الخوض في ذلك نشير إلى أن عملية القطف هذه إما أن تقوم بها النساء المتزوجات فقط أو الفتيات بمعية الشبان، بحيث يعمل صاحب المحصول باستدعائهم إلى الحقل «تَاغُولْتْ»، وعند حلول الموعد يلتقي الشبان والفتيات في المكان المحدد، وتبتدئ مراسم قطف الحناء، بحيث يجلس الشبان متقابلين مع الفتيات، ويبدأ القطف في جو من الفرح والحماس، وترديد أهازيج أمازيغية :

إغْلِيدْ الرّيحْ إزُوزْوَانْ

أوَادْ إغْرَانْ إوَاضُو

زُوزَرْ أخُويَا السَنْبْلِ

معنى ذلك: هبت نسيم الرياح العليلة، يا من نادى على هذا النسيم، هيا ففي هذه الأجواء يحلو قطف الحناء. فيها أيضا يحلو للشباب ترديد مقاطع شعرية بالمناسبة، وبينما ينهمك الجميع في عملية القطف، يقوم شاب بتوزيع التمر على المشاركين لتزداد لذة وحلاوة العمل الجماعي هذا، والمطبوع بالاحتفالية المزدوجة أولا بشكل «تِيوِيزِي» وهي مناسبة للتعارف والتعاون والتعاضد وثانيا لأهمية المحصول الذي تم قطفه وتسليمه لصاحبه وتهنئته، والذي لا يتوانى عن تقديم الشكر الجزيل لكل من شارك في عملية «تِيوِيزِي».

الصورة رقم 26: «أشْمُوكْ لْحَنَا». من أرشيف جمعية قصر أسا (23 نونبر 2008)

1- أنظر الصورة رقم 26.

ثالثا: «بَلْغُنْجَا»

تعد الأرض مركز النشاطات الفلاحية في مجتمع قصر أسا، وترتبط بها حياة الناس بشكل كبير، وتشكل بذلك وحدة إنتاجية اجتماعية أساسية، فالقروي كما عبر عن ذلك حليم بركات يعتبر حتى أعماق لا وعيه «أن الكرامة في الأرض». إنها مورد رزقه ومصدر طموحاته وآماله ومكانته، ومحور علاقاته، ومقر جذوره في الحياة والممات[1]، لذلك ارتبطت ساكنة قصر أسا بالأرض ارتباطا وثيقا، وتعد الزراعة أهم مورد ونشاط حيوي للساكنة، والتي تعتمد على الأمطار السنوية، وأن قلة سقوطها أو تدبدب أوقاتها يؤثر في كمية الإنتاج الزراعي فتجدهم يفكرون في خطورة الأمر، ولا غرابة إذن عندما تجدهم ينتظرون عند بداية موسم الحرث تهاطل الأمطار، فيغلب على حواراتهم ونقاشاتهم طلب المطر «أدَاغْدْ إرْحَمْ رَبِّي» أي ليرحمنا الله برحمته، وموازاة مع ذلك ترى أنظارهم تتجه نحو تحركات السحاب ويتجاذبون أطراف الحديث حول إمكانية سقوط الأمطار من عدمها.

إلا أن قلة أو انعدام هذه التساقطات، تجعل الناس يستشعرون خطورة الأمر، الشيء الذي يدفعهم إلى أداء مجموعة من التقاليد والعادات المستمدة من حياة القرية الزراعية، ليبقى الهدف الأساس منها هو التقرب إلى الله لنيل عطفه ولطفه، من هنا إذن نتساءل لماذا الإنسان القروي مولع بالماء والمطر حتى التعبد؟[2].

أورد ألفريد بيل Alfrid Bel أن بعض قبائل الزولو بإفريقيا لازالت تعبد السحاب، ويعتقدون أن الماشية ترعى من طرف رعاة من السماء بطريقة سحرية وبإمكانهم جمع السحب وتوجيهها إلى حيث يريدون[3].

كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ للأرض قيمة وأهمية كبيرتين في حياة سكان قصر أسا، بل هي قيمة القيم في حياة الفلاح القروي، إنها جذوره ومورده ومقره الأخير وانبعاثه، هو غني بها وفقير بدونها[4]، لذلك ومن أجل بعث وتجديد الحياة فيها لجأ إنسان قصر أسا إلى ممارسة مجموعة من الطقوس، بهدف استنزال المطر، منها «بَلْغُنْجَا»[5].

1- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مرجع سابق، ص: 79.

2- المرجع نفسه، ص: 85.

3- Alfred Bel, «Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les musulmans maghrébins», in Recueil de mémoire et de textes publiés en l'honneur du XIV Congrès des Orientalistes, Alger, Fontana,1905, p: 309.

4- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مرجع سابق، ص: 85.

5- أنظر الصورة رقم 27.

الصورة رقم 27: «بَلْغُنْجَا». من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

قبل الحديث عن كيفية ممارسة «بَلْغُنْجَا»، نتعرف عن السر في تسمية «بَلْغُنْجَا»، والطريقة التي يمارس بها، وماذا عن حدود الالتقاء والتقاطع بين «بَلْغُنْجَا» والطرق أو التقاليد الأخرى المستعملة في الاستمطار في بعض المناطق الأخرى؟

«أَغْنْجَا» أداة مصنوعة من الخشب بأحجام مختلفة، تستعمل لحمل الطعام، كما تستعمل في إعداد بعض الأطعمة المحلية كـ «تَكُلاَ»، «أَسَكّيفْ»، «سَكْسُو» وغيرها. عند الاحتفال بظاهرة «بَلْغُنْجَا» خلال أواخر فصل الصيف، تأخذ إحدى النساء المعروفات «تَنَفْلُوسْتْ»، «أَغْنْجَا» على شكل عمودي وتضع عصا أخرى تتقاطع معه بشكل أفقي من الجهة العليا ليكون شبيها باليدين، يتم تزيينه بأزياء متنوعة، وبجميع أنواع الحلي التي تستعملها المرأة الأمازيغية بقصر أسا، ويوضع لها حزام من الحرير، لتصبح بذلك كعروس جميلة «تَسْلِيثْ». وتفيد الرواية الشفوية بأن هذه الحلي تؤخذ من عند امرأة متزوجة، كناية على الخصوبة والحنان والعطاء دون مَنٍ[1].

عند الانتهاء من تزيين «أَغْنْجَا»، تبتدئ مراسم الاحتفال، بحمله من طرف فتاة يشترط فيها حسب الذاكرة الشعبية ألا تكون يتيمة ولو من أحد أبويها، ثم تتجول به رفقة بقية الفتيات بين أزقة ودروب القصر[2]، ويرددن أهازيجا شعبية كالتالي:

بَلْغُنْجَا وَنُومَنْ سْرَبِّي

وَلّي إِزْكَانْ أَدَانَغَ دِيغِيثْ

1- رواية شفوية: المرحومة فاطمة تبهات، من ساكنة قصر أسا، 63 سنة، بتاريخ: 2002/02/14.

2- أنظر الصورة رقم 28.

أَتَغْلاَ دِيزِمّرْ مُونِينْ

غِيمُولاَيْ زَكْزَاوْنِينْ

فَتِيّدْ تَكْرَا دِينِيفِيفْ

أَسَرْسْ نَاكَمْ إِمِكّادْ أوَمَانْ

معنى ذلك: يا «بَلْغُنْجَا» نؤمن بك يا الله، أنت القادر على إغاثتنا، حتى نتمكن من الحصول على الماء الذي جعلت به كل شيء حي.

الصورة رقم 28: حمل «بَلْغُنْجَا» من طرف إحدى فتيات القصر. من أرشيف جمعية قصر أسا (23 نونبر 2008)

وعند اقترابهن من إحدى المنازل يتم رشهن بالماء من طرف امرأة مسنة، كناية على وشك تهاطل الأمطار، وتقدم لهن صدقات وهدايا غالبا ما تكون من الدقيق والزيت والسكر، وفي اليوم الموالي تنظم وليمة جماعية.

نعود إلى السؤال لماذا استعمال أداة «أغُنْجَا» بالضبط في هذه الظاهرة؟ إن استعمال هذه الأداة يرجع أساسا إلى كون «أغُنْجَا» أداة لإعداد مجموعة من الأطعمة التي تعتبر الغذاء الأساس عند سكان قصر أسا، والتي ترتبط في جوهرها بما تنتجه الأرض الزراعية من قمح وشعير وغيرها، كما أن استعماله ماهو إلا رمز لاستمرار الجفاف وقلة الطعام، ومن تم فإن مهمته ستتراجع بتقلص الطعام، ورأى «ألفريد بيل» أن الاحتفال بظاهرة بلغنجا ناتج عن الإيمان بفكرة البعث والنمو والإنتاج، فـ «أغُنْجَا» الذي ترافقه أشعار عاطفية وحزينة يقصد من ورائها بكائه الذي يشخص المطر في النهاية[1]، وأضاف بيل أن «بَلْغُنْجَا» أو «ألْغُنْجَا» التي انتشرت بالبلدان المغاربية حيث يتم إلباسها لباس فتاة

1- Alfred Bel, « Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les musulmans maghrébins », op. cit, p: 309.

جميلة فتشبه بذلك دمية، وهذا له دلالة رمزية ما دام «أغُنْجَا» يستعمل في السوائل حيث يشبه ذلك الإناء الفارغ الذي وضع قرب تمثال إله المطر عند القدامى، وأردف قائلا بأن هذه الظاهرة تعتبر من بقايا المعتقدات التي تدخل في إطار الإسلام الشعبي بالبلدان المغاربية، وقد عرفتها المجتمعات الإنسانية منذ ماض سحيق، وكان سكان شمال إفريقيا يطلبون المطر عن طريق «بَلْغُنْجَا».

وعن حدود الالتقاء والتقاطع بين «بَلْغُنْجَا» والطرق والتقاليد الأخرى المستعملة في استنزال المطر لدى العديد من الشعوب الإفريقية والعربية، فإن هذه الظاهرة نجدها في تونس لكنها تحمل اسما محليا آخر هو «تَانْكُوَ» أو «تَانَكْوَايْ»، وطقوسها شبيهة بطقوس «بَلْغُنْجَا»، حيث يعهد حمل «تَانْكُو» للأطفال الذين يرددون مجموعة من الأشعار منها:

أمَـــكْ تَـانْـكُـو يَـا انْـسَـا	طَـالَـبْـتْ رَبّي الـشْـتَـا
أمَـكْ تَانْكُ و عْطُوذَ ا شْعِيرْ	يَمْـلاَ قْـدَحْـكُـمْ بْـلَـغْـدِيـرْ

وعند اقترابهم من إحدى المنازل، تخرج لهم ربة البيت الدقيق أو الشعير، وتصب من ورائهم الماء طمعا في نزول المطر في أثرهم، وفي الجزائر يقوم الأطفال والفتيات بالطواف حول المنازل حاملين «أغُنْجَا» ويرددون:

يَـا غُـنْـجَـا طَـالَـبْ رْجَـا	يَـا رَبّي تَـعْـطِـيـنَـا شْـتَـاء
زْرَعْ صْـفَـرْ وَرَفْـهَـا	غِـيـثْـهَـا يَـا مَـنْ خْـلَـقْـهَـا

من خلال ظاهرة «بَلْغُنْجَا» يتضح لنا مدى ولع الإنسان بالماء والمطر، هذا الولع الذي وصل إلى درجات التعبد وطلب الغيث، من جهة أخرى فإن هذه الظاهرة تتخذ أشكالا مختلفة نسبيا في مجموعة من المناطق المغاربية وداخل المغرب أو ببعض المناطق الأخرى، إلا أن هذا الاختلاف يبقى على مستوى الأداء والأهازيج الشعبية.

تبقى ظاهرة «بَلْغُنْجَا» من أقدم الشعائر الإستسقائية بقصر أسا، تحمل بين تفاصيلها أبعادا ودلالات عميقة تصب كلها في مسألة أساسية وهي الاستمطار وطلب استنزال المطر على الأرض والعباد.

رابعا: «إمَاغَنْ أومَانْ»

ربما كانت ظاهرة «إمَاغَنْ أومَانْ» أو الحرب المائية من أهم العادات المتصلة بالماء، باعتباره رمزا للحياة والخصب، فأمام التقلبات المناخية التي عرفها قصر أسا، والتي في الغالب لا تخدم مصالح الحياة الاجتماعية المرتكزة على الزراعة بالواحة، أمام ذلك؛ وجد إنسان قصر أسا نفسه أمام صراع حقيقي في مواجهة الأمر.

الذي يثير الانتباه في ظاهرة «إمَاغَنْ أومَانْ» أن هذا الصراع يتم بواسطة الماء، ويتم ذلك خلال نهاية فصل الصيف، وتحديدا يوم الجمعة من نهاية موسم «سِيدِي حْمَادْ أمُوسَى»، وهي حرب مائية خاصة بساكنة «إدَاوْمَلّيلْ»، تشن عادة بين فرقتين؛ الفرقة الأولى تتكون من «آيْتْ بَحْمَانْ» و«إحْشَاشْ» ضد «آيْتْ أحَايَكْ و«آيْتْ حَمْزَة» و«إدْ بَاهَا»، بحيث تقوم امرأة من إحدى الفرقتين بإشعال فتيل الحرب، وذلك بأن تبلل ثياب أحد الشيوخ ليكون ذلك بمثابة إعطاء الانطلاقة لبداية الحرب بـ «تَاسُوكْتْ غَزّيفْنْ»: الزقاق الطويل، حيث تتراشق النساء فيما بينهن بالماء، وتبللن كل المشاركات وكل من يصادفنه في طريقهن، يتم ذلك بمساعدة الفتيات اللائي يجلبن المياه، وللأطفال دورهم في احتدام الصراع حيث يعرقلون الفتيات عند جلبهن للماء، ويشترط أن يستمر الصراع بالماء إلى أن يصل إلى المقبرة، فتقوم امرأة من «آيْتْ بَحْمَانْ» حاملة قصبة طويلة برأسها حزام أحمر قائلة: «وَلَهْنَا وَلَهْنَا» أي الهدنة الهدنة معلنة بذلك نهاية الحرب، ولما استفسرنا الذاكرة الشعبية المحلية عن السر في ضرورة وصول الماء إلى المقبرة؟ كان الجواب بأن وصوله إليها، يعني البعث والحياة من جديد، وتضيف أنه في حالة ظهور الدم أو جرح إحدى المشاركات في هذه الحرب المائية، دل ذلك على أن الموسم الزراعي سيكون عام الخصوبة والخير ووفرة الإنتاج، وفي نهاية الحرب تتفرق النساء في حال سبيلهن.

إن الهدف من ظاهرة «إمَاغَنْ أوَمَانْ» هو طلب استنزال المطر والبعث، إلا أن المثير للانتباه في هذه الظاهرة لماذا الصراع بالماء نفسه؟ ما دامت قلته هي موضوع الصراع؟

خامسا: «إدْبُوهَرّادَا»

ظاهرة تقوم بها نساء قصر أسا خاصة «إدَاوْنْكِيتْ»، عند حلول موسم الحرث وذهاب الرجال إلى وادي درعة للحرث، وأهم ما يميزها اجتماع النساء في مكان عرف بـ «إمِي نْ تْحَانُوتْ أوعَثْمَانْ»، ويقمن بحفر حفرة، وبينما يقمن بذلك؛ إذا وجدن حبة زرع أو قمح أو تبن، فيعتقد أن الموسم الفلاحي سيكون جيدا، وبعد الانتهاء من الحفر يقمن بمطاردة الفتيات داخل القصر خاصة بـ «إمِي نْ زَاوِيتْ»، «إمِي نْ صَنْدَرْتْ» وغيرهما. وتعتقد الذاكرة الشعبية أن أي فتاة سقطت في تلك الحفرة فإنها لن تعيش السنة المقبلة، وتتوج هذه المطاردة بأداء النساء لرقصة يمثلن خلالها حركة السنابل وهي تتمايل جهتي الشمال والجنوب ومن بين ما يرددنه:

أيَدْ بُو هَرّادَا

أتِكْلاَيْ دْوُدِي

إكْرِينُو أيْكْ غِيكَا

أدِي غْلِي إكْ غِيكَا

إبَنْغَلْ إكْ غِيكَا

معنى ذلك: محصولي الزراعي، أتمنى أن يكون جيدا فيتمايل مع هبوب الريح جهتي الشمال والجنوب. ونشير إلى أن الاحتفال بهذه العادة يختتم برقصة «أحْوَايْشْ»، عموما فإن الهدف من «إدْبُوهَرّادَا» الأمل في أن يكون الموسم الفلاحي جيدا.

سادسا: «إهِيَاضَنْ»

يتم الاحتفال بـ «إهِيَاضَنْ» عند حلول موسم الحرث بوادي درعة، وتتميز هذه الظاهرة باحتفالية خاصة من طرف نساء قصر أسا حيث يقمن بصناعة الضفائر من أوراق بعض الخضر والنباتات كـ «إبَرْوَاكَنْ»، «لَحْبَقْ» وغيرهما، ويضعنها على رؤوسهن، ويحملن قصبات طويلة للقيام بجولات داخل القصر، وعادة ما تكون الانطلاقة من «إمِي أوزِيلاَلْ» ثم «تَسُوكْتْ غَزِيفَنْ»، «أكْلاَكَالْ»، و«أنْرَارْ أهُمّو»، إلى أن يصلن إلى مكان يسمى «أكْضِي نَدْ يَحْيَا»، في أجواء من الفرح، الغاية منها الترحيب بموسم الحرث وإبراز شجاعة النساء عند غياب الرجال وذهابهم إلى وادي درعة للحرث.

وعن العادات التي تستهدف خصوبة الأرض ووفرة الإنتاج، قيام نساء قصر أسا بطحن القليل من الزرع الذي سيتم حرثه خلال موسم الحرث، يُعْدِدْنَ به أكلة تسمى «تَكْلاَ»، وعند إعدادها إذا ازداد حجم هذه الأخيرة، يعتقد أن الموسم الفلاحي سيكون جيدا، وإن حدث العكس، فإن الموسم الزراعي سيكون ضعيفا، ومثل هذه الطقوس والممارسات المرتبطة بموسم الحرث لا تخص قصر أسا فقط، بل نجدها في مناطق أخرى كتافيلالت ومناطق درعة وغيرها[1].

«إميل لاوست Emile Louste» في بحثه الإثنوغرافي المطول حول الموضوع، أفرد قسما هاما من كتابه: « Mots et choses berbères » للحديث عن كيفيات أداء شعائر «تَاغُنْجَا» في بلدان وقبائل شمال إفريقيا، والطقوس المرتبطة بموسم الحرث، وتحدث عن بعض المناطق التي يتم فيها زرع بقايا البذور التي جمعت بمكان «الدّرْسْ» للموسم الماضي ويتم مزجها ببذور أخرى من أجل موسم فلاحي جيد، كما يتم افتتاح موسم الحرث بزرع البذور التي جمعت في أحد المواسم التي تأوي أماكن مقدسة، ويتم مزجها برماد نار عاشوراء، ودم إحدى الذبائح، القصد منها خصوبة الأرض.

لم تكن الحياة الاجتماعية لدى سكان قصر أسا تخلو من العديد من عادات الطعام المرتبطة بالموسم الزراعي والاستمطار، ففي الأيام التي تقل فيها التساقطات المطرية ويشتد الجو، تقوم النساء بإعداد وليمة تدعى «تَوَسَكْسُوتْ»، فيجتمعن بالقرب من إحدى المساجد، أو بالقرب من إحدى المنازل لإعدادها، تقدم للفقهاء والأطفال والعابرين، ويشترط في هذه الوليمة أن تذبح فيها

1- يشير إدموند دوتي إلى أن المغاربة في البوادي كانوا خلال «الناير» يقومون بطهي سميد الشعير «الدَشِيشَة» بالزيت، ويؤخذ منها قدر صغير «زْلاَفَة» توضع فوق الخيمة في يوم الناير نفسه، وفي اليوم الموالي يذهبون لرؤيتها، فإذا هي أصابتها الرطوبة وغيرت ملامحها فإن السنة الفلاحية ستكون جيدة، وإذا لم تتغير فالسنة ستكون جافة. نقلا عن عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، مرجع سابق، ص: 160.

ذبيحة، ويعتقد أن قلة التساقطات واستمرار الجفاف ناتج عن ندرة مثل هذا النوع من الولائم والتجمعات أو عدم القيام بما يعرف بـ «لْمَعْرُوفْ»[1].

سابعا: «أورْكّيمَنْ»[2]

من العادات الموسمية العريقة في ثقافة المجتمعات الأمازيغية بالواحات، يتم إحياؤها عند بداية الموسم الفلاحي «إِضْ يِنّايَرْ»، بمناسبة حلول السنة الفلاحية «13 أو 14 يناير»، وتختلف أسماؤها حسب المناطق والتجمعات السكانية، كما تختلف طرق إعداد الأكلة الشعبية الخاصة بها.

بقصر أسا يتم إعداد هذه الأكلة من طرف النساء من الكسكس وطهي الحبوب كالدرة، القمح، الحمص، الفول، «تِكُرْدَلاّسْ» وبعض أنواع الخضر خاصة «تِرْكْمِينْ» و«خِيزُو»، ويتم تناولها في أجواء احتفالية متميزة بحيث توضع فيه نواة التمر «أغَرْمِي» ومن عثر عليها أثناء تناول الأكلة ينعت بالسعيد، والقصد منها أن يكون الموسم الفلاحي جيدا وأن تعم البركة والخير بين أوساط العائلات من جهة، ومن جهة ثانية السعي دائما إلى تعزيز الروابط الاجتماعية، وتجسيد ارتباط إنسان الواحة بالأرض وبما تنتجه من محاصيل زراعية تضمن قوته اليومي.

إن المتتبع لهذه الظواهر الاجتماعية الجماعية، يجدها غنية من حيث التقاليد والعادات المرافقة لها من جهة، ومن جهة أخرى من ناحية الأبعاد والدلالات، ظواهر في مجملها تقوم بها النساء سواء بـ «إدَاوْمَلّيلْ» أو «إدَاوْنْكِيتْ»، ويجسدن من خلالها سعي الإنسان الحقيقي لمواجهة الطبيعة والتغيرات التي تلحقها والعناية بالأرض وما تجود بها من منتوجات زراعية، وحسب حليم بركات فالعلاقة بين المرأة والأرض كلاهما مصدر، أو بالأحرى رحم الخصب[3].

المبحث الرابع: العادات والتقاليد المرتبطة بالفرد في مجتمع قصر أسا

إذا تصفح المرء سجل حياة ساكنة قصر أسا وجدهم عناصر هادئة، تحب السلم والأمن، تخدم الأرض، تستضيف الضيوف، تقيم علاقات الود والإخاء، تعامل السيئ بالحسن، تستضيف الجائع فتطعمه، وتستضيف الغريب فتناوله، وتفتح الباب للتجار فتواسيهم وتستقبلهم في أبهى حجرات منازلها، عاملوا العلماء وجالسوهم برفق واستفادوا وأخذوا منهم[4].

1- مازالت هذه العادة تحييها ساكنة قصر أسا وعموم ساكنة أحياء المدينة أملا في هطول المطر.

2- أشار العلامة المختار السوسي في معرض حديثه عن المعتاد في أول السنة الفلاحية بمناطق سوس إلى هذا النوع من الاطعمة «أورْكِيمَنْ». يصنع من حبوب الذرة والقمح والفول والعدس واللفت اليابس مع الأكرعة التي تجمع لذلك من قبل، يطبخ الجميع في قدر طبخا جيدا طوال النهار، ويتحين صنع هذا الطعام في ليلة أول السنة، ويؤثر أن أصل جمع هذه الحبوب أثر من آثار نزول نوح من السفينة، فقد طلب ممن ركبوا معه ما تبقى مما تزودوا به، فأتى كل واحد بما عنده فطبخ الجميع طبخا واحدا. محمد المختار السوسي، المعسول، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، DKI، 2014، بيروت، لبنان، ص: 87.

3- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مرجع سابق، ص: 79.

4- عبد القادر أنزيض، جوانب من عوالم الأولياء: أولياء أسا نموذجا، مرجع سابق، ص: 87/86.

منذ القدم، بنيت علاقات ساكنة قصر أسا على مبادئ الاحترام والوقار وحسن الجوار وإكرام الضيف، وقد كان للنسيج العمراني للقصر، والتنشئة الدينية التي تلقتها الساكنة دورا أساسا في ذلك، مما انعكس على الحياة اليومية للأفراد والجماعات. توفر العائلة كل وسائل الراحة للضيف، فتخصص له غرفة داخل المنزل تسمى «لْمَصْرِيتْ»، تعبيرا منها على قبولها للضيف وتقدير تقاليد الضيافة كما هو متعارف عليها عند الساكنة، سواء في المناسبات أو في الأيام العادية، ويحرص السكان على مراعاة شعور الجار، والوقوف إلى جانبه في الأفراح والأحزان، مع تقديم العون والمساعدة في الوقت المناسب. فعلى سبيل المثال، كان الجيران يتبادلون المواد الغذائية وأدوات الطبخ والزراعة وغيرها، ويتم ذلك في الكثير من الأحيان عبر أسطح المنازل بحكم اصطفافها وتراصها جنبا إلى جنب، بل أكثر من ذلك؛ عند الحاجة إلى طهي وجبة غذائية، من منزل واحد كانت تنتقل «جَرِيدَة تحمل شُعْلَة نَارْ» إلى بقية المنازل الأخرى بالتتابع.

وعند تبادل التحايا تراعى عادات لا يمكن الإخلال بها بين جميع السكان، فكانت تحية الإسلام «السّلاَم عَلَيكم» هي السائدة والرد يكون بـ «عليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته»، فتجد الصغير من الواجب عليه أن يبادر بالسلام على الكبير وتقبيل رأسه، كما يستوجب على الفرد أن يسلم على الجماعة، وللاطمئنان على الجالسين بإحدى دروب القصر، يبادر المار بهم بالتحية قائلا: «تْزُوزْوَامْ» ترد عليه الجماعة «زُوزْوَانْ آيْتْ لْجَنْتْ»، الشيء نفسه عند النساء، وعند جلوس الرجال في مكان معين تتفادى النساء المرور من أمامهم ويغيرن الطريق، وتجدر الإشارة إلى أن مشاعر الاستقبال نفسها، تكون عند وداع الضيوف.

أما فيما يخص العلاقات الأسرية فهي مبنية على الاحترام داخل البيت، الذي يلعب فيه الجد ومن بعده الأب الدور الأساس في تنظيم وتسيير شؤون المنزل، قرارات الأب غير قابلة للنقاش، وغالبا ما تلعب الأم دور الوسيط بين الأب والأبناء عند الحاجة أو لتلبية طلبياتهم، الكبير يحترم الصغير داخل العائلة الواحدة التي عادة ما يجتمع فيها الجد والجدة والأب والأم، والبنين والبنات، المتزوجون والعزاب، وعن الأشغال المنزلية ومجمل المهمات تتلقى المرأة مساعدات جمة من بناتها منذ طفولتهن، وكذلك يساعد الأبناء، خارج البيت على الأغلب، في مهمات الفلاحة والسقاية والحصاد والرعي ورش المزروعات والعناية بها[1].

عموما وكما ذهب إلى ذلك حليم بركات يمكننا أن نعتبر العائلة صورة مصغرة للمجتمع الكبير نفسه، إذ نجد أن العلاقات السائدة في المجتمع هي التي تسود في العائلة، إن الثقافة السائدة في المجتمع تسود أيضا في العائلة، والتغيرات التي تحدث ضمن العائلة لا يمكن فصلها عن التغيرات التي تحدث في المجتمع[2].

1- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مرجع سابق، ص: 82.

2- المرجع نفسه، ص: 223.

عادات وتقاليد كثيرة يصعب حصرها طبعت السلوك اليومي للفرد في علاقاته المختلفة، فرضت بها الجماعة احترامها داخل المجتمع، وأي إخلال بها يعتبر خروجا عن الجماعة، لذلك يتم الحرص على التمسك بها ضمانا لعلاقات متوازنة مبنية على الوقار والاحترام وتماسك العائلة.

المبحث الخامس: العادات والتقاليد المتعلقة بالمأكل والمشرب وفض المنازعات بقصر أسا

تعد عادات وتقاليد الطعام وآداب المائدة قسما هاما من أقسام التراث اللامادي، وذلك لكونها شكلت عنصرا أساسا في الحياة اليومية للناس. واعتبارا لغناها وتنوعها، ترى الباحثة علياء شكري أن دراستها لا يمكن أن تتم بمعزل عن الإطار العام للمجتمع الذي تمارس فيه، كما أنها تتداخل مع العديد من عناصر التراث الشعبي وموضوعاته، وحسب الباحثة نفسها فإنها وثيقة الصلة بالجانب المادي من التراث، فالطعام كما هو معلوم مكون من عناصر مادية، ويعد بأدوات ويحفظ في أوان قد تكون تقليدية في الوقت ذاته، كما هو الشأن في الاستعمال المحلي بقصر أسا، وإعدادها يعد مجالا لترديد بعض الأهازيج والأغاني الشعبية من طرف النساء، بهدف التخفيف من مشقة الإعداد.

أولا: العادات والتقاليد المتعلقة بالطعام وآداب المائدة بقصر أسا

شكلت إلى حدود الأمس القريب ما تنتجه الحقول الزراعية من حبوب وخضر وبعض الفواكه، فضلا عن تربية الماشية من الغنم والبقر، ثم بعض الطيور، أهم مصدر للرزق والغذاء الأساس لساكنة قصر أسا، ويتم تناولها في مختلف الوجبات اليومية والمناسبات. يعتبر الكسكس الغذاء الرئيسي لأبناء الواحة، غذاء الليل خصوصا ويعتبر التمر مادة غذائية لا غنى عنها، أما المشروبات فلا يوجد غير اللبن والماء[1] ومن بين الأكلات الشعبية الشائعة التي تحتل مكانة خاصة في النسق الغذائي لدى ساكنة قصر أسا قديما نجد «الكُسْكُسْ بـ «إبَرْوَاكَنْ» و«خِيزُو إقُورْنْ» و«تِرَكْمِينْ قُورْنِينْ»، «الطّاجِينْ»، «تَكُلاّ»، «أبَدّازْ»، «بُوفِي وَاسَكْسُو»، «تَحْكُوكْتْ نْ تَكَاتْ»، «أكُورْنْ إجّانْ: تُومِيتْ[2] ثم البصل «أزَالِيمْ إقُورْنْ» والتمور، كما يتم تجفيف اللحوم «تِيشْطَارْ» وغيرها من الأكلات، تعد بشكل تقليدي بالمنزل من طرف النساء، وذلك باستعمال الحطب الذي تجود به الواحة، فيما يعرف محليا بـ «تَكَاتْ» كَانُونْ الطّبْخ، الذي ينقسم إلى نوعين «تَكَاتْ» خاصة بطهي الخبز «تَحْكُوكْتْ نْ تَكَاتْ» وأخرى لطهي باقي الأكلات، أما المشروبات فمنها الحليب واللبن اللذين يتم صنعهما محليا، و«لَمْرِيسْ»، فضلا عن الشاي ومكانته وطقوسه الخاصة.

وكانت الساكنة تلتجئ إلى وسائل تقليدية من أدوات وأوان مصنوعة من الفخار أو من سعف النخيل لتخزين بعض الخضر والمأكولات وذلك عن طريق تشريحها وتجفيفها للانتفاع بها في أوانها. وتجدر الإشارة إلى أن الحصول على المياه الصالحة للشرب يتم من خلال عيون الآبار، ويتم

1- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 208.

2- «تُومِيتْ»: أكلة شعبية تصنع من دقيق الزرع «أكُورْنْ إجَانْ» الذي يتم قليه مجففا على النار ويخلط ببعض الأعشاب، بعد ذلك يتم طحنه في المطحنة التقليدية «أزَرْكْ» ليكون صالحا للأكل.

تخزينها عن طريق خزان صغير بالمنزل «تَنُوطْفِي» تملؤها النساء بشكل جماعي من مياه العيون المجاورة، أو في أواني خاصة لذلك منها «تَانْوَاتْ» أو «لْخِبِيتْ» وغيرها، ولتبريد الماء خاصة في فصل الصيف يستعمل «أيَدّيدْ».

وعادة ما تتشكل الأسر التي تقطن بمناطق الواحات من العائلات الممتدة[1]، حيث يتكفل رب الأسرة، سواء كان والد أرباب الأسر النووية المشتركة أو أخاهم الأكبر، بتدبير أمور المعيشة[2]، ويعيشون حياة مشتركة انبثقت منها آداب الطعام.

يتم إعداد مائدة الطعام من طرف الأم أو زوجات الأبناء بالتناوب، ويتحلق حولها الأبناء مع الأب، في حين إن كانت هناك زوجات فإنهن يتناولن الطعام بمعزل عن الرجال، ومن آداب تناول الطعام أن ينتظر الأبناء حتى يبدأ الأب هو الأول، وهو الذي لا يتوانى عن حثهم على ذكر اسم الله «بسم الله» قبل بدء تناول الطعام، و»الحمد لله» عند الانتهاء منه، وضرورة تناوله باليد اليمنى، كما يقوم بتوزيع اللحم فيما بينهم، ويحثهم كذلك على عدم ترك الطعام المتبقي في الأطباق، كما يتطلب الأمر لعق اليدين بعد الأكل قبل غسلهما، ولا تخلو أجواء تناول الطعام من تقديم الثناء والإعجاب بمذاقه وجودة طهيه، وعدم الرضا عليه إن حدث العكس.

عديدة هي عادات وتقاليد وآداب الطعام، يمارسها الإنسان بشكل يومي، ومع مرور الزمان ينقلها السلف للخلف لتظل متوارثة فيما بينهم، فكثير من الأصناف التي نتناولها في بيئتنا المغربية قديمة في أصولها، منقولة أبا عن جد... إن الطعام- وهذه من البديهيات- يشكل عنصرا أساسيا في حياة الناس، فيملأ فكرهم ويشغل مخيلتهم ويعرف هو أيضا اجتهادات وإبداعات[3]. وحسب عبد الرحيم العطري، فالطعام هو جسر ممكن إلى الأبنية الخفية للمجتمع، ومنه نفكك كثيرا من الشفرات الثقافية، ونتتبع مختلف التلاقحات والتواصلات التي تختزنها وجبات وأدوات الممارسة المطبخية[4].

يبقى هذا الموضوع جديرا بالاهتمام والدراسة المعمقة فيه، بغية الوقوف عند أهميته وتفاصيله وجزئياته أخذا بعين الاعتبار أبعاده التاريخية «الزمنية» والجغرافية والاجتماعية عند الجمع والتدوين والدراسة.

1- الأسرة الممتدة حسب علياء شكري: «هي تلك التي تضم عددا من الأسر النووية، تجمعهم صلة قرابة في خط الذكور، مثلا أن يزوج الرجل-رب الأسرة الكبير- أبناءه الذكور، ثم يسكنهم معه في البيت الكبير، ويعيشون حياة مشتركة، وقد يشتركون في المسكن وفي الطعام وفي الميزانية».

2- علياء شكري، دليل الدراسة الميدانية لعادات الطعام وآداب المائدة في الوطن العربي، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مرجع سابق، ص 98.

3- محمد زنيبر، مجلة الثقافة المغربية، السنة الأولى عدد01 ماي/ يونيه، 1991، ص: 59.

4- عبد الرحيم العطري، قرابة الملح، الهندسة الاجتماعية للطعام، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016، ص: 09.

ثانيا: العادات والتقاليد المرتبطة بفض المنازعات بقصر أسا

سبقت الإشارة إلى بعض الأدوار التي كان يقوم بها مجلس «آيْتْ رَبْعِينْ» داخل القبيلة بمختلف فروعها ومع القبائل والمكونات الأخرى، من أجل إرساء السلم الاجتماعي، وتحقيق العدل بين مختلف مكونات القصر، من خلال تطبيق قوانين عرفية تُراعى فيها الحقوق والواجبات، فيتم الاحتكام إليها في حالة حدوث تجاوزات أو نزاعات، غالبا ما تكون حول الأرض أو الحقول أو توزيع نوبات الماء وعلى مستوى المنازعات التي تكون عادة بين الأسر، فغالبا ما كان المسنون من ذوي الوجاهة ومن لهم حضور وازن في القبيلة، أو أفراد العائلة أنفسهم من يتكلف بفض هذه المنازعات، حيث يتم حلها عن طريق اللجوء إلى الصلح، ومن ثمة تكريس ثقافة الوقار والاحترام بين مختلف أفراد الأسر سواء النووية أو الممتدة.

خلاصة

تشكلت الذاكرة التراثية الجماعية عند الساكنة، نتيجة للظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية التي عرفها قصر أسا، وتفاعلاتها منذ زمن بعيد، بدءا بعادات وتقاليد دورة الحياة، مرورا بعادات وتقاليد الأعياد الدينية والمناسبات والمواسم الزراعية والمراسم الاجتماعية وغيرها، وصولا إلى العادات والتقاليد المتعلقة بالمأكل والمشرب وفض المنازعات، ومن تم الملامح الجماعية وما طبعها من قيم وأخلاق، وفنون وآداب، حددت فلسفة وجودها وما ميزها عن غيرها من المجتمعات.

عادات وتقاليد عكست طبيعة العلاقات والأفكار المشتركة والأرضية الثقافية التي شكلت الخيط الناظم للحياة الطبيعية بين سكان قصر أسا فيما بينهم من جهة، وفي علاقاتهم مع الأرض وما تنتجه من جهة أخرى، ليبقى الامتثال الجماعي لها تجاه مواقف الحياة اليومية والمناسبات والفصول والمواسم، من خلال ممارستها، أمرا ضروريا وملزما، وأي خروج عنها هو خروج عن الجماعة والقبيلة، فالعادات والتقاليد دائما حسب محمد الجوهري بنت شعب معين، ومنطقة معينة، وتراث تاريخي معين[1].

خلال عملية جمع وتدوين عادات وتقاليد قصر أسا، استوقفتنا نقطة أساس تمثلت في تداخل عناصرها مع باقي عناصر التراث الثقافي الأخرى، فوجدنا بذلك صعوبة في الفصل فيما بين ما هو معرفي أو عقدي، أو عادة أو تقليد، وبين ما هو مادي إلى غير ذلك، مما أكد ما أشرنا إليه سابقا كون العادات والتقاليد من أهم عناصر التراث الثقافي، كما أنها الخزان الأكبر لمنظومة القيم التي حكمت سلوك الفرد والجماعة عبر التاريخ، فجميع الطقوس المرتبطة بالحرث والحصاد والعمل في الحقل، وكذلك طقوس الزواج والختان، طقوسا أصيلة امتزج فيها الأمازيغي بالإسلامي[2]، ويبقى الحديث عن جوانب الثبات ومعالم التغيير فيها وارد بشكل دائم.

1- محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، مرجع سابق، ص: 35.

2- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 208.

الفصل الثالث:
المعتقدات والمعارف الشعبية

تمهيد

تعد المعتقدات والمعارف الشعبية جزء هاما من التراث اللامادي المتوارث جيلا عن جيل، تلخص مجموعة من الممارسات والطقوس التي يؤديها الفرد أو الجماعة في مواجهة مواقف الحياة ومختلف التفاعلات مع الذات والطبيعة. أكدت مجموعة من الأبحاث والدراسات- منها تلك التي قام بها حليم بركات- أن دراسة الحياة الدينية من زاوية علم الاجتماع تستوجب التمييز بين التدين الرسمي والتدين الشعبي، وترتكز أسس التدين الرسمي على النصوص والشريعة الإسلامية والتوحيد والسنة والوحي ومساواة المؤمنين أمام الله، في حين أن التدين الشعبي يتمثل في التشديد على الاختبار الروحي والتدرج في علاقة المؤمن بالله، وتبرز ملامح التدين الشعبي من خلال ممارسة مجموعة من المعتقدات والمعارف الشعبية، انطلاقا من التعبد بالأولياء والمزارات، مرورا بتأويل مجموعة من السلوكات والممارسات، وصولا إلى معتقدات متصلة بكل ما يتعلق بدورة الحياة.

تشير المعتقدات والمعارف الشعبية إلى مجموعة المعتقدات التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي[1]، كما أنها تدور حول العالم الاجتماعي الذي يعايشه الإنسان وحول صحته ومرضه وعلاقته بأهله وعشيرته وخبراته وتجاربه وانعكاسها على حياته، واعتبرها «فيليب هاموند Ph.Hammound» نسق فكري يضم الاعتقاد والشعائر والطقوس وغيرها، يزود الشعب بأسباب الخلق والحكم والرشد في الأفعال[2]، وتنفرد حسب علي محمد المكاوي بمواقف إنسانية عامة وأفكار أساسية، ومع مرور الوقت تصبح عناصر تراثية توجد عند كل الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتتغلغل في أعماق نفوسهم إلى درجة أن مجال التساؤل بشأنها أو التشكيك فيها يصبح شيئا غير مقبول، وهي بذلك عبارة عن مسلمات لا يجب السؤال حول أصلها أو سببها أو غايتها، لأنها بديهية ويجب الإيمان بها والاعتقاد فيها.

وصنف محمد الجوهري المعتقدات والمعارف الشعبية إلى موضوعات أساسية، تضم كل منها العشرات من الموضوعات الفرعية، تؤمن بها الجماعة وتعتقد بوجودها مع ضرورة ممارستها إرضاء

1- علي محمد المكاوي، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، مرجع سابق، ص: 179.

2- نفسه، ص: 179.

للنفس أو اتقاء للشر أو جلبا للمنفعة والبركة، فضلا عن الظفر بالكرامات، مقابل القيام بمجموعة من الطقوس والممارسات. ومن أهم الموضوعات ذات الصلة بالمعتقدات والمعارف الشعبية نجد: زيارة الأولياء والمزارات والطب الشعبي والكائنات فوق الطبيعية والنباتات والقوى الخارقة والغير عادية لبعض الأشياء والأماكن والأشخاص، فضلا عن الأخرى ذات الصلة بجسم الإنسان ودورة حياته وغير ذلك. معتبرا إياها من أصعب عناصر التراث الشعبي في التناول، وأشقها في الدراسة والبحث، لأنها خبيئة في صدور الناس[1]، اعتمادا على الخيال الفردي مما يكسبها طابعا خاصا، كما أنها متجدرة في دواخل ذات الفرد وموجودة في كل مكان، وتستفيد منها كل الفئات على اختلاف مشاربها.

وتحتفظ الذاكرة الشعبية الجماعية بقصر أسا، بالكثير من صور المعتقدات والمعارف الشعبية وهذا أمر طبيعي، فابن الواحة كما أكد بن محمد قسطاني مؤمن بالله؛ ومؤسستا المسجد والزاوية متأصلتان في وعيه، لكن توحيده لله لا يتنافى في تصوره وممارسته اليومية مع معتقدات قديمة يصعب ضبط مصادرها وتحديد جذورها[2]. وشكلت المعارف الشعبية جزءا هاما من التراث الثقافي اللامادي بقصر أسا، معارف ومعتقدات سنحاول استعراض نماذج منها نظرا لغزارتها وتنوعها وغناها.

المبحث الأول: معتقدات ومعارف خاصة بالأولياء والمزارات

حضيت منطقة أسا بمكانة دينية متميزة على مر التاريخ، ونسجت حولها أساطير عديدة، مما أعطاها قدسية وروحانية خاصة في الأوساط الشعبية ولدى عامة الناس، فعرفت بانتشار العديد من الأماكن والمزارات المعتقد في بركتها[3] داخل قصر أسا وخارج أسواره وداخل المقبرة، وهي عبارة عن أضرحة تحتوي على قباب أو بيوت صغيرة، أو أماكن بها أشجار أو بها أكوام من الحجارة تتعدد وظائفها كالوظيفة السيكولوجية، أو الاقتصادية أو التحكيمية أو العلاجية، فشكلت بذلك ملجأ للإنسان في حالة ضياع حاجته أو تعرضه للظلم، أو لمن ظل طريقه، وكذلك مقصدا لطلب الشفاء وطلب عودة الغائب وربط العهود والمواثيق، فضلا عن الاستخارة وتأمين قضاء الحوائج، لذلك يتمسك سكان الواحة خاصة منهم الفلاحون تمسكا عميقا بالدين، وتحتل المزارات والزوايا وأضرحة الأولياء أهمية خاصة في تعبدهم الطقوسي[4].

1- محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، مرجع سابق، ص: 34.

2- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 203.

3- ورد تعريف «البركة» في مؤلف عبد الرحيم العطري: لغويا تعني البركة النماء والزيادة والعلو واليمن، وهي تحيل على «عطاء» وقدرة استثنائية ذات مصدر إلهي تتوفر لبعض الأشخاص (هَاذَاكْ رَاهْ مْبَارْكْ أو مَبْرُوكْ، الله يَنْفَعْنَا بْبَرَاكْتُو). واعتبر روجيه باستيد البركة «سائل مقدس يفيض من المرابط، ويمتد إلى كل ما يمس هذا الولي من ثياب وماء... وبعد الموت تظل جثته محتفظة بالبركة وتظل عالقة بقبره». أنظر: روجيه باستيد، مبادئ علم الاجتماع الديني، ترجمة محمود قاسم، المكتبة الأنكلوساكسونية، الطبعة الأولى، 1951، ص:65. نقلا عن عبد الرحيم العطري.

4- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، مرجع سابق، ص: 83.

تتداول الذاكرة الشعبية بوجود ما مجموعه 366 وليا وولية داخل مجال قصر أسا وبالمقبرة وبمجال المنطقة عموما، ويربط بعض الباحثين رمزية هذا الرقم بعدد أيام السنة، في تعبير عن حضور الولي في ذاكرة الساكنة على طول السنة، كما أن الولي أو الولية ليس بالضرورة بالنسبة لهم مرتبط بوجود قبة أو كرامات أو بمراسم تقام حوله، بل أنه ترسخ في المخيال الشعبي أن الفتاة تعتبر «وَلِيَة» ما لم تتزوج لذلك تخص باحترام وعناية كبيرين وتعامل معاملة الولية «لُولِيتْ نْ رَبِي»، وفيما يلي أسماء بعض الأولياء والوليات داخل القصر وبالمقبرة:

جدول رقم 05: أسماء الأولياء والوليات داخل قصر ومقبرة أسا

داخل القصر	داخل المقبرة
- مُولاَي عَبْد السَلام أمحمد المعروف بسِيدِي الْوَالِي	- سِيدِي يَعَزّا وَيَهْدَى
- مُولاَيْ ابْرَاهِيم	- سِيدي لَحْسَنْ أورّامُوشْ
- سِيدي بَلْقَاسَم	- سِيدي عَبْد الله أو لَغْمَاتِي
- دادا البَرْكَة	- سِيدي مْحَمْد أو صْغِيرْ
- سِيدي سَالَمْ	
- سِيدي الضّامَنْ	
- مُولاَي يَعْقُوب أولَنْصَارْ	
- إدْ عَمّي نْ آيْتْ يُوبْ	
- سِيدي احْسَايَنْ	
- لاَلّة مِينَة	
- سِيدي الْمَسْتُورْ	
- سِيدي احْمَاد أَلْخَالَصْ	

تُقصد هذه الأماكن من طرف الرجال كما النساء في إطار ما يسمى: بـ «زِيَارْتْ» أو «لْمَعْرُوفْ»، فتمارس بها مجموعة من الطقوس، تختلف بحسب مقصد الفرد أو الجماعة كالمبيت ليلة أو ثلاثة ليال، أو صناعة الطعام بالقرب منها وتوزيعه على الفقراء، وهناك من يضع نقودا أو الشموع وغير ذلك من الطقوس، فتختلف حدة الطقس حسب درجة الطلب. وهنا يطرح السؤال لماذا الاعتقاد في هذه الأماكن والأشخاص؟ يجيب محمد المرزوقي معلقا بأن الطبقات الشعبية الفقيرة العاجزة، تحتاج إلى وسيط يتجسد في شخص صالح يتحسس مآسيهم ويساعدهم على حل مشكلاتهم وينصرهم ضد ظالميهم ويتكلم لغتهم[1]، فأصبحت بذلك مسألة الاعتقاد في الأشخاص والأماكن راسخة في القلوب، وأن التشكيك فيها وفي كرامات هؤلاء الأولياء يعتبر معصية وخروجا عن

1- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث ميداني استطلاعي، ص: 259.

الجماعة واعتداء على مقدساتهم. يعلق محمد المرزوقي قائلا: يا وَيْلْ من يشك في كرامات أولئك الأولياء... فيتهم بالكفر والإلحاد في الدين... وإذا حاولت أن تقنعهم بأن لا تأثير إلا لله، أجابوك بأن الولي مقبول عند الله[1].

إذن فكما سبقت الإشارة؛ فإن انتشار قبور الأولياء والمزارات دفع بالسكان إلى ممارسة مجموعة من الطقوس والمعتقدات سواء منها المرتبطة بالأشخاص والأماكن أو الأحجار والأشجار. ومنها ظاهرة «تِكُرْكَارْ» (الكَرْكْرَة)، وهي من الظواهر الاعتقادية التي مارسها سكان قصر أسا قديما، لدرء البأس أو للشفاء وتحقيق مجموعة من الطلبات والآمال كالزواج وغير ذلك، وتمارس داخل قصر أسا وضواحيه، تحمل أسماء أشخاص أو بعض الأولياء كـ «تِكَرْكَارْ نْ سِيدِي حْمَادْ أَمُوسَى»، «تِكُرْكَارْ مولاي ابراهيم»، «تِكُرْكَارْ نْ سِيدِي عْبَلاَ أَحْمَادْ المعروف بـ «فَرْكَنْتَا»، وحسب بن محمد قسطاني، هي من الأنواع التي تدخل في إطار الطقوس الجمادية حجارة، أكْرْكُورْ، أكوام حجارة مقدسة في مدخل مقبرة، أو في منتصف طريق أو في مفترق طرق أو في قمة جبل وقد تعطى لها أسماء[2].

أولا: تِكُرْكَارْ مُولاَي ابْرَاهِيمْ

تتم مراسم زيارة هذا المكان حسب الرواية الشفوية، عند قدوم شخص ما من أقارب الولي «مُولاَيْ ابْرَاهِيم»، حيث يحل ضيفا قبل ذكرى المولد النبوي الشريف بثلاثة أيام، ويوم العيد مساء يجتمع أفراد القبيلة لاستقباله، وزيارة قبر الولي جماعة، حيث يقام «لْمَعْرُوفْ» وتعتبر هذه الزيارة فرصة لإصلاح ذات البين والتسامح والتوادد وصلة الرحم وتقدم له الهدايا بالمناسبة.

ثانيا: «أَوْرِيرْ لاَنْبِيَا» جبل الأنبياء

اعتبارا للمكانة والأهمية الدينية التي حضيت بها منطقة قصر أسا منذ القرون الأولى للإسلام؛ فلقد شكلت مقصدا للعديد من الناسِكِين والعلماء والزُهاد الذين فضلوا لأنفسهم التفرغ للعبادة وذكر الله والهروب من فِتن الدنيا[3]، كما أطلق عليها « قرية الأولياء والصالحين » و«بلاد الأَمَان». ونسجت حولها العديد من الأساطير تبرز ارتباطها الوثيق بالإسلام، مما جعلها مقاما وحَجّا خاصا بالزيارة والتعبد، وتؤكد الذاكرة الشعبية أن زيارة جبل قريب من قصر أسا يسمى «أَوْرِيرْ لاَنْبِيَا» أي جبل الأنبياء يعادل الذهاب إلى الحج بمكة المكرمة، ويعتقد أن آثار حافَر فرس موجود هناك تعود لحافر فرس النبي ﷺ[4]، ومن تم نسجت حول هذا الجبل الكثير من الأساطير والروايات والمعتقدات والمعارف الشعبية التي سنتوقف عند بعض منها خلال فقرات هذا العمل. وبمحاذاة

1- نفسه، ص: 261.

2- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص: 205.

3- رواية شفوية: لحبيب بن عْبَلاَ أحسون عبد دايم، إمام وخطيب، 56 سنة. تاريخ إجراء الرواية: 23 ماي 2018.

4- أنظر الصورة رقم 29.

القصر توجد تلة تطلق عليها الذاكرة الشعبية «تَاوْرِيرْتْ نْ تِمْغَارِينْ» أي مزار النساء وهو مكان تقصده النساء للزيارة والتبرك[1].

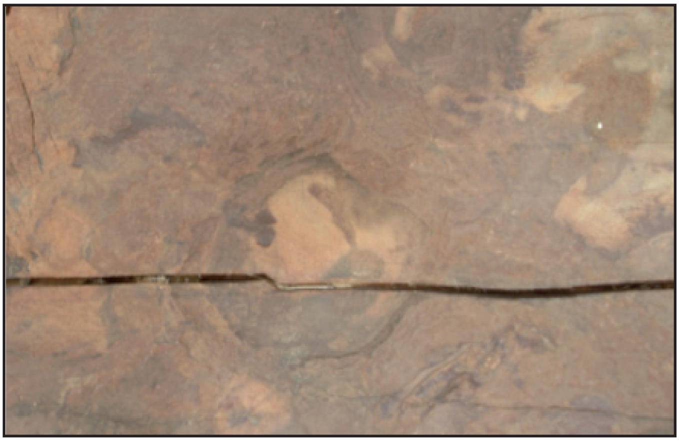

الصورة رقم 29: آثار حافر فرس بالقرب من «أوْرِيرْ لَانْبِيَا». من أرشيف عبد الله بونا (23 مارس 2010)

ومن بين المعتقدات المتداولة أيضا بخصوص «أوْرِيرْ لاَنْبِيَا»؛ فإن هذا المكان المقدس إذا دخله إنسان عاق لوالديه فإنه يبقى بين صخرتين[2]، ولإطلاق سراحه عليه أن يدعو هذا الولي، في حين إذا دخله إنسان غير عاق لوالديه يدخل ويخرج بشكل عادي، وتضيف الرواية الشفوية بوجود صندوق بالمكان، إذا وضع فيه إنسان غير عاق لوالديه يده ستحمل ترابا، بمثابة بركة هذا المكان، وفي المقابل إذا وضع الإنسان العاق لوالديه يده فيه لا يحصل على أي شيء، هذا الاعتقاد جعل من المكان مزارا للعديد من الزوار، ويقام عنده «لمَعْرُوفْ» سنويا، بهدف تحقيق الآمال والطلبات وتخفيف الآلام والمظالم، وتفيد الرواية الشفوية أن هذا الجبل سمي بــ «أوْرِيرْ لاَنْبِيَا» لأنه شكل إلى عهد قريب مجمعا لأولياء أسا الصالحين، يجتمعون فيه من اليوم السابع من ربيع الثاني إلى فجر ذكرى المولد النبوي الشريف[3].

1- تفيد الرواية الشفوية بأن «تَاوْرِيرْتْ نْ تِمْغَارِينْ» كانت بمثابة مكان مخصص للنساء فقط تتبضعن منه خلال الموسم الديني والتجاري لزاوية أسا. رواية شفوية، الحاج مولود بن الحسين بن المحفوظ بن الحسين من مواليد 1946م، فقيه من ساكنة قصر أسا، تاريخ إجراء المقابلة، 12 يوليوز 2020.

2- أنظر الصورة رقم 30.

3- أنظر مقال الباحث عبد القادر أنزيض: جوانب من عوالم الأولياء: أولياء أسا نموذجا، مرجع سابق.

صورة رقم 30: الصخرتين بـــ «أوْرِيزْ لَانْبِيَا». من أرشيف عبد الله بونا (23 مارس 2010)

ثالثا: تِكُرْكَارْ «نْ سِيدِي عْبَلاَ أحْمَادْ» المعروف بـــ «فَرْكَنْتَا»

على بعد حوالي ثلاثة كيلومترات من قصر أسا يوجد قبر هذا الولي، الذي تخصص له زيارة جماعية من طرف الساكنة، خلال موسم التمور، حيث يقام «لْمَعْرُوفْ نْ سِيدِ ي عْبَلاَ أحْمَادْ» المعروف بـ «فَرْكَنْتَا»[1].

الصورة رقم31: ضريح «سِيدِي عْبَلاَ أحْمَادْ» المعروف بـ «فَرْكَنْتَا». من أرشيف عبد الله بونا (23 مارس 2010)

يتم التحضير لهذا «لْمَعْرُوفْ» بشكل جماعي بإشراف مجموعة من أفراد القصر حيث تُجمع الهبات والصدقات والهدايا لشراء كل الحاجيات والمسلتزمات، وبعد إبلاغ الناس وتحديد

1- أنظر الصورة رقم 31.

موعد الذهاب، تبدأ المراسم بذبح الذبيحة الأولى بـ «أَجْمُوعْ نْ صَّالِحِينْ» وذلك بحضور الفقهاء والشيوخ، حيث يستفيدون من ربع الذبيحة والسكر والشاي لإخراج «سْلُوكْتْ»، أما بقية الذبيحة فيتم الاحتفاظ بها، وينطلق الجميع من رجال ونساء وأطفال في اتجاهه، وعند وصول جبل «أَوْرِيرْ لاَنْبِيَا» تذبح الذبيحة الثانية بمكان يسمى «تَمَزّلِيتْ» يعتقد أنه مكان يؤدي فيه الأولياء الصالحين الصلاة، ويردد الجميع العبارات التالية:

هَيَاغْ نِوِيدْ رْجَا

أَيْسَنْدْ رَبّي دُعَاء نْ كُيَانْ

معنى ذلك: ها نحن نقصد المكان للبركة واستجابة الدعاء.

وتحمل الذبيحة إلى «فَرْكَنْتَا»، وبالقرب من قبر الولي تذبح الذبيحة الثالثة، وتقسم إلى نصفين: النصف الأول مع ما تبقى من الذبائح السابقة، يتم تناوله في مأدبة العشاء من طرف الزوار، وتقضى الليلة بأكملها بالقرب من الولي الصالح سيدي «عْبَلاَ أَحْمَادْ» وفي الصباح الباكر وبحضور الفقهاء يتم طبخ النصف الثاني من الذبيحة، ويلتئم الجميع لتلاوة آيات من الذكر الحكيم، وتناول وليمة «لْمَعْرُوفْ»، ونشير أنه يتم الاحتفاظ بنصيب المسنين من الرجال والنساء الذين لم يتيسر لهم الحضور إلى عين المكان، ليوزع عليهم الطعام تبركا ببركته. ومن بين كراماته كما تذكر الذاكرة الشعبية، أنه عند زيارة هذا الولي وتنظيم «لْمَعْرُوفْ» تتهاطل الأمطار مما ينبئ بموسم فلاحي جيد.

وعند نهاية «لْمَعْرُوفْ» تتم زيارة قبر الولي للتبرك، والدعاء إلى الله لأن يحل همومهم ومشاكلهم وأزماتهم النفسية والجسدية، وبمقربة منه توجد عين ماء، يرتادها العديد من الزوار للاغتسال بمياهها اعتقادا بأنها تعالج بعض الأمراض الجلدية.

بالرجوع إلى سبب تسمية «تِكْرْكَارْ»، تفيد الرواية الشفوية على أنه بمكان «تَمَزّلِيتْ» بالقرب من «أَوْرِيرْ لاَنْبِيَا» يجمع الزوار أكواما من الحجارة[1] بعدد أفراد العائلة بغاية لم شملها بالنسبة للذكور وعند الإناث؛ فبالقرب من «تَمَزّلِيتْ» يوجد مكان يسمى: «تَلُولُوتْ» بمعنى التدحرج، ترتاده الفتيات بشكل خاص، ويتدحرجن من الأعلى نحو الأسفل، ويرافق ذلك بالزغاريد، كما يقمن بجمع أكوام من الحجارة في مكان خاص بهن، بهدف درء البأس وطلب الزواج ولم الشمل، وتجدر الإشارة إلى أنه من حال طارئ ما عن حضوره إلى عين المكان يرسل «زْيَارْتْ» أي الصدقة مع من يثق فيه لينوب عنه في وضع كومته ويدعو له بالنيابة أملا في ألا ينقطع الوصل بينه وبين قداسة المكان.

1- أنظر الصورة رقم 32.

صورة رقم32: «تِكْرْكَارْ». من أرشيف عبد الله بونا (23 مارس 2010)

وغير بعيد عن هذا المكان وتحديدا بين قبر الولية «لاَلَة تَغْلَى أحْمَادْ» والولي «سِيدِي عْبَلاَ أحْمَادْ» تخصص الفتيات زيارة لهذا المكان، ويعتقد أن من وجدت فيه أحجارا مثقوبة تصنع منها قلادة؛ ستتلقى خبرا سعيدا، كالخطبة من أجل الزواج أو السفر أو الشفاء وغير ذلك، وفي حالة عدم وجودها، فإنها لا تتوقع أي جديد في حياتها في تلك السنة، ويستوجب على الفتاة التي وجدت تلك القلادة ونالت حظها السعيد أن تقوم بتقديم ذبيحة إلى المكان عينه كهدية[1].

رابعا: مَعْرُوفْ الأوْلِيَاء الصّالِحِين

ينظم سكان قصر أسا هذا المعروف أواخر فصل الخريف، بحيث يوزع ما تم تحصيله واستلامه من عطايا وصدقات ونقود على ستين منزلا، فتختص كل عائلة بإعداد قصعة من الكسكس، ويشترط في هذا المعروف الستين قصعة دون زيادة ولا نقصان، ويستفيد من الوجبات الفقهاء وجميع الحاضرين، بهدف طلب الغيث وإغاثة البلاد والبهائم والعباد.

ومن بين فخدات قبيلة آيْتْ أسَا التي كانت تقوم بتنظيم «لْمَعْرُوفْ» وإعداده بشكل منظم وينسب إليها دون غيرها، نجد:

- آيْتْ أحَايَكْ: معروف الوَلِي مُولاَي ابْرَاهيم.
- آيْتْ أحَايَكْ «أهْل مُحَمَادْ أحْمَادْ»: معروف سِيدي مُحَمد الشّبَكِي.
- آيْتْ بَحْمَانْ: معروف يَعَزّا وَيِهْدَى.
- إهَرّاسَن: معروف سِيدي محمد الشّبَكِي.

1- رواية شفوية، عيدا بن محمود بن امبارك الأساوي، فلاح وفاعل جمعوي، 57 سنة، بتاريخ: 17 أبريل 2017.

إن ظاهرة الاعتقاد لدى ساكنة قصر أسا لا تنحصر فقط في الأولياء والمزارات، بل هناك أماكن داخل القصر عرفت هي الأخرى بهذه المعتقدات منها: وجود حجرة بإحدى أزقته تعرف باسم «إِسْتُوحُنَا» وتعني بنات البيوت، وعلى كل مار أن يضع شيئا مما يحمله من زيت أو تمر وغير ذلك فوق تلك الحجرة، ويعتقد أن من خالف ذلك فإنه قطعا سيفقد ما حمله وستتبعه اللعنة أينما حل، وهناك مكان آخر «إِمِي إِفْرِي» توجد بجانبه شجرة تسمى «لْگَرْزِيمْ» يعتقد أن من مر بالقرب منها يجب عليه أن يضع القليل مما حمله، فإن خالف ذلك أغمي عليه.

خامسا: «إِسَلْمَانْ نَدْ عَمّي نْ آيْتْ يُوبْ»

تحكي الذاكرة الشعبية بأن هذا المكان يوجد بضواحي قصر أسا، يرتاده أبناء فخدة «آيْتْ بَحْمَانْ» ومن يلجه من خارجها فلينتظر عقابه من الكائنات التي تحرس المكان حسب الاعتقاد، وبه توجد عين ماء بها أسماك، تحكي الذاكرة الشعبية أنه بازدياد مولود لدى هذه الفخدة تزداد معه سمكة وفي حالة فقدان شخص ما تموت سمكة، وينظم في هذا المكان «مَعْرُوف» خاص[1].

عرفت منطقة أسا تاريخيا بظاهرة انتشار الأولياء والمزارات، ووصفت بقبلة الصالحين وملاذ الأولياء، واحتفظت الذاكرة الشعبية بالعديد من الطقوس والمعتقدات الخاصة بالزيارة، وما يقدم من هدايا ونذور وصدقات وهبات مقابل التيمن بكراماتهم. إن التمسح والطواف كطقس مؤسس ومبرر للزيارة يرمي إلى «جَنْي ثِمَار» بركة الولي واستدخالها إلى الذات لضمان حلول ممكنة، عن طريق التقبيل واللمس والتمسح، وتمرير اليد التي قامت بـ «جِنْي البَرَكَة» على سائر الجسد، إنها الرغبة في الإمتلاء والتشبع بالبركة[2]. هذا ما أضفى على المنطقة حركية روحية كانت لها امتدادات اجتماعية وثقافية، تستدعي ضرورة القيام بدراسة تعمل على جرد شامل لمختلف أضرحة الأولياء والوليات المنتشرة بمجال المنطقة والاشتغال على مجال المقدس من زاويا مختلفة، كونه مدخلا هاما لفهم المجتمع وسلوكه وقيمه على مر التاريخ.

المبحث الثاني: معتقدات ومعارف شعبية مختلفة

تتعدد وتختلف الطقوس والمعارف الشعبية المرافقة لدورة الحياة عند إنسان قصر أسا، وقد سبقت الإشارة إلى بعض منها قبلا، معتقدات ومعارف شكلت عبر التاريخ إرثا تراثيا لا ماديا تناقلته الأجيال، وقاسما مشتركا في مجموعة من المناطق المغربية، اعتمدها العديد من الباحثين والمهتمين كوثائق تراثية إنسانية معرفية جديرة بالدراسة والتحليل. معتقدات يستعان بها لدفع الشر والحسد وكل مظاهر التشاؤم من جهة، وللاستبشار والتفاؤل من جهة أخرى، فضلا عن عادات أخرى مرتبطة بالحيوانات والماء والطب الشعبي.

1- عبد الله بونا، المعتقدات والمعارف الشعبية المرتبطة بالحياة الاجتماعية «أنموذج قصر أسا»، مرجع سابق، ص: 28.

2- عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، مرجع سابق، ص: 117.

أولا: معتقدات ومعارف شعبية لدفع الشر والحسد وكل مظاهر التشاؤم

● أيام الأعياد الدينية وليلة القدر وذكرى عاشوراء يتم حرق البخور في جميع أرجاء المنزل، من أجل إبعاد الشياطين، ويتزين الرجال كما النساء بالسّوَاك ومادة «لْكَحْلَة» للوقاية[1].

● التعامل مع الطعام بشكل مقدس، وتطلق عليه الساكنة «نْعَايَمْ نْ رَبّي» أي نعم الله؛ إن الخبز والكسكس وبعض الفواكه الجافة، تظل حاضرة بقوة في تدبير كثير من طقوس العبور، فالنعمة يتوجب تقبيلها وإماطتها عن الطريق، إن وجدت مرمية كما يتوجب إكمال «الشْهَادَة» وعدم ترك قطع أو نتف صغيرة أو قليلة فوق المائدة، فالطعام بما هو نعمة وبركة، لا ينبغي أن يبذر[2].

● يكفي ترديد عبارة «أيّاوِي لْبَاسْ» بمعنى رافقه الشر والسوء، كما هي الحالة عند انكسار الأواني ونفوق الحيوانات.

● الامتناع عن كنس البيت عند سفر أحد أفراد العائلة في اليوم نفسه، مخافة وقوع ما لا تحمد عقباه.

● خلال أيام عاشوراء توقد النار في أزقة ودروب القصر، وفي الساحات خاصة ليلة العاشر من محرم، ويبدأ الناس باجتيازها أو القفز عليها اعتقادا بأن ذلك يبعد الشر والحسد.

● ذبح الذبيحة عند عتبة باب كل مسكن جديد، وإعداد وليمة «سْلُوكْتْ» درءا للسوء وتجنبا للحسد.

● لا ينبغي الإشارة إلى القبر بالأصبع، ومن قام بذلك، فكأنما سب صاحب القبر الذي لن يغفر له إلا إذا عض أصبعه، حتى يرى طائرا أو يسيل الدم من أصبعه[3].

● العين «تِيطْ» حضيت بحيز كبير في المعتقد الشعبي المحلي والعين كعضو وكنظرة هي عين الحسد والسوء في التمثل الشعبي[4]، يعتقد بوجود أعين متخصصة في إيذاء الأشخاص والممتلكات، تواجه بعبارات ووسائل للوقاية والحد من أذاها، منها مثلا قولهم: «أكِيكْ إرَازْ رَبّي البَاسَنْكْ» وغيرها، ولهذا يفترض افتتاح القول بالبسملة والتسبيح والتبريك والصلاة على النبي كلما أراد الإنسان أن يبدي

1- قال عبد الرحيم العطري في معرض حديثه عن استراتيجية التحصين والوقاية من السحر في مدينة سلا المغربية: (يعد السواك والكحل واللباس الأسود والحناء من الممارسات التزينية التي تحمل بعدا وقائيا.فتزيين العين بالكحل يعد ردا طبيعيا على كل عين لا تنظر إلى العين «برحمة الله» كما أن ارتداء الزي الأسود في بعض الأحيان يقي من هذه العيون الحاسدة، أما بالنسبة للحناء فالأعيان الذين استجوبناهم، لاحظنا أن الكثير منهم كان يزين كفه بدائرة صغيرة من الحناء، تسمى محليا «الرِيال»، وهي ذات وظيفة تيمنية بالرزق والبركة، كما أنها تلعب دورا وقائيا خلال تبادل التحية مع أياد حاسدة). عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، مرجع سابق، ص:185.

2- نفسه، ص: 173.

3- عبد الله بونا، المعتقدات والمعارف الشعبية المرتبطة بالحياة الاجتماعية، «أنموذج قصر أسا»، مرجع سابق، ص: 47.

4- عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، مرجع سابق، ص: 178.

إعجابه بشيء ما، وأن يتم التأكيد علنا على النظرة إلى هذه الخيرات المادية هي بعين «الرّحْمَة»، وليس بعين «الحَسُود»[1].

- كثرة التثاؤب من بين العلامات الدالة على الإصابة بالعين أو بكلام الناس وحسدهم.
- لا يحبذ الصفير داخل المنزل لأنه يحضر الشيطان.
- فرقعة الأصابع غير محبذة.
- الحذاء المقلوب ينبئ عن حظ سيئ أو خبر سيئ.
- وجود حذاء على آخر ينبئ بسفر أحد أفراد العائلة.
- توضع مادة «لْقَطْرَانْ» على أبواب غرف المنزل لإبعاد السموم المختلفة.
- استعمال التمائم والجداول والتعاويد بشكل منتظم للوقاية وكسب الثقة والقبول.
- يفرض الرجوع إلى المنزل مباشرة بعد تقديم واجب العزاء للعائلة، بغية كسب الحسنات ولا يجب زيارة أي منزل آخر حتى لا تصيبهم اللعنة.
- عند وفاة أحد ما يضع أهل الميت أمام المنزل طبقا «تَسْدَلْتْ» به الدقيق والحناء، وبعد تقديم واجب العزاء، تضع المعزية يدها على الدقيق وتخضب يدها بقليل من الحناء، اعتقادا بأن لون الدقيق يجلب الحظ الحسن، والحناء رمز للرحمة والحنان.
- وضع خيط أحمر من الصوف على رموش العين بعد حركة منها، مما ينبئ بسماع خبر ما.

ثانيا: معتقدات ومعارف شعبية للتفاؤل والاستبشار بالخير

- حك باطن اليد اليمنى له دلالة الحصول على المال وعكس ذلك باطن اليد اليسرى.
- عند سقوط أحد أسنان الطفل، يرمى بها اتجاه الشمس ويقال: «هَاكْ أتَفُوكْتْ فِغَامْ أخْسْ أوغَيُولْ فِيِي وِينْ أزُونْكَضْ» بمعنى: يا شمس منحتك ضرس الحمار فامنحيني ضرس الغزال، أملا في نمو أسنان جميلة.
- حك الحاجب الأيمن ينبئ باستقبال ضيف عزيز.
- ضرورة رش أركان البيت الجديد بماء الملح قبل السكن فيه.
- عدم ترك الرضيع نائما وحده من دون وضع آلة حديدية صغيرة بجانبه.

هذه بعض المعتقدات المختلفة بقصر أسا، والتي أفادتنا بها الرواية الشفوية، ونشير إلى أنها كثيرة جدا، والمتأمل فيها يجدها تتمحور إجمالا حول الخير والشر.

1- نفسه، ص:178.

ثالثا: معتقدات ومعارف شعبية مرتبطة بالحيوانات

للحيوانات والطيور والزواحف حضور كبير في المعتقد الشعبي بقصر أسا، استعانت بها الساكنة للتعبير عن مواقف عدة، كما استعمل بعضها في العلاج الطبي الشعبي لمجموعة من الأمراض والإصابات، كما تعاملت الذاكرة الشعبية مع هذه الحيوانات من خلال إسقاط تصرفاتها وتكوينها على ذاته للحكم على الرذيلة والفضيلة، كجانب للتحكيم الاجتماعي الاعتقادي البعيد المدى، من أجل السيطرة على ذهن الإنسان قبل الوقوع في الرذيلة[1]. كما أن للبقرة حضور كبير ومتميز في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لدى الساكنة، وتعد من أهم المواشي التي تتم تربيتها، حيث يتم جلب دقيق الشعير في إناء خاص ويوضع فيه دملج من الفضة لتطأها البقرة كإعلان للدخول إلى الزريبة ليكون دخولها خير وبركة على العائلة[2]، ولمشاركة الجيران فرحة ولادة البقرة تقوم ربة البيت بتوزيع اللّبَأ أو ما يعرف بـ «أتُخْسْ»[3] مع الكسكس على الجيران وتحرص العائلة على ألا يخرج الحليب من المنزل إلا بعد مرور أربعين يوما، ليتم إعداد وجبة «تَكُلاَ» بالسمن الذي يستخرج من الحليب لأول مرة، ليقدم لطلبة المساجد كإعلان عن خروج اللبن من المنزل ليوزع بعدها على الجيران والأحباب[4].

كثيرة هي المعتقدات والمعارف الشعبية المتصلة بالمنزل وعتبته وبالحيوانات والطيور والزواحف، لازال عدد هام منها حبيس صدور الرواة، مما يستدعي إنجاز أعمال ميدانية، تعمل على جمعها وتدوينها والوقوف عند أبعادها ودلالاتها ووظائفها.

رابعا: الماء في الثقافة الشعبية عند ساكنة قصر أسا

يحاط الماء في الثقافة الشعبية المغربية عموما، وعند سكان قصر أسا خاصة بوضع رمزي وحيوي خاص، لذلك نجد له حضورا قويا في ثقافتهم من خلال مجموعة من التمثلات والتصورات الرمزية، تجلت مظاهرها في العديد من الممارسات والظواهر والطقوس، ساهم فيها بشكل كبير تلاقح الثقافات التي تعاقبت على المنطقة والتأثر بثقافات المناطق المجاورة، حيث تتجلي تمظهراتها في دورة الحياة، أو في مختلف المواسم الزراعية، علاوة على ذلك فقد ارتبطت رمزية الماء أيضا بالمعيش اليومي للساكنة كونه يشكل أصل الإنسان وبدونه لا وجود لحياته.

يعد المتخيل الشعبي لساكنة قصر أسا خزانا هاما للعديد من المعتقدات والمعارف الشعبية التي تهدف إلى جلب الخصوبة والبركة من جهة، ورد النحس وإبعاد الأرواح الشريرة من جهة ثانية،

1- عبد الله بونا، المعتقدات والمعارف الشعبية المرتبطة بالحياة الاجتماعية، «أنموذج قصر أسا»، مرجع سابق، ص: 23.

2- نفسه، ص: 23.

3- «أتُخْسْ»: اللبأ ورد تعريفه في قاموس المعجم الوسيط: لبأ الشاة أو البقرة: حلب لبأها، وهو أول الحليب الناتج بعد الولادة ويختلف تركيبه عن الحليب العادي.

4- عبد الله بونا، المعتقدات والمعارف الشعبية المرتبطة بالحياة الاجتماعية، «أنموذج قصر أسا»، مرجع سابق، ص: 23.

ولأجل ذلك لجأت الساكنة إلى العديد من الممارسات، منها ما سبقت الإشارة إليه عند الزواج؛ من قيام العروس بالاغتسال على «أَزَرْكْ» قبل أن تنتقل إلى منزل العريس، وجلبها للماء لمنزلها الجديد من الواد كأول عمل تقوم به بعد الزواج، وقيام العريس بالتوضئ في عين «تَكُرْضَاتْ» بعد ليلة الدخلة، وغيرها من التجليات.

وعلى مستوى المعيش اليومي للإنسان فلا تخفى الأدوار الأساسية للماء في طهارته ونموه وارتواء الأرض وعطائها، هذه الأخيرة تمت الإشارة إلى مجموعة من الممارسات والظواهر التي كانت تقوم بها ساكنة قصر أسا عند موسم الحرث وقلة التساقطات، كـ «بَلْغُنْجَا»، «إمَاغَنْ أوَمَانْ»، «تَوَسَكْسُوتْ» والرش بالماء وتبليل المارة خلال ذكرى عاشوراء، وغيرها من الممارسات والطقوس الهادفة إلى طلب استنزال المطر والأمل في موسم فلاحي جيد.

إن الماء كما هو متعارف عليه في مختلف الديانات والحضارات أصل الحياة، وأساس الطهارة والنمو والعطاء. ولاستمرار الحياة في جسم الإنسان وفي الأرض التي يعيش عليها لابد من الماء، لذلك تعددت المظاهر والطقوس المرتبطة به في المخيال الشعبي بقصر أسا واتخذت صورا كثيرة وتصورات رمزية عديدة تحتاج إلى تعميق البحث حولها لفهمها في إطار السياقات التي توظف بها.

خامسا: الطب الشعبي

حضي الطب الشعبي بمكانة خاصة عند ساكنة قصر أسا قديما، لعلاج العديد من الأمراض، من خلال ممارسات علاجية يعتقد بفعاليتها في الشفاء، تدخل في إطار ما يسمى بـ «الطب الشعبي»، يعتمد فيها على الأدوات التقليدية والكي والأعشاب النباتية المنتشرة والكثيرة الاستعمال، حتى أنه لا يكاد يخلو منزل منها ومن بينها: « إزْرِي»، «أزُوكَنِي»، «تِيزْرِيتْ»، «لْكَمُونْ أدْرَارْ»، «تَغْيَا»، «تَجْمَاغْتْ»، «تِفَرَكِيتْ وَاتِيلْ»، وغيرها.

1 - علاج الكسور

كانت مهارة «التّجْبِيرْ» ممارسة ناجحة لعلاج الكسور، حيث عرف قصر أسا بأشخاص مشهورين ومختصين في علاجها أمثال: ابْرَاهِيم مْبَارك أوبَاهَا بْزِبز، محمد عَدي أهَراس، إجْعِكِي وغيرهم، وذلك باستعمال أدوات تقليدية كالسمن الحي، وجبائر خشبية من القصب ثم القماش وجلد الماعز أو الغنم وغيرها، فعندما تتم معاينة مكان الإصابة، يدهن المكان بالسّمن، فتوضع «تَجْبِرْتْ» وتشد بالقماش، بعد ذلك ينصح المصاب بعدم الحركة لمدة محددة حسب الحالة وبمراقبة منتظمة للمجبر، ولازال العلاج بهذه الطريقة التقليدية الشعبية متواصلا رغم تطور الخدمات الصحية الحديثة، ومرد ذلك هو النجاح الذي عرفته مجموعة من حالات الكسور التي تولى علاجها المجبرون المحليون، وأصبح ذلك جزءا هاما من الطب الشعبي لدى الساكنة.

2 - علاج بعض الأمراض النفسية والعصبية

عرف هذا المرض منذ القدم عند الذاكرة الشعبية المحلية بـ «آيْتْ لَخْلاَ» أي مخلوقات الجن، وارتبط علاجها الشعبي بالفقيه باعتباره الوحيد الذي يستطيع التضييق على الجن حتى يخرج بواسطة قراءاته المختلفة، وإعداده لمجموعة من الأوراق المتضمنة لكتابات يدعو إلى وضعها في فحم مشتعل إلى جانب أعشاب أخرى تستعمل كبخور للمصاب.

وغالبا ما يُعتقد أن تلك المخلوقات فئات شريرة يهابها الناس، مما يدفعهم إلى العمل على إرضائها بالقيام بمجموعة من الممارسات، يعتقد أنها ستقيهم شرها، فمثلا عند بناء بيت جديد تقوم العائلة بذبح ذبيحة عند عتبة الباب، خوفا من أن تستولي عليه هذه الكائنات، ويتم اجتناب كل الأفعال التي يعتقد أنها ستغضب هذه الكائنات كإفراغ الماء الساخن في مكان معين بدون البسملة، وعند طهي الطعام مساء خاصة إذا كان فيه لحم؛ فعند الاحتفاظ به إلى الصباح يتم وضعه في إناء مغلق بإحكام، ووضع قليل من الملح وأداة من الحديد كالسكين على الغطاء، وفي اعتقاد الذاكرة الشعبية أن هذه الممارسات تحفظ الطعام من مثل هذه الكائنات الشريرة.

أشار عبد الرحيم العطري إلى أن هناك في الاعتقاد الشعبي أرواح شريرة مسؤولة أيضا عن مجموعة من أحداث السوء التي تلحق بالمرء، جراء القيام بممارسات خاطئة، كصب الماء الساخن في مجاري المياه، أو ضرب قط ليلا، أو عدم طلب التسليم وسكب الحليب لدى الدخول لأول مرة إلى سكن فارغ، فعبارة «التّسْلِيم»، «مْسَلْمِينْ لَمَوَالِينْ لَمْكَانْ»، تعد الكلمة الطقوسية التي تضمن النجاة «السلامة» من المس المفاجئ الذي يقتحم الجسد وينتقم منه[1].

3 - العلاج بالكي

علاج تقليدي ساد على نطاق واسع كل المجتمعات البدوية بما فيها قصر أسا، ويستعمل لعلاج مجموعة من الأمراض والاضطرابات والصداع والبرد وكذلك الخوف.

من خلال ما سبق؛ حاولنا استعراض مجموعة من المعارف الشعبية التي شكلت جانبا أساسا من التراث اللامادي بقصر أسا، والتي لا زال البعض منها صامدا في وجه مجموعة من التحولات السريعة والمتطورة التي عرفتها المنطقة، ونشير قبل ختم هذه الفقرة أن هذه المعارف الشعبية ما هي إلا قليل من كثير لا زال حبيس صدور الرواة.

1- عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، مرجع سابق، ص: 179.

خلاصة

توقفنا في هذا الفصل عند نماذج من المعتقدات والمعارف الشعبية التي كانت سائدة بقصر أسا، باعتبارها جزء هاما من التراث اللامادي، من خلال ما سمحت به الملاحظة الميدانية والمقابلات التي أجريناها من أجل جمع المعطيات حولها، معتقدات ومعارف شعبية أوجدت لنفسها حضورا قويا بين الأوساط الشعبية، أثرث في سلوك الساكنة، وحركت أفعالهم ومعاملاتهم تجاه مختلف مواقف الحياة اليومية والمناسبات والمواسم، ظواهر وممارسات ومعتقدات ومعارف شعبية امتدت جذورها منذ قديم الزمان، امتثلت لها الساكنة بشكل جماعي، وسعت من خلال ممارستها إلى جلب الخير والسعادة من جهة، وإبعاد الشر والحسد من جهة ثانية، وفي أحيان أخرى طلب المطر وخصوبة الأرض، فشكلت بذلك جزءا هاما من التراث الثقافي اللامادي لساكنة قصر أسا.

يمكن القول بأن شهرة منطقة أسا، كباقي العديد من مناطق المغرب، ساهم فيها احتضانها للعديد من القبور والمزارات والأولياء والصالحين، يرتادها الناس من أجل تحقيق غايات متباينة لها ارتباط وثيق بالجانب النفسي الروحي والاجتماعي والاقتصادي، من خلال هذا عرف المغرب ببلد الأولياء في مقابل الشرق المعروف ببلد الأنبياء فـ «الزِيَارَة» كما أشار إلى ذلك عبد الرحيم العطري باعتبارها ممارسة ترددية على المجالات المقدسة، وفي مقدمتها أضرحة الأولياء، تشير إلى «عادة اجتماعية» تتخذ طابع الضرورة بالنسبة للمجموعة، باعتبارها مؤشرا دالا على الانتماء إليها، وتأكيد احترام تقاليدها و»قوانينها» الرمزية[1].

من جهة أخرى لوحظ تزايد اهتمام الباحثين والاثنوغرافيين والانتربولوجيين بدراسة مختلف موضوعات المعتقدات والمعارف الشعبية، لما توفره من مساحة هامة ومادة خصبة من أجل فهم المجتمعات في علاقتها بالمقدس ببركاته وكراماته، والقيم والمعتقدات السائدة عبر مراحل معينة من التاريخ. من هنا إذن تتجلى الأهمية الكبرى في دراسة وتحليل المعتقدات والمعارف الشعبية، وتفكيك أنساقها ورموزها ودلالاتها، وما تحققه من دينامية نفسية واجتماعية تفاعلت وأثرث بشكل كبير في سلوك الإنسان بشكل خاص.

ونقر في الأخير أن هذه المادة البحتية ليست من باب أو من منطلق السعي إلى تبرير هذا المسلك الاعتقادي، إنما نسعى من خلالها إبراز أهمية البحث في دينامية ورموز وطقوس ومختلف المعتقدات والممارسات التي تعرفها الأضرحة والمزارات، بُغية الوقوف عند مراحل هامة من التراث اللامادي وامتداداته الاجتماعية والثقافية والرمزية بقصر أسا.

1- عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، مرجع سابق، ص: 113.

الفصل الرابع:
الأدب الشعبي وفنون المحاكاة

تمهيد

أكدت العديد من الأبحاث والدراسات التي تناولت «الأدب الشعبي» على أنه من أبرز موضوعات التراث الثقافي اللامادي وأكثرها عراقة وحظا في البحث والدراسة، وحسب محمد الجوهري فإن علم الفلكور كان في مرحلة من مراحل تطوره يقوم أولا وأخيرا على دراسة الأدب الشعبي[1]، ومهما اختلف الباحثون على حدود الفلكلور، فهم لا يختلفون لحظة على أن ميدان الأدب الشعبي يقع في مكان القلب من هذا العلم[2].

كانت نشأة الأدب بصفة عامة شعبية منذ القديم فقبل آلاف السنين كانت كل عائلة أو عشيرة أو قبيلة لاحقا، تتفاهم على نداءات وصيحات وأهازيج.. ترددها أثناء العمل كنقل الحجارة والأغصان لبناء البيت وتحصينه وحفر الخنادق لإبعاد مياه الأمطار أو لتحصين القرية.. ومنها ما يردد أثناء القطاف والحصاد لتنظيم إيقاع الحركات والتغلب على التعب وتوحيد روح الفرد مع روح الجماعة، لتتعاظم قوة الفرد والجماعة معا[3].

وتذهب الغالبية العظمى من الباحثين في التراث الثقافي، إلى أن الأدب الشعبي، قسم معنوي خاص وهام من التراث اللامادي، ويقصد به الأدب الذي يعبر عن مشاعر الشعب وعواطفه ويصور عقليته ونفسيته ويميز شخصيته وعبقريته[4]، كما أنه تعبير عن روح الجماعة وفلسفتها ورؤيتها إلى الحياة، بما فيها من معارف وقيم، ومعتقدات وعادات والأساليب المتصلة بالعيش وغير ذلك من هموم وطموح، وفي ضوء ما سبق يمكن القول أن الأدب الشعبي متداخل بشكل كبير مع باقي فروع التراث الثقافي.

شاعت تسميات عديدة لهذا القسم الهام من التراث الثقافي اللامادي، فإلى جانب الأدب الشعبي هناك من الدارسين من يستعمل مصطلح الأدب الشفاهي، الفن اللفظي، الفن القولي، الأدب الغير مدون، الأدب البدائي، الأدب التعبيري وغيرها وعن سماته، فإنه يتميز بالعراقة والواقعية

1- محمد الجوهري، مقدمة في دراسة التراث الشعبي المصري، مرجع سابق، ص: 42.

2- نفسه، ص: 43.

3- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، مرجع سابق، ص: 83.

4- عباس الجراري، من وحي التراث، مرجع سابق، ص: 118.

والجماعية، كما أننا نجد له حضورا وتداخلا مع العديد من فروع التراث المادي واللامادي.

أجمع الباحثون عند تصنيف عناصر الأدب الشعبي، على أنه ينقسم إلى عدة موضوعات رئيسة منها: المثل، الحكاية، النادرة، اللغز، الأسطورة، الأهازيج، الأغنية الشعبية، الشعر الشعبي، السير الشعبية وغيرها، وتجدر الإشارة إلى أن كل موضوع من موضوعاته يتفرع إلى فروع عدة يصعب حصرها، مما يؤكد على أهمية وغنى الأدب الشعبي وتنوع فروعه، الأمر الذي يتطلب تعميق البحث فيه، خاصة أن الحياة الاجتماعية بالواحة شكلت على مر التاريخ فضاء مناسبا للإبداع والابتكار في مختلف المجالات.

المبحث الأول: «تَنَضّامْتْ»: الشعر

إذا كان الشعر «ديوان العرب» ومنتهى حكمهم، به يأخذون وعن طريقه يعبرون، فلا مجال للشك أن ينطبق هذا المعنى على الشعر وعند الشعراء الأمازيغيين بقصر أسا، فهو أيضا منتهى علمهم، ومن خلاله عبروا عن أغراض ومواضيع شعرية عدة، مشكلا بذلك فنا ملازما لحياتهم الاجتماعية بكل مواقفها.

لعب الشعراء المحليون دورا أساسا في ترجمة مواقف عدة إلى حقائق مستقاة من البيئة والواقع المعيش، متوسلين في ذلك بحسهم المرهف وإدراكهم السليم فضلا عن خبراتهم وتجاربهم المعتمدة على الدقة في ملاحظة الحياة وتغيراتها، من خلال التعبير عما يخالج الوجدان، ومقاسمة المجتمع أفراحه وأتراحه ومعاناته، ومستنهضا همم الرجال والنساء، فالشاعر يفني شخصيته في شعبه، فحياته ومشاعره الذاتية لا تهمه، وإنما يهمه حياة شعبه[1].

شكل شعر «تَنَضّامْتْ» أو ما يعرف في الأدب العربي بشعر النقائض، بحضوره المتميز في الملتقيات والأماسي ومناسبات «أحْوَايْش» منذ القدم، أحد أبرز ألوان الشعر الأمازيغي بقصر أسا، وتتأسس «تَنَضّامْتْ» على حوار شعري بين شاعرين، «إنَضّامَنْ»، وغالبا ما يبدأ الشاعر بالبسملة كفاتحة لما سيليها من أبيات شعرية قد تحمل ذكر مناقب القبيلة ورجالاتها أو هجاء لشاعر آخر، أو افتخار بالذات وإنجازاتها وبالقوم أو الحديث عن قضايا اجتماعية أو اقتصادية تشكل موضوع الساعة، تُنْظَمُ هذه الأبيات على إيقاع شعري وروي وقافية محددة، وبصور شعرية غاية في البلاغة والإبداع، تستلزم من الشاعر الآخر «أنَضّامْ» الرد في الموضوع نفسه والخصائص الشعرية نفسها بطريقة ارتجالية تثير انتباه الجمهور المتتبع.

وإذا عدنا إلى الشعر المحلي، وجدناه عموما يلقى في الملتقيات والمناسبات، أو خلال مزاولة العمل في الحقول، أو عند القيام ببعض الأعمال المنزلية خاصة عند النساء، على أن مناسبات «أحْوَايْش»

1- شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، الطبعة 02، دار المعارف، ص: 159.

شكلت الفضاء الأنسب لظهور أغراض شعرية أصدق في التعبير وأعمق من حيث الدلالة والتصوير.

تعددت المواضيع التي طرقها الشعراء المحليون، منها الشعر الديني، القصصي، شعر المرأة، الشعر الحكمي، الشعر الوطني، شعر الغزل ثم الشعر الاجتماعي، في هذا الصدد عبر الشاعر محمد أورَمْضَانْ بْعَيْك عن فترة المجاعة والشدة التي عاشها سكان قصر أسا قديما[1]، كما تحدث عن أمطار الرحمة التي تلتها قائلا:

إكّاتِينْ يَانْ أوزَمْزْ إصَحّا فَلاّغْ الْحَالْ

السّمْ غِ إخْفْ أَلْكْمَاضْ، إكْشَمْ الصّاعْ نْ تْمْزِينْ

إمِيلْ إعْفُو يَاغْ رَبِي إسْكَرْ نِيتْ التّيَاوِيلْ

أسِيفْ نْ دْرَاءْ يُوسِيدْ لَعْمُوقَاتْ أوَمَانْ

إشَبْعَا نِيتْ أوزَرْك أولاَ كُنّي أيِسَانْ

المعنى: مرت فترات حرجة، اشتد فيها الحال على السكان، سموم الأفاعي بين حبات الزرع الذي نقتاته.. لكن عفو الله كان قريبا وتحقق المراد، فهطلت أمطار الخير والرحمة، ليحرث الناس من جديد.. وتعود الحياة إلى ما كانت عليه فيما قبل، وعم الخير على الجميع.

كان شعراء قصر أسا شديدوا الشغف، لإذكاء حماس الغير بدعوتهم إلى الابتعاد عن المساوئ، ونبذ التفرقة والدعوة إلى الوحدة ومكارم الأخلاق وإشاعة روح التعاون والتعاضد بين مختلف مكونات القصر، فجاءت قصائدهم كثيرة في هذا الشأن، قال أحدهم داعيا إلى التلاحم والاتحاد بين الرجال:

مُونَاتْ أيَرْكَازَنْ ازْرِيغْ أسِيفْ إيمُونْ

غِنَا غِبْضَا إسْكَرْ كِيزْ مِيّا نُوغَرَاسْ

المعنى: اجتمعوا واتحدوا يا رجال كجريان المياه في الواد، فإذا تفرقت مياه الواد تفرعت وأحدثت مائة طريق.

كما تأثر الشعراء المحليون بالقيم الإنسانية العالية، حيث نظمت قصائد، ترفض كل ما بإمكانه أن يمس بإنسانية الإنسان، قال الشاعر محمد أورَمْضَانْ بْعَيْك متحدثا عن الصراع الطبقي[2]:

إسُو كْرَا لَحْرِيرْ إدَلْ سَرْك أوَيَاضْ

1- جلسة بمنزل الشاعر محمد أورَمْضَانْ بْعَيْك سنة 1999.

2- جلسة بمنزل الشاعر محمد أورَمْضَانْ بْعَيْك سنة 1999.

إسُو كْرَا أكَرْتِيلْ إدَلْ سُوفَرْصَاضْ

إلاّ كْرَا أرِقُرْصْ إيزِمَرْ زُونْدْ العِيدْ

أورَادْ سُونْ أتَايْ أرْكِيغْ إتَرْسْ اللّوزْ

تِيلِي تْوَيَا مَاتْ تِيسَنْوَانْ تَوِيتِيدْ

يَلِي كْرَا نَتّا إغِيلْ نْخِيزُو كَاغِيفَرْدْ

إيغْ إسْوَى أسَكّيفْ إتْيَاقَنْ سَ الْوَحِيدْ

تُوتْ تِنْزِي بُوتْمْزِينْ كُويَانْ إنَيَاسْ

أسِيدِي أكِرْحَمْ رَبِي أشْكُو إطّافْ المَالْ

تُوتْ تِنْزِي أمَزْلُوضْ أورْسَرْسْ إيسَاوَلْ يَانْ

المعنى: افترش البعض الحرير واتخذ منه غطاء، والبعض الآخر افترش الحصير واتخذ السماء غطاء، وهناك من لا يعرف إلا ذبح الخرفان كأنه في مناسبات العيد، والخادمات في المنزل للقيام بجميع الأعمال، وهناك من يتناول قطع الجزر ويكتفي بشرب «الحَرِيرَة»، وصاحب المال كل الناس بجانبه، أما الفقير فلا أحد يسأل عنه وعن حاله.

وبالرغم من أن الوسط الاجتماعي المحافظ الذي ترعرع فيه شعراء قصر أسا، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التغزل بالمرأة وجمالها، قال أحدهم:

تَمْغَارْتْ دْ وَدّاكْ نْ تَزَارْتْ إغْ إزْرِي يَانْ

مَقّارْ كِيسَنْتْ أورْ إضَمْعِي إخْزَرْتَنْتْ

ما معناه: المرأة وشجرة «تَزَارْتْ» إذا مر المرء بالقرب منهما، حتى وإن لم يطمع فيهما شيئا، لابد أن يسترق النظر لرؤية جمالهن خلسة.

لقد تعددت المواضيع التي طرقها الشعراء المحليون من خلال إنتاجاتهم الشعرية الغزيرة، فلا تكاد تقف على نص لشاعر ما إلا وتجد فيه ذكرى أو عبرة أو توجيها ما في صور حية ونسق هادئ ولسان عفيف ورأي سديد وبلغة بسيطة قريبة إلى فهم الناس وعميقة المعاني. وبذكرنا للمرأة؛ فقد لعبت المرأة الأمازيغية بقصر أسا أدوارا بطولية في النضال والوقوف في وجه المستعمر، مستعينة بالكلمة الشعرية شأنها في ذلك شأن باقي نساء المغرب في إطار ما يعرف بشعر المقاومة، فإلى جانب الرجل الشاعر عرف القصر نساء شاعرات شكلن اللسان المعبر عن وجدان المجتمع وما كان يعانيه،

خصوصا في فترة وجود المستعمر الفرنسي على الأرض، فناضلت المرأة القصروية هي الأخرى بالكلمة الشعرية، رافضة كل مظاهر العبودية والاستغلال. معبرة عن فطنتها ووعيها بسلطة القول الشعري وأنه مكمن بَوْحِها ووسيلة إثبات وجودها وتصحيح التمثلات الخاطئة عنها[1]. احتفظت الذاكرة الشعبية الأمازيغية بقصر أسا بعدة إسهامات للمرأة في الموضوع؛ قالت الشاعرة «تَبَازِينْتْ» وهي تسب وتلعن القائد الفرنسي الذي كان حاكما على المنطقة يدعى «يُودُو»:

أتَرْنَك سِيدِي يَعَزّى أورْ حَضِيرْنْ

إصَرْدَكْ إسَمْكَنّونْ سُوسَايَسْ

أكُنْ يُوتْ سِيدِي يعَزّى أيْرُومِينْ

القَبْطَانْ يُودُو أيْحَرْك رَبِي أقْبِيلْنَكْ

تحكي الرواية الشفوية أن سبب إنشاد الشاعرة لهذه الأبيات تعود إلى أن القائد الفرنسي «يُودُو» طلب من أحد الحاضرين من ساكنة القصر آنذاك أن ترقص له النساء «رقصة أحْوَايْشْ»، ومن بين المقاطع التي تم ترديدها الأبيات السابقة، ولما سأل القائد «يُودُو» عن معنى هذه الأبيات، كان الجواب بأن النساء يشكرنك على حضورك، فكان رد القائد أن قال: بُوهْ بُوهْ أيْ BON: رائع[2].

احتل الشعر مكانة متميزة من بين الأصناف الأدبية الشعبية الأخرى، وشكل على مر التاريخ أصدق تعبير وأعمق تصوير للمشاعر ومعاناة المجتمعات، ووثيقة تقييمية لتلك السلوكات اليومية المعبرة عن مواجهة كل التحولات التي عرفتها الحياة بقصر أسا، في عشق متناه للشعر ولباقي الفنون الشعبية الأخرى، في هذا الصدد تحكي الرواية الشفوية أن هناك بعضا من الشعراء كانوا يتنقلون في ظروف صعبة إلى المناطق والقرى المجاورة لحضور المناسبات وأماسي «أحْوَايْشْ» هناك ومقارعة شعراء هذه المناطق، إلا أنه سجلنا بكل أسف؛ غيابا تاما لتدوين تلك الأشعار، ليفقد بذلك جزء هام من هذا التراث اللامادي الأمازيغي بقصر أسا، خاصة وأن العديد من الرواة الذين صادفناهم أكدوا على أن قصر أسا عرف بالحضور القوي والمتميز لمجموعة من «إنَضّامْنْ» عند تناولهم لمختلف المواضيع والقضايا المجتمعية.

المبحث الثاني: الأمثال الشعبية

تعتبر الأمثال الشعبية أغزر الأنواع الأدبية الشعبية وأوسعها وأكثرها انتشارا، ويكاد يجمع

1- رشيد سليماني، تجليات الهوية والخصوصية في الشعر النسائي الأمازيغي السوسي، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، محمد آيت حمزة/ الوافي نوحي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 54، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة 2019، ص: 175.

2- رواية شفوية: الحسين بن مولود بن عبد الجليل أحشوش، 56 سنة، من أعيان قبيلة آيْتْ أسا، بتاريخ: 17 ماي 2017.

الدارسون على اعتبارها من أروع ألوان الأدب الشعبي وأصدقها تعبيرا من بين عناصر التراث اللامادي، يعرفها عباس الجراري قائلا: فالأمثال -المْثُول أو المَثْلَات- هي تلك العبارات الموجزة المركزة المستخلصة من تجارب أجيال عاركت الحياة طويلا فاستطاعت أن تقتبس من أسرارها حكم نتيجة بحث حثيث عن معرفة الإنسان والحياة[1]، كما أنها تراث إنساني مشترك، فيها تتجلى حكمة الشعوب، وتبرز خلاصة تجاربها في الحياة، وهي عبارات موجزة دات صياغة صادقة، تحتوي على معنى منتزع من واقع الحياة، هي تكوين لملامح الشعب، وقسماته، وأسلوب عيشه ومعاييره الأخلاقية[2].

يتضح من خلال ما سبق أن الأمثال الشعبية تشكل وسيلة أساسية لترشيد الحياة، ولأجل ذلك جاءت معبرة عن خلاصة تجارب الحياة اليومية البسيطة لدى الشعوب من خلال موضوعات متعددة كالفلاحة، المرأة، الكرم، السخرية، الزواج، الصبر، الحصاد، الطمع، حسن الجوار وغيرها، وفي هذا الصدد يؤكد الباحث المصري محمد علي أبو ريان متحدثا عن موضوعات الأمثال: أنها تعتبر وحدة متكاملة في تعبيرها عن الحياة الاجتماعية الواقعية... فهي تنصب على الأفراد وحرفهم وأخلاقهم وأحوالهم المعيشية والزواج والأسرة والأطفال والحياة السياسية والدينية والاقتصادية ومطالب الحياة اليومية، والحرب والسلم والانفعالات الوجدانية... وغير ذلك من ألوان القيم والفضائل والرذائل[3]، وعلى هذا الأساس يمكن القول إن الأمثال الشعبية تساهم ولو نسبيا في معرفة مناخ المنطقة المتداولة فيها وخصوصياتها، ومؤثراتها البيئية ومعتقداتها السلبية والإيجابية، ومن ثم على نوعية التفكير لدى المجتمع المبدع والمستهلك لها، ومن جهة أخرى أكد عباس الجراري أن هناك حقيقة ثابتة لا يمكن إغفالها أو نسيانها وهي أن لكل شعب أمثالا تنبع من بيئته نتيجة تجارب محلية[4]، وهذا ينطبق على الحياة الاجتماعية في قصر أسا، فجاءت غنية بأمثال شعبية متنوعة من حيث الموضوعات، ونشير إلى أن هذه الأمثال منها ما هو محلي، ومنها ما هو وافد من المناطق المجاورة خاصة بادية سوس، ويرجع ذلك إلى اعتبارات عدة من جملتها ما ذكره الزمخشري بصفة عامة عند حديثه عن الأمثال ومدى انتشارها، مشيرا في الوقت نفسه إلى التشابه الحاصل بينها قائلا: هذه ظاهرة ينتج عنها- حين تتسع- تشابه بين الأمثال عند مختلف الشعوب بفعل تبادل الأسفار والهجرات البشرية والحضارية وتقارب التجارب الإنسانية ووحدة الأصول الثقافية لدى الشعوب[5]، وغالبا ما يبدأ سرد هذه الأمثال بقولهم: «نَانْ وِلّي زْرِينِنْ» ما معناه قال الأولون، وفي هذا الصدد سندرج بعضا من الأمثال المتداولة محليا مع شرحها وتحديد المقصود منها:

1- عباس الجراري، من وحي التراث، مرجع سابق، ص: 31.

2- لويلة بوغنبور، يحي لطف عبد الله العبالي، صورة المرأة البدوية في الأمثال الشعبية بكل من شمال اليمن وجنوب المغرب: دراسة مقارنة، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، مرجع سابق، ص: 150.

3- محمد علي أبو ريان، تصنيف التراث الشعبي ومدى ارتباطه بالعلوم الإنسانية، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، مرجع سابق، ص: 319-320.

4- عباس الجراري، من وحي التراث، مرجع سابق، ص: 32.

5- نفسه، ص: 121.

رر-ت	المثل	شرحه	المقصود منه
01	«وَدّا إنّانْ تَمَغْرَة تَرْخَى يَكْمَاسْ أمَانْ»	من قال بأن تكاليف العرس بسيطة وسهلة فليزوده بالماء فقط وسيرى.	كناية على أن شروط الزواج كثيرة، وكذلك تكاليفه حتى في أبسط جزئياته «الماء» صعبة.
02	«وَدّا إرَانْ أزَالِيمْ إبِيتْ سُخْسَنَسْ»	من أراد البصل فليقطعه بأسنانه.	المقصود به مثلا إذا قال لك أحد اذهب إلى فلان وقل له كلاما ساقطا، فتجيبه أنت لا يا أخي اذهب أنت وقل له ذلك بنفسك: فمن أراد الشر فليقم به هو ولا يدفع الناس إليه.
03	«أورَا تْحَرّكَنْتْ تِزِيلاَ بْلاَ أضُو»	لا يتحرك جريد النخيل بدون رياح.	أن كل حدث لابد له من سبب أو أسباب تكون وراء وقوعه.
04	«إقْضَى إزرّ ي تِنْسْ تَدَشّاشْتْ لَهْلاَ»	قضى «إزري»(*) مهمته ولا تهم «تَدَشَاشْتْ»(*) (*) مناطق فلاحية بوادي درعة	إذا طلب أحد أن تقضي له حاجته، وسيجازيك عنها، ولكنه لم يف بوعده لذلك يقال هذا المثل كناية على الأنانية.
05	«أمُ و يَخْشَنْ وَاكُ و دَ لْمَصْرِيتْ أمّ ا أنْوَالْ وِينْسَ أيْكَا»	رائحة دخان الحطب داخل الصالون مسألة غير عادية، أما المطبخ فهو معروف بها.	العيب في ذلك الإنسان الذي كان معقولا في تصرفاته، ولكن في لحظة ما تغير جذريا، أما ذلك الذي لا يرجى منه شيء فكلما انتظرت منه خيرا إلا وبدر منه الشر كعادته.
06	«إكّوتْ أورَامْ إ الصَدَقَة»	الجمل كثير على الصدقة.	كناية على كثرة الخير الذي يقصد من ورائه الشر.
07	إكُونْ أمُوشْ غْ تَكَاتْ «تكَاتْ »: الفُرْن التَقليدي الكَانُونْ.	نام القط في الفرن التقليدي	عدم إشعال النار في الكانون كناية عن الجوع والفقر وعدم وجود ما يطبخ.
08	«أدُورْ تَسْدَوّارْتْ إزِيكَرْ إتَاكُوسْتْ»	لا تستمر وأنت تلوي الحبل مع الوتد.	يقال هذا المثل : عندما تكون جماعة في حديث جدي ويكون من بينهم أحد يتماطل في قول الحقيقة، فترد عليه الجماعة: قل الحقيقة بدون تهرب.
09	«أورْ تَسْويتْ أيَلّي إسْوَا القَنْدِيلْ أَزَالْ»	لا تساوي ما يساويه ضوء القنديل نهارا.	يقال هذا المثل للشخص القليل الفائدة داخل الأسرة أو المجتمع.
110	«كِينْ أغيُولْ إرُوتْ أنْرَارْ كِيسْ أغيُولْ إرُوتْ أنْرَارْ»	عند القيام بعملية «الدَرْس فإن إزالة دابة أو إضافتها إلى مجموع الدواب لا يعرقل سير العملية.	يقصد بذلك أن الجماعة تغني شخصا واحدا، ولكن الشخص الواحد لن يغني الجماعة ولن يضرها.
111	«أرَ ا ازْدَاكْ إغَ ا تكّاتْ أسْمَامْ»	إما أن تنثر الزرع أو تنظفه.	عملين مختلفين لا يمكن القيام بهما في وقت واحد معا.
112	«أورَاكْ إلِي الخِيرْ غْبُوضْ أقِيلاَ بُوضْ نُو بُوضْ»	ليس الخير في «بُوضْ» فكيف يكون في ابنه	كناية عن الأصل الفاسد الذي لا يثمر إلا الفرع الفاسد.

113	«أجِيتْ أدِلُوحْ إدْرِيمِنْ»	أتركه يمطر النقود	هذا المثل تقوله الأم لابنها الصغير، أتركه يبكي فإن دموعه لن تعطينا النقود لدى فدعه يبكي حتى يسكت.
114	«كَمْسْ أضُ و تَاسْتْ الرِيحْ»	إخزن الريح وحافظ على الهواء.	هذا المثل ينطبق على الإنسان الكثير الكذب، أي أنك لا يمكن أن تأخذ بكلامه كالريح التي لا يمكن الإمساك بها.
115	«نَقَرْ كَمَا انَقَرْ حَشَاشَا»	يمشي ويدق بين المنازل	كناية على الإنسان المتطفل.
116	«إغْ يُومَزْ أسَكِيفْ يَامَزْ غُوكَيُونْسْ»	إذا كانت الحريرة ثابتة ومتمسكة فلتمسك نفسها.	ليس المقصود من هذا المثل الحريرة، وإنما الإنسان الذي ينصحك ويوصيك ولكنه نفسه لا يطبق هذه النصائح، فإن كان يقول شيئا فليقله لنفسه.
117	«أرِي تَرْمَايْ أمُوشْ أورْ تَرْمِي تَنْفُوسْتْ»	يتعب القط دون أن يتعب الغار.	الذي يأخذ دائما لا يقتنع، ولكن الذي يعطي يتعب.
118	«أضَاضْ إمْيَارْنْ أرْكُوكُو أورْ سَارْ إوَرِي»	الأصبع التي ألفت لعق إناء الطعام، لا تستطيع الاستغناء عن هذه العادة.	كناية على الإدمان على فعل الشيء، ومحاولة الإقلاع عنه يصبح أمرا صعب التحقق.
119	«أرَا تَقّلْ سُنَخَرْ أورَامْ أدِ إيدَرْ»	انتظر شارب الجمل أن يسقط.	كناية على الشخص الذي ينتظر أمرا مستحيل التحقق، رغم وجود علامات تحققه مثل شارب الجمل فهو على وشك السقوط، لكن لن يسقط إن لم يسقط مع الجمل.
220	«زِيكْ أدَمْ إدَغْ الصّابْ أمّوشَا»	كان من الواجب طرد القطة منذ وقت مبكر.	وجوب القيام بالعمل قبل فوات الأوان: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد».
221	«أورَاكْ إطِيلْ يَاتْ أ الرَايْسْ»	لا تضيع وقتك أيها الرئيس	هذا المثل تطلقه الذاكرة الشعبية المحلية على ذلك الإنسان الذي يتعب نفسه في عمل لا طائل منه.
222	«أرْ كَا تْسَتِيتْ زُونْدْ تَنَاسْتْ»	تقطر مثل الثقب الموجود في «تَنَاسْتْ » التي تستعمل لتحديد نوبات الماء في الحقول.	يطلق هذا المثل على الإنسان الثرثار الكثير الكلام بلا معنى.
223	«إشِيبْ أعَلاّ إكْ إخْفَنْسْ غْ تِزَانِينْ»	بلغ «أعَلاّ» عتيا من الكبر ولا زال يلعب مع الأطفال.	يقال هذا المثل للشخص الكبير سنا ولا زال يلعب مع الأطفال.

المتأمل لهذه الأمثال، يجدها تتحدث عن موضوعات متنوعة ومختلفة شملت مختلف أوجه الحياة الاجتماعية، مشكلة بذلك مرآة صادقة لأمزجة المجتمع وأخلاقه وعاداته وآثار البيئة وأحوالها الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية، وقبل أن نختم هذا الجانب المتعلق بالأمثال الشعبية، سنقف عند بعض منها مستقاة من البيئة المحلية ومنسوبة إلى أشخاص معروفين محليا، منها قول أحدهم وهو: «بُوجمعة»:

«إنَا خَالِي بُوجمعة إنِي كَا خَرْ إفُو الحَالْ»

ترد الرواية الشفوية هذا المثل إلى شخص يدعى بوجمعة، وهو جزار بقصر أسا، وذات مساء جاءه رجل طلب منه أن يقرضه نصف كيلو من اللحم حتى الصباح، وضع بوجمعة يده تحت رأسه كأنه نائم، فجأة حرك رأسه ثم قال له: أتيني بالنقود فلقد حل الصباح «إِنِي كَا خَرْ إِفُو الحَالْ» أي بمجرد أن تضع رأسك لتنام يصبح الحال، في إشارة إلى أنه ممنوع الطَلَق.

«إِنَا أَمِحِي لاَحْ لْحِيلْتْ»

شخص من ساكنة قصر أسا يدعى «أَمِحِي» كلما أراد أن يقوم بأمر ما، تصادفه عراقيل ولا يجد حيلا ليفك بها مشاكله، يردد هذه العبارة «لاَحْ لْحِيلْتْ»: وما من حيلة لمواجهة الموقف، فأخذت الذاكرة الشعبية هذا المثل عن «أَمِحِي» للتعبير به عن الإنسان المغلوب على أمره.

صفوة القول إن البيئة المحلية أنتجت العديد من الأمثال الشعبية، تداولها الإنسان للتعبير عن مواقف وتجارب عديدة، وتجدر الإشارة إلى أن هناك العديد منها يتم تداوله لا زال لم يدون.

المبحث الثالث: الأحاجي والألغاز والمرددات الشعبية

فيما يتعلق بالأنواع الأدبية الشعبية الأخرى، نجدها تشكل إلى جانب الشعر والأمثال أساس الأدب الشعبي عند مجتمع قصر أسا، وجزءا هاما من التراث اللامادي وتشمل الأحاجي بصورها الجميلة، والنكت التي تبعث على الفرح والضحك، في هذا الصدد تحكي الذاكرة الشعبية[1] عن شخصية «لْخَرّاضْ» الذي كان معروفا بحكاياته وبأخبار الكذب التي يقدمها في قوالب مستملحات، يرتجلها بشكل فوري ومميز؛ مر ذات مساء بالقرب من جماعة من رجال القصر كانوا جالسين بـ «إِمِي نْ سُوقْ»، وبعد التحية والسلام، بادره أحدهم بالقول «لْخَرّاضْ» اليوم لم تحك لنا حكاية أو كذبة، أجابهم ليس لدي وقت لذلك، هناك عمل شاق ينتظرني، سوف أذهب لجمع «تَمُورْغِي» الجراد في أماكن عدة: «إِخْفْ أَدَارْ»، «تَرْكَا نْ تَزَارْتْ»، «تِينَاوِيسْ»، بعدها ترك الرجال مشوشين لم يعرفوا الحقيقة من الكذب في كلامه، ذهب «لْخَرّاضْ» إلى منزله وعاد حاملا الأكياس والأدوات المستعملة في الإمساك بالجراد، ومر بالقرب من الجماعة فتأكدوا بذلك من جدية الأمر، وقام «لْخَرّاضْ» بجولة بين أزقة القصر وعاد إلى منزله لينام، تاركا الجماعة يتسابقون في اتجاه الأماكن المحددة من طرفه والتي يتواجد بها الجراد من أجل الحصول على نصيبهم منه، من المساء حتى الصباح وبعد جهد مضن وتعب، فوجئ أفراد الجماعة بعدم وجود الجراد، وبعد عودتهم واستفسارهم له لماذا فعلت بنا هذا؟ أجابهم: «أنتم من طلبتم مني كِذْبة اليوم»، واستقبل الجميع كذبة «لْخَرّاضْ» بالضحك، لذلك عُرف لدى الساكنة باسم «لْخَرّاضْ».

وتشمل الثقافة الشعبية المحلية أيضا الألغاز باعتبارها وسيلة لتدريب ذكاء الكبار والصغار، والتنشئة على التفكير وإدمان النظر في المشكلات، ثم القصص والحكايات الشعبية والخرافات التي

1- رواية شفوية: المرحوم امبارك ابراهيم ابريك، من ساكنة قصر أسا، 69 سنة، بتاريخ: 2002/03/23.

تحكى للأطفال الصغار، والتي شكل فيها «لْغُولْ» أو ما يسمى محليا بـ «تَغْزُونْتْ» البطل الرئيس، ومن جهة أخرى شكلت الأهازيج والمرددات الشعبية[1] أهم تجليات التراث اللامادي، وهي عبارة عن مقطوعات قصيرة تؤلفها الجماهير وترددها في مختلف المناسبات: في الأفراح والمآتم والوطنيات وغيرها، وتتغنى بها الأمهات عند مداعبة الأطفال الصغار والترفيه عن النفس أثناء القيام بأشغال المنزل أو العمل في الحقول، ومنها أيضا الأحاجي «تِيحَاجَتِينْ»: «إدّا أكْضِيضْ أدْ يَاكَمْ، يُوتْ أسَنّانْ، إنَيَاسْ مَانْزَا أسَنّانْ، تَنَايَاسْ تَشّاتْ لَعْفِيتْ، إنّايَاسْ مَنْزَا لَعْفِيتْ، تَنَايَاسْ سَنْسَانْتْ وَمَانْ، إنَايَاسْ مَانْزَا أمَانْ، تَنَايَاسْ سَوَانْتَنْ لَبْهَايَمْ، إنَايَسْ مَنْزَا لَبْهَايَمْ، تَنَايَاسْ غْلِينْ سْتَاكَانْتْ، إنَايَاسْ مَانْزَا تَكَانْتْ، تَنَايَاسْ إبّيتْ أكَلْزِيمْ، إنَايَاسْ مَانْزَا أكَلْزِيمْ، تنَيَاسْ يِوِيتْ عْلِي يَبّا، إنَايَاسْ مَانْزَا عْلِي يَبّا، تَنَايَاسْ، تَنْغَاتْ تَكُلاَ دُوغُو سَمّومَنْ»، أحاجي تحكى للأطفال من أجل التسلية والترفيه.

خلاصة

إن الغاية من سردنا لبعض من نماذج الأدب الشعبي بقصر أسا - وهي أكثر من أن تحصى- نسعى من خلالها إلى الإلمام ببعض جوانبه وإبراز غنى وتنوع هذا القسم من التراث اللامادي، الذي يدخل ضمن الثقافة الشعبية الجماعية العامة، فبعض من عناصره لا يمكن أن يسند تأليفه لشخص معين، وإنما يبقى نتاجا شعبيا جماعيا.

وفي الجانب المتعلق بالمرويات والمرددات والأهازيج الشعبية التي أشرنا إليها في الفصل المتعلق بالتقاليد والعادات، وجدنا جانبا هاما منها تعرض للنسيان وإهمال حامليه، مما يستدعي تظافر الجهود من أجل تدوين ما تبقى منها في صدور من هم لا زالوا على قيد الحياة، فالتراث الشفوي يعد بمثابة ذاكرة جماعية وسجلا حيا لتاريخ المنطقة وجب الحفاظ عليه[2]، من خلال التركيز على تدوين المرويات الشفوية التي لم تدون بعد، خاصة وأن رواتها في تناقص مستمر، كما أن للتطورات الاقتصادية والثقافية والإعلامية ولأساليب العيش دورا في تهميشها وتهميش رواتها وحفظة التراث بوجه عام.

إن من شأن جمع وتدوين كل موضوعات الأدب الشعبي بقصر أسا؛ الانتقال بثقافته من ثقافة شفوية إلى ثقافة ذات هوية كتابية، تشكلت على مر التاريخ، لتصبح نتاجا جماعيا لخص تجارب ومواقف حياة الواحة عند ساكنة القصر قيلت ليعتبر بها الأبناء والأحفاد والأصدقاء وعامة الناس في قادم الأيام.

1- سبقت الإشارة إلى العديد من هذه الأهازيج والمرددات الشعبية في الفصول السابقة، خاصة منها المتعلقة بتقاليد وعادات دورة الحياة «ولادة، زواج، وفاة»، أو تلك المرتبطة بالأعياد الدينية والمواسم الزراعية.

2- حسن أميلي، عبد الكريم التزرني، التراث الشفوي بواحات درعة الوسطى سبل المحافظة وآفاق التثمين، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، مرجع سابق، ص: 378.

الفصل الخامس:
الفنون الشعبية والثقافة المادية

تمهيد

تصنف الفنون الشعبية والثقافة المادية ضمن القسم الرابع من أقسام التراث الشعبي، وهي تعد أهم ركائز التراث اللامادي، لما تختزله من إرث تاريخي عريق ينتقل بالتواتر من جيل لآخر مع تطعيمه بالمستجدات التي يعرفها كل جيل[1]. إن محاولة التحدث عن تاريخ أي فن من الفنون المغربية ليست في الواقع إلا ملامسة لجانب من جوانب التاريخ المغربي[2]، لذلك حضيت الفنون الشعبية بالدراسة والبحث والاهتمام من لدن الباحثين، فهي ترتكز على أشكال تعبيرية تعكس علاقة الفرد أو الجماعة ببيئته، كما أنها تعبّر عن الفكر السائد وما يخالج الضمير الإنساني من خلال تقديم صور صادقة من مختلف الجوانب والمستويات، في حين تعد الثقافة المادية نتاجا ماديا للمجتمع، يهدف إلى تحقيق غايات نفعية تخدم الإنسان والمجال الذي يعيش فيه.

لاحظ محمود مفلح البكر أن هناك تباينا على مستوى تصنيف موضوعات الفنون الشعبية، ومرد ذلك حسبه راجع إلى طبيعة المادة الشعبية التي كثيرا ما تكون محيرة للباحثين، نظرا لصلتها بالفنون الشعبية من جهة، وبالثقافة المادية من جهة ثانية، وبالتالي يصنفها كل باحث حسب نظرته للموضوع والزاوية التي ينظر منها وطبيعة الموضوع في تراثه الوطني والخلفية الفكرية للباحث وغير ذلك من مؤثرات[3].

تمتاز الفنون الشعبية بخصائص عدة لعل أبرزها كونها فنا جمعيا جماهيريا واسع الانتشار ولا ينسب لأسماء بعينها، يتوارثها جيل عن جيل، مما جعل جذورها تمتد في أعماق التاريخ، ولموضوعاتها ارتباط وثيق بمجموعة من القيم والمبادئ، فضلا عن ارتباطها الوثيق بمراحل دورة حياة الإنسان، وبالمناسبات والأفراح ومواسم الحصاد وغيرها، وتجدر الإشارة إلى أن الفنون الشعبية تظل مفهوما واسعا يشمل الكثير من الموضوعات، تختلف من شعب لآخر ومن بلد لآخر، تبعا للبيئة والوسط اللذين تنشأ فيهما، واعتبارا لأهميتها ما يزال الإنسان يتمسك بها ويسعى إلى الحفاظ عليها.

1- حسن أميلي، عبد العزيز بويحياوي، مساهمة التراث اللامادي في تدعيم السياحة بتافيلات، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، مرجع سابق، ص: 270.

2- عبد الجليل عبد العزيز، مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 65، ماي 1983، ص: 07.

3- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، مرجع سابق، ص: 91.

واقترح محمود مفلح البكر تقسيما للفنون الشعبية كالتالي:

- الموسيقى الشعبية، وتشمل الآلات الموسيقية، وحسب البكر ينبغي تقديمها لأنها شكلت منذ القديم الأساس في الموسيقى، فقد كان الإنسان القديم يضبط الإيقاع بالتصفيق، وضرب الأرجل على الأرض واستعمال بعض الأدوات الخشبية والعظمية والحجرية والفخارية والجلدية[1].
- الموسيقى المصاحبة للأغاني على أنواعها، كموسيقى الأعراس، العمل، السمر وغيرها.
- الرقص الشعبي، ويشمل الرقصات الشعبية الجماعية والفردية بما فيها رقصات الأفراح والمناسبات وغيرها.
- الألعاب الشعبية، وتشمل ألعاب الأطفال، الكبار، ألعاب التسلية وغيرها.
- الفنون التعبيرية أو الدراما الشعبية، وتشمل فنون الفرجة، التمثيليات الشعبية وغيرها.
- التشكيل الشعبي، ويضم الأزياء الشعبية من أزياء الصغار، الكبار رجالا ونساء، سواء في الحياة اليومية أو في المناسبات المختلفة.
- وسائل الزينة، وتنوع أدواتها وطرق استعمالها والغاية من ذلك، من قبيل الكحل، الحناء، السواك، الطيب، النيلة، وكلها وسائل مساعدة على تنظيف الجسم وتطييبه وتزيينه، فضلا عن الحلي.

سنحاول في هذا الفصل الوقوف عند مجموعة من مظاهر الفنون الشعبية والثقافة المادية المميزة للحياة بقصر أسا، مؤكدين أن الموضوع غني جدا بمجموعة من التعبيرات المجسدة لشخصية وهوية الإنسان وارتباطه الأصيل بالأرض والواحة.

المبحث الأول: الفنون الشعبية

تشغل الفنون الشعبية مساحة هامة من التراث اللامادي، فهي تعكس تفاعل الإنسان مع محيطه الطبيعي والبشري منذ القديم، وحسب العديد من الباحثين والمهتمين يصعب تحديد البدايات التاريخية الأولى لظهورها بالمناطق الأمازيغية، خاصة رقصة «أحْوَايْشْ» التي تدخل في إطار الرقص الجماعي، إلا أن ارتباطها بمختلف الأعياد الدينية والمناسبات الاجتماعية والوطنية، فضلا عن حضورها في الفرجة الجماعية التي توافق وتطبع دورة الحياة الزراعية، يعد مؤشرا على أن شعوب هذه المناطق مارستها منذ زمن بعيد.

في هذا الصدد شبه بعض الدارسين هذا الرقص الجماعي المعتمد على التصفيق والصياح والضرب على الأرض بالأقدام، برقص الخصب الذي كان منتشرا في بعض البلاد والأقطار الإفريقية،

1- نفسه، ص: 91.

فهو يمثل العاصفة بما تحمل من رياح ورعود وأمطار، ويذهبون إلى أن تحريك الجسم بما عليه من حلي وثياب يحاكي صوت الرياح، وأما الضرب بالأقدام على الأرض يحاكي صوت الرعد، وأن التصفيق يحاكي صوت المطر وأن الصياح إعلام ببشرى نزول الغيث[1].

أولا: الرقص والغناء

كما هو الشأن عند جميع الأمم، على مر التاريخ جسد الرقص انعكاسا للتفاعل الإنساني مع محيطه الطبيعي والبشري، تفاعل سعى من خلاله الإنسان إلى التعبير عن همومه وآلامه وآماله وأحاسيسه، في إطار جماعي مجسد للحياة الثقافية والفكرية والوجدانية السائدة. رقصة «أحْوَايْش» بقصر أسا لم تخرج هي الأخرى عن هذا السياق، فهي ليست مجرد رقصة عادية كما قد يعتقد البعض، بل تجسد لوحة فنية كل شيء فيها يوحي بالانضباط والاحترام حتى مستوى التقديس.

1 - رقصة «أحْوَايْش»

يعد «**أحْوَايْش**» من أشهر فنون الرقص الشعبي الجماعي، المميزة لمجموعة من المناطق الأمازيغية، خاصة مناطق سوس وواحات باني ودرعة إلى تخوم الصحراء الشرقية بتافيلالت وواحات زاكورة وغيرها، وعلى الرغم من أن «أحْوَاش» يظل المصطلح الجامع لهذه الرقصة في عدة مناطق، إلا أنه تعددت التوصيفات المعجمية المستعملة للدلالة عليه كـ «دَرْسْتْ»، «لَهْضَرْتْ»، «أكْوَالْ»، «أقلاَلْ»، «أهْنَاقَارْ»، «أجَمّاك»، «أهَيَاضَنْ»، «أعَوَادْ»، «أشَرْكَاوِي»، «نَاقُوسْ»، «تَرَحّالْتْ» وغيرها، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فغالبا ما يكون التداول الشعبي لفنون «أحْوَاشْ» مقرونا بأسماء المناطق أو القبائل التي تنسب إليها الفرقة، فمثلا «أحْوَاش تِيسِينْتْ»، «أحْوَاش تُوزُونِينْ»، «أحْوَاش أزْرُو نَتْمَنَارْتْ «بإقليم طاطا، «أحْوَاش أوْلُوزْ «بإقليم تارودانت، «أحْوَاش إمِنْتَانُوتْ» بإقليم شيشاوة ثم أحْوَايْش قصر أسا بإقليم أسا الزاك وغيرها.

تتهادى رقصة «أحْوَايْش» التي غالبا ما يكون فيها الراقصون وقوفا على شكل صف متراص على شكل هرم[2]، على إيقاع جماعي منسجم وتعبيرات جسدية عبر حركات وركزات متناسقة ومنسجمة لليدين والأرجل والكتفين، مع تقسيم مضبوط لمستويات انتقال الإيقاع بسلاسة من مستوى ثقيل في الأداء واللحن والحركات، إلى آخر خفيف بضربة على الدف من طرف عضو محدد من بين أعضاء الفرقة، وفي بعض الأحيان يتوقف الغناء ليتم الانتقال إلى إيقاع أكثر خفة يطلق عليه رقصة «تْسِيّيسْ» يضبط إيقاعها «لْعَوَادْ» وفق أداء جماعي يأخذ بمجامع النفوس، وللراقصين دور

1- عباس الجراري، من وحي التراث، مرجع سابق، ص: 112.

2- تمت الإشارة في مؤلف مكنز التراث الشعبي المغربي إلى أن هيئة أداء رقصة أحْوَايْش عادة ما تكون على أشكال: هيئة المستقيم، هيئة القوس، هيئة قسمان متقابلان، هيئة دائرة مغلقة، وبقصر أسا تكون على شكل هرم.

آخر متمثل في ترديد المقطع الأخير لكل شاعر في انتظار رد الشاعر الآخر. ورغم أن الرقص يكون جماعيا وموحدا في «أحْوَايْش»، إلا أن ذلك لا يمنع من وجود مهارات فردية لراقصين تضفي لمسة خاصة على الفرقة. و«أحْوَايْش» له طقوس وشروط وخصائص وأدوات وآلات ومميزات فنية وجمالية لا يكتمل إلا بوجودها منها:

أ – المناسبة

ارتبط تنظيم «أحْوَايْش» بقصر أسا منذ القديم بالفرحة الجماعية التي توافق وتطبع دورة الحياة الزراعية وأيضا بالأعياد الدينية ومختلف المناسبات من زفاف وختان وحج وعرس ختم القرآن الكريم وغيرها، وقد يؤدى بدون مناسبة في بعض الأحيان، فقط من أجل الفرجة والسمر والطرب.

ب - المشاركون أو أعضاء الفرقة

تحتضن مدرسة «أحْوَايْش»[1] جميع أطياف المشاركين، وينخرط فيها عدد غير محدود بكل عفوية وتلقائية، تختلف أعمارهم ومهنهم وطبقاتهم الاجتماعية ومستواهم المعرفي، ومدى معرفتهم بتفاصيله وخصوصياته، يقف الكل جنبا إلى جنب في احترام وانضباط تامين لطقوسه. كما أن رقصات «أحْوَايْش » إما أن تكون خاصة بالذكور أو الإناث، وقد تكون مختلطة بينهما خاصة الفتيات العازبات، وتجدر الإشارة إلى أن «أحْوَايْش» قصر أسا قديما كان يتم بشكل جماعي بين الفتيات والرجال قبل أن يتم الفصل بينهما في الآونة الأخيرة.

وللحديث أكثر عن الجانب المتعلق بأسماء المشاركين في رقصة «أحْوَايْش» ومهامهم، ضم مؤلف مكنز التراث الشعبي المغربي تفصيلا لذلك جاء على الشكل التالي[2]:

- أمَحْوَاش: يستعمل للفرد الواحد المشارك في أحْوَايْش.
- تَمَحْوَاشْتْ: يستعمل للواحدة المشاركة في أحْوَايْش.
- إيمَحْوَاشَنْ: يستعمل لجماعة الذكور المشاركين في أحْوَايْش.
- تِيمَحْوَاشِينْ: يستعمل لجماعة الإناث المشاركات في أحْوَايْش.
- آيْتْ أوحْوَاش: يستعمل لأهل أحْوَايْش المشاركين فيه من شعراء وموقعين وراقصين.
- أمَارِيرْ أو أنَضّامْ: الشاعر.
- إينَقَّارْنْ: الموقعون.

1- أنظر الصورة رقم 33.

2- السعدية عزيزي، سعيد أيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، مرجع سابق، ص: 330/329.

- الرْوَايَسْ نْ تِيلُّونَا: يستعمل للمجموعة الإيقاعية التي تتولى التوقيع على البنادر، من أجل التحكم في ضبط الحركات وأوزان الألحان عند الغناء سرعة وبطئا.

- إيمْسُوسَنْ: يستعمل للمجموعة الراقصة.

- مْقَدم أحْوَايْشْ : ويستعمل للشخص الذي تتمثل مهمته في تنظيم المجموعة الراقصة وتسييرها وتوجيهها والإشراف على الحفل بشكل عام.

صورة رقم 33: فرقة أحْوَايْشْ قصر أسا. من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

ج - «رَايْسْ لْعْمْتْ»

يعرف محليا بـ «رَايَسْ لْعْمْتْ» وفي مناطق أخرى بـ «أعَلاّمْ»، يلعب دور قائد الفرقة وإن شئنا هو بمثابة «المَايْسْتْرُو»، له حضور اجتماعي في القبيلة وخبرة بالرقص والإيقاع والحركات وحتى الشعر «تَنَضّامْتْ»، تتوزع أدواره بين ضبط أعضاء الفرقة أثناء أدائها للرقص والسهر على تنظيم كل الشؤون المتعلقة بها، تصدر منه إشارات وإيماءات في صمت يلتقطها الأعضاء بسرعة ودقة وانتباه، كما أنه لا يتوانى في تقديم النصائح والتوجيهات للمبتدئين، الذين غالبا ما يتم وضعهم في أحد أطراف الفرقة حتى لا تظهر العيوب على مستوى تناسق وانسجام حركات الفرقة لدى الجمهور.

د - الآلات الإيقاعية

تلعب الآلات الإيقاعية دورا هاما في تقديم لوحة فنية متكاملة «لأحْوَايْشْ» وقد تختلف هذه الآلات من منطقة لأخرى، وعلى مستوى «أحْوَايْشْ قصر أسا» يتم توظيف الآلات الإيقاعية التقليدية التالية:

▪ «ݣانْݣا»: الطّبْل[1]، عبارة عن إطار أسطواني كبير الحجم غالبا ما يتم لفه بجلد البقر يحدث صوتا متميزا عن صوت الدفوف.

صورة رقم 34: «ݣانْݣا». من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2014)

▪ «تِيلّوذَا»: مفرد «تَالّونْتْ» أي الدفوف[2]، وهي عبارة عن إطار خشبي «أكّنْزَا» دائري الشكل وصغير الحجم يتم لفه بجلد حيواني خاصة جلد الماعز، يحدث أصواتا مميزة ومنسجمة مع إيقاع «ݣانْݣا».

صورة رقم 35: «تَالُّونْتْ». من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2014)

▪ النّاقُوسْ[3]: عبارة عن قطعة حديدية تقرع بقضيبين من حديد.

1- أنظر الصورة رقم 34.
2- أنظر الصورة رقم 35.
3- أنظر الصورة رقم 36.

الصورة رقم 36: «النّاقُوسْ». من أرشيف عبد الجبار إحشاش (14 أكتوبر 2014)

- «لْعْوَادْ»[1]: الناي غالبا ما يتم توظيفه في رقصة «تْسِيّيسْ» المميزة لـ «أحْوَايْشْ قصر أسا».

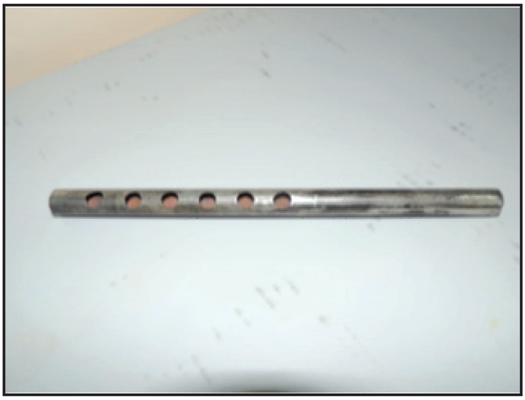

الصورة رقم 37: «لْـعْـوَادْ». من أرشيف بلعيد سواخ (18 ماي 2018)

ونشير إلى أن الحلي التي ترتديها النساء تضفي هي الأخرى إيقاعا متميزا على «أحْوَايْشْ».

هـ - «إنْضّامْنْ»

لاشك أن مناسبات «أحْوَايْشْ» شكلت منذ القديم مناسبات لتلقين القيم وتنمية الوعي الجمعي والتأطير والتوجيه وتربية الذوق، فضلا عن التربية على التعاون والتعاضد والحضور الإيجابي للشخص في المجتمع، ولعب الشعراء «إنْضّامْنْ» دورا كبيرا في تكريس هذه القيم من خلال ما يبدعونه من أشعار وما يطرحونه من قضايا ومواضيع مجتمعية راهنة، بأغراض شعرية وبأسلوب شعري دال وحمال للمعاني والقيم الإيجابية.

1- أنظر الصورة رقم 37.

وحتى يصل الشاعر إلى مستوى «أنَضّامْ» بحمولته الفكرية والإبداعية ويصبح له حضور وسمعة بين أوساط المتتبعين، عليه أن يمر بمراحل عدة وأن يكون متمتعا بسرعة البديهة وبذاكرة حفاظة للأشعار ومعانيها، متسما بالفورية والتلقائية والندية في نظم الشعر، مُلِما بقضايا وشؤون المجتمع، مواكبا لكل التحولات التي تقع ليس فقط على المستوى المحلي أو الجهوي أو الوطني بل وحتى العالمي وتأثيراتها الإيجابية أو السلبية على المجتمع، فضلا عن الجودة في الصوت والأداء وغيرها من الصفات والمحاسن، وتجدر الإشارة إلى أنه في بعض الأحيان لا تخلو المساجلات الشعرية من مخاصمة بين «إنَضّامَنْ»، مما يستدعي تدخل شاعر آخر أو أحد أعضاء الفرقة لإيقاف المقابلة بمقطع يدعو فيه إلى تحكيم العقل وضمان أجواء الفرح والإمتاع.

وتستحضر الذاكرة الشعبية بقصر أسا أسماء عدد كبير من الشعراء «إنَضَامْنْ» كان لهم حضور شعبي متميز بين أوساط الساكنة، نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر بالنسبة للرجال: لَحْسَن أمحمد الزّبُور، لَحْسْن أحْمَادْ بَاسُو بُوغدا، محمد امبارك أنِيرْ، محمد أورَمْضَانْ بْعَيْك، لَحْسَن أوبْرَاهيم تِيكَا وغيرهم، وعند النساء مَغْنِيَة أنِير، دَادَا تَبَازِينْتْ، فَاطمة أمحمد الزّبُور، حُورِيَة بَنْ بَا، تَوَيَة بَنْ بَا، مَيَنَة ابْرَاهِيم وغيرهن.

وجرت العادة أن يفتتح «إنَضَامَنْ» مساجلاتهم الشعرية بالبسملة والصلاة على رسول الله ﷺ وطلب التّسْلِيمْ والعون والتوفيق من الله، ومنهم من يتوسل ببركة الأولياء والصالحين، بعدها يتم الدخول في الموضوع الذي يرى الشاعر أهميته وراهنيته، وفي هذا الإطار تنوعت المواضيع والقضايا التي تناولها شعراء قصر أسا بين السياسية والاجتماعية والدينية والثقافية والتنموية والاقتصادية وحول كل الأمور ذات الصلة بحياة القبيلة وعلاقتها بالقبائل الأخرى وبالأرض، في تفاعل إيجابي وبمعان ودلالات عميقة وراقية سيرا على نهج «إنَضَامَنْ» الأوائل، في مسعى حثيث لنقل وغرس القيم والخصال الحميدة في نفوس الناشئة. والجدير بالذكر أن لهجة «تَشَلْحِيتْ» هي المستعملة في الإبداع الشعري المحلي «تَنَضّامْتْ».

و - الفضاء والجمهور

شكلت فضاءات «أسَايَسْ» أماكن خاصة لاستقطاب جم غفير من الجماهير العاشقة لفنون «أحْوَايْش» من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية، أهمها الساحات العمومية كـ «أنَامَرْ»، «أكْلاكَالْ»، «تِشَرّفِينْ»، «أنْرَارْ أهمُو»، «إمِي مُولاَيْ بْرَاهِيم» وغيرها.

ومن موقعه يساهم الجمهور بشكل كبير في إغناء أماسي «أحْوَايْش»، لما يقدمه من تشجيع وحماس للفرقة و«لإنَضَامَنْ» على حد سواء، فضلا عن تفاعله مع الأشعار والرقصات الجماعية، وفي هذا الصدد تحدثت الذاكرة الشعبية عن التأثير الكبير لهذه الأشعار في نفوس الجمهور، يرددها الكبير

والصغير، الرجل والمرأة[1]، وفي أحايين كثيرة يلعب الجمهور المتتبع دور الحكم عبر آرائه وانتقاداته البناءة التي يوجهها للفرقة بشكل جماعي أو لأفرادها، وفي حالة أبدع أحد الشعراء يقوم الجمهور بتعليق نقود من طرف الرجال أو الحلي من طرف النساء عربون اعتراف وتقدير وشكر له. وتحكي الرواية الشفوية[2] أنه كلما حلت مناسبة ونظمت فيها أمسية «أحْوَايْشْ» كان أحد رجالات القصر المعروف بـ «عُمَارْ أعْلِي مَسْكِينْ» يرتدي أبهى ملابسه ويتقدم صوب الفرقة في احترام وإكبار وهي ترقص، ويقدم لها التحية ثم بعد ذلك ينسحب.

ولجلسة «أحْوَايْشْ» بقصر أسا طقوس خاصة وضرورية لا تكتمل إلا بوجودها، منها صينية الشاي و«مْبَخْرَة» خاصة بالبخور، وصينية «لَمْرَشَاتْ» المعبأة بماء الزهر والورد، كل ذلك ضروري ليمر الاحتفال في أجواء مفعمة بالفرح والبهجة والحيوية، يتفاعل معها الجمهور الذي يملأ جنبات الفضاء المحتضن «لأحْوَايْشْ»، منهم من يفضل الجلوس في الوسط ومنهم من يجلس في الجنبات، كما تخصص أماكن للنساء، اللواتي لا يتوانين عن إشعال حماس أعضاء الفرقة وتأثيث أجواء الحفل بالزغاريد «تَاغْرِيتْ»، وتزداد الأجواء جمالية بفوح رائحة «لَحْبَاقْ» عند توزيعه على أعضاء الفرقة.

ز - الزي والحلي

تكتمل لوحة «أحْوَايْشْ» في وحدة الزي التقليدي الذي يرتديه أعضاؤها، وهو الزي الرسمي المميز لساكنة قصر أسا، والمكون أساسا من «الجِلْبَابْ»، «تَقَشّابْتْ»، «أدَرّاعْ»، «إدُوكَانْ»، «رَزّة» ثم الخِنْجَر «لْكُمِيتْ» ومنهم من يحمل معه «أقْرَابْ» وهو عبارة عن محفظة من الجلد مزركشة لها خيط من حرير توضع على الكتف، أما عند النساء فتستعمل أزياء «أحَايَكْ» «تَمَلْحَافْتْ» «نّكْشَة»، والعديد من الحلي التقليدية التي عادة ما تتكون من القطع الفنية المسبوكة وغيرها، وللإشارة فتلك الحلي تضفي هي الأخرى إيقاعا متميزا على أحْوَايْشْ في كثير من الأحيان. أزياء متناسقة ومتقاربة في الألوان موسومة بالطابع المحلي، تبرز بجلاء وجه الانضباط لطقوس «أحْوَايْشْ»، وتؤكد حرص المشاركين على ضمان جمالية أروع للوحة «أحْوَايْشْ».

أخيرا؛

يظل «أحْوَايْشْ» بحمولاته الرمزية والتراثية، من التراث اللامادي العريق بالمناطق الأمازيغية عامة، قصر أسا خاصة، والذي واكب حياة الإنسان في مجمل مظاهرها الاحتفالية ذات الصلة بدورة الحياة، أو المواسم الزراعية وغيرها، جسدت ما وصلت إليه مجتمعات الواحات من رقي فني وتعبير تراثي ثقافي راق، ومن انضباط وصرامة منسجمين وخصوصيات الحياة الاجتماعية الواحية المبنية أساسا على الخلق والإبداع والصرامة والانضباط والتعاون.

1- رواية شفوية، المهدي بن محمد بن امبارك المتوكل، 55 سنة، من ساكنة قصر أسا، بتاريخ: 22 ماي 2017.

2- رواية شفوية، الحسين بن مولود بن عبد الجليل أحشوش، 56 سنة، من أعيان قبيلة آيْتْ أسا، 22 ماي 2017.

حاولنا من خلال ما سبق، تقريب القارئ من الأجواء العامة التي عرفتها أماسي «أحْوَايْش» قديما بقصر أسا، قبل أن تفقد بعضا من تلك الخصوصيات، نتيجة التحولات التي عرفتها حياة الساكنة، ووفاة العديد من رواده الأوائل، ورغم ذلك يمكن القول بأن «أحْوَايْش» قصر أسا لا زال يشكل جزءا هاما من التراث اللامادي الذي ساهم بشكل كبير في تمتين روابط التعاون والمودة الاجتماعيين بين مختلف الممارسين والمبدعين كما الجمهور وعموم مكونات قصر أسا والمنطقة بصفة عامة، ونشر الوعي الجمعي وتعزيز ثقافة الاعتزاز بالانتماء حفاظا على الهوية الأمازيغية للساكنة.

بإجراء مقارنة بسيطة بين الأمس القريب لفن «أحْوَايْش قصر أسا» وواقعه الحالي، يلحظ المتتبع انخراط واهتمام عدد هام من الشباب فيه كمعطى إيجابي، في مقابل وجود الكثير من المظاهر الدخيلة التي أساءت إليه كمعطى سلبي، مما يستدعي تكثيف الجهود من أجل الحفاظ عليه.

2 – رقصات أخرى

وهناك أيضا رقصة أخرى يؤديها الرجال كما النساء تدعى «شَطْحَة»[1]، وتتميز بالجلوس الجماعي للعناصر المشاركة على شكل حلقة يتوسطهم أصحاب الإيقاع خاصة النّاقُوس، الدّفُوف وكَانْكَا، وتبدأ هذه الرقصة بإلقاء أحد المقاطع الشعرية أو ما يعرف بـ «تِيتْ» من طرف أحد المشاركين، وغالبا ما يكون المقطع الذي سيتم ترديده مواكبا لمناسبة الاحتفال، منقسمين في ترديده بالتناوب إلى قسمين، ويستمر ذلك مدة وفق إيقاع خفيف ومتميز، وتختتم هذه الرقصة بإيقاع «تْسِيّيسْ»، ونشير إلى أن الفتيات يقدمن إلى جانب الشبان عروضا متميزة من الرقص وتحريك الكتفين. إن الرقص كما عبر عن ذلك عباس الجراري من أعظم الوسائل التي عبر بها الإنسان عن أحاسيسه وانفعالاته، بل لعله أرفعها وأقواها وأعلاها مكانة في نفسه[2].

الصورة رقم 38: رقصة شَّطْحَة بقصر أسا. من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

1- أنظر الصورة رقم 38.

2- عباس الجراري، من وحي التراث، مرجع سابق، ص: 112.

من الرقصات الفنية الشعبية المميزة لقصر أسا أيضا، خاصة عند النساء رقصة «أحْوَايْشْ نْ تِدِي» أو ما يعرف بـ «تَبَرْهَيُوتْ»، يؤدي هذه الرقصة صفين متقابلين من النساء، يتوسطهم رجال تسند لهم مهمة ضبط استعمال الآلات الإيقاعية خاصة الطبل «كَانْكَا» و«تِلُونَا»، وغالبا ما تكون المقاطع التي يتم ترديدها لها علاقة بالأمداح النبوية. فكلما أنشدت امرأة مقطعا فيه حكمة أو صفة حميدة إلا واهتز الصفان المتقابلان لترديد المقطع على التوالي، ويرافق ذلك بحركات رشيقة للجسم والرأس جهتي اليمين والشمال منسجمة مع الإيقاع، بما يشبه حركات السنابل في الحقول عندما تتمايل مع هبوب الريح.

ثانيا: الألعاب الشعبية

حضي موضوع الألعاب الشعبية منذ القديم بالدراسة والتحليل من طرف الباحثين والمهتمين، لما لها من تأثير مباشر على شخصية الإنسان ونموه البدني والحركي والعقلي والنفسي الوجداني، ووضعت نظريات عدة لتفسير اللعب باعتباره غريزة فطرية تنمو بنمو الإنسان وتساهم بشكل كبير في تقوية قدراته.

تضمن مؤلف مكنز التراث الشعبي المغربي أصنافا عدة ومتنوعة من الألعاب الشعبية منها: ألعاب الأولاد، ألعاب الفتيات، ألعاب الراشدين، الألعاب الذهنية، الألعاب اللغوية، الألعاب الموسمية وألعاب الصيد وغيرها[1]، وتختلف هذه الألعاب من حيث الشكل والمضمون والأداء والأهداف، كما أنها تعكس الملامح الاجتماعية والثقافية والفنية المشتركة لممارسيها، المبنية أساسا على تكريس القيم النبيلة والسلوكات الحميدة وبناء العلاقات المجتمعية المؤسسة على الصدق والتعاون والانضباط والالتزام، فضلا عن تحقيق المتعة والتسلية.

أولت ساكنة قصر أسا عناية كبيرة للألعاب الشعبية، مما ساهم بشكل كبير في نمو الفكر الجمعي لديها، ومع مرور الزمن شكلت تلك الألعاب إرثا ثقافيا شعبيا مشتركا، اعتمد فيها على عناصر وأدوات بسيطة مستوحاة من البيئة وما جادت به الواحة وخصوصياتها، وسنقف هنا على نماذج من تلك الألعاب.

بكلام يستحضر فيه عبد الحي أيام الزمن الجميل، وهو يتنفس الصعداء «إِيهْ أَوَدِي أُلُوقْتْ» «آهٍ يَا زَمَن»، يحكي لنا كيف كانت أزقة ودروب ومنازل قصر أسا تعج بالحركة وكيف كان يعلو غبار اللعب على الأفراد، وكيف كان ينتظر الجميع خروج الأطفال للعب، والبحث عن طرق يتم الاتفاق عليها لتحديد مكان وموعد اللعب ونوع الألعاب، خاصة وأن بعض العائلات كانت تعتبر اللعب مضيعة للوقت وهدرا للمجهود البدني الواجب استثماره في المساعدة على إنجاز أعمال المنزل أو الحقل، إلا أن ذلك لم يمنع من استمتاع أبناء قصر أسا بمجموعة من الألعاب.

1- السعدية عزيزي، سعيد آيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، مرجع سابق، ص: 333.

لا شك أن للبيئة والمحيط اللذين يترعرع فيهما الطفل دورا كبيرا في تنشئته الاجتماعية، كما أن لهما دورا هاما في نوعية اللعب والوسائل والأدوات المستعملة، وبقصر أسا استعمل الأطفال عناصر ووسائل وأدوات تقليدية مستوحاة من الواحة. ألعاب تربي الطفل على تحمل المسؤوليات في المستقبل، وعادة ما يتم اتخاذ مدخل إحدى المنازل أو ركن في زقاق للعب أدوار تدبير المنزل وتربية الأبناء ولعب دور الأمومة والعناية بالصغار، وبناء البيوت وغيرها، فكانت الفتيات يجتهدن في تزيين وكسوة العرائس والدمى المصنوعة من عظام بعض الحيوانات، وإعداد المطابخ وصنع الأواني وطهي الطعام فيما كان الأطفال يصنعون العربات من أدوات بسيطة وأسلحة من مكونات شجر النخيل «أَقَرْنِيفْ» وغيرها من الألعاب.

أ - لعبة «بِيسُو»

أو كما هو متعارف عليها لعبة الحجلة، وهي خاصة بالفتيات، يتم خلالها رسم مربعات على الأرض، وتقوم إحدى المشاركات بوضع حجرة صغيرة مسطحة على المربع الأول، رافعة إحدى الأرجل وتقفز على الرجل الأخرى محاولة دفع الحجرة بأصابع الرجل إلى المربع الثاني ثم الذي يليه إلى أن تجتاز جميع المربعات، في وقت وجيز وحرص شديد على ألا تخرج الحجرة عن حدود كلّ مربع، أو أن تلمس رجلها المرتفعة الأرض، وفي حالة الخطأ ينتقل الدور إلى الفتاة الأخرى، وتدخل هذه اللعبة في إطار التسلية والترفيه واحترام الأدوار لدى الفتيات، وتشير الأبحاث إلى أن اسمها مشتق من فعل «حجل» أي رفع الرجل والمشي على رجل واحدة.

ب - لعبة الحِصَانْ

لعبة خاصة بالفتيان، خلالها يصطف مجموعة من الأطفال على شكل مستقيم وتكون قاماتهم منحنية، ويضعون الأيدي على ركبهم ووجوههم إلى أسفل، فيقفز الطفل الموجود في آخر الصف، فوق أصدقائه المصطفين واحدا تلو الآخر حتى نهاية الصف ليأخذ مكانه، ويبدأ الطفل الآخر وهكذا دواليك حتى نهاية اللعبة، والهدف منها إلى جانب التسلية والمرح ممارسة حركات رياضة مفيدة للبدن.

ج - لعبة «الطْرُومْبِيَة»

لعبة خاصة بالأطفال وهي عبارة عن قطعة خشبية ذات شكل مخروطي بآخرها رأس معدني حاد له دور أساس في تسريع حركتها، يتم لفها بخيط من الأسفل نحو الأعلى، ويتم رميها في اتجاه الأرض بقوة، في حين يبقى الخيط في اليد، وتدور «الطْرُومْبِيَة» بسرعة فائقة، والفائز هو الذي تدور قطعته لوقت طويل، ويتم ذلك بشكل تناوبي.

د - لعبة «إيغْمَايَنْ»

لعبة خاصة بالفتيات، تتم بواسطة أحجار صغيرة ومتناسقة الحجم، توضع في اليد وبحركات مضبوطة ومتفق عليها ترمى نحو الأعلى في الهواء ويتم إرجاعها إلى اليد دون أن تسقط على الأرض، وتتنوع طريقة اللعب بالأحجار هذه، وبمجرد الانتهاء من اللعبة تقوم إحدى الفنيات بجمع «إيغْمَايَنْ» وتقذف بهم إلى الأعلى في أجواء من الفرح ويرددن بصوت مرتفع مغلقات أدانهن بأصابعهن:

«وَنَا أيَسَنْ إيسَلاَنْ إيكَا بَابَاسْ أمَجُوضْ»

اعتقادا منهن بأن من سمعت صوت «إيغْمَايَنْ» وهي ترتطم بالأرض يصبح أبوها أقرعا.

هـ - لعبة «لْبِي»

لعبة خاصة بالأطفال، تتم بواسطة كرات زجاجية بألوان مختلفة، بحجم حبات الكرز، تتعدد طرق اللعب بها، كرسم مثلث أو دائرة أو حفر حفرة، حيث يتم رسم مثلث توضع فيه عدد من الكرات حسب ما تم الاتفاق عليه بين اللاعبين الذين يقفون بعيدا عنه بمسافة متفق عليها، ليبدأ التصويب بالتناوب على مجموع الكرات الموجودة داخل المثلث باستخدام أصبعَين فقط من أجل إخراجها، لتصبح الكرات التي تم إخراجها من طرف أحدهم ملكا له، ويبقى الهدف من هذه اللعبة خلق روح التنافسية بين اللاعبين والتسلية والرياضة.

و - «صَامُبُو»

عبارة عن سباق ومنافسة بين المتسابقين للحصول على المراتب الأولى، والظفر بإحدى الجوائز والتسلية والرياضة.

ز - السباحة «تِيقَارْ»

نظرا لارتفاع درجات الحرارة، كانت السباحة في الوديان المحيطة بجنبات قصر أسا: «أمْدَا نْ تِيلاّسْ»، «أمْدَا نَدْ لْحَفِيظْ»، «أمْدَا نَدْ لْمَخْتَارْ»، «أسْغَارْ إعِيشْ»، «تَمَجْكِيدِرْتْ»، «تَالْعِينْتْ»، «أغَرّابُو». من الألعاب والرياضات المفضلة عند أبناء قصر أسا، مما مكنهم من مهارات فائقة في السباحة والغوص، فأبدعوا في ابتكار ألعاب مائية لا تخلو من منافسة وترفيه فيما بينهم.

كذلك هناك ألعاب كثيرة جدا للفتيات والفتيان منها: «أعَمُودْ نْ وَاكُو»: عمود الدخان، «الطّوبْ»، «الدَرّيجَة» بتشديد الراء وكسرها، «سَنْكْفِيتُو: اللعب بالعَلْف: «إغَرْمَانْ»، «شَلاَ»: السّبَاق، «لْفِيلِيلاَتْ» وكرة القدم[1] وغيرها، إذ تعتبر جزءا هاما من الألعاب الشعبية التي لازال أبناء قصر أسا ممن استجوبانهم يستحضرونها، بما كانت تحمله من عفوية وبساطة وفوائد مختلفة، لكنها أصبحت الآن في طي النسيان.

1- أنظر الصورة رقم 39.

الصورة رقم 39: كرة قدم مصنوعة من «لَفْدَامْ» شجرة النخيل. من أرشيف جمعية قصر أسا (02 مارس 2009)

عموما؛ تبقى هذه بعض من نماذج الألعاب الشعبية التي اشتهر بها قصر أسا، ألعاب مرتبطة بالجري والوثب والقفز والمراوغة والانحناء والرمي واليقظة والخبرة والدهاء والحيلة واتخاذ القرارات الصائبة وغيرها من الأساسيات، مستعملة أدوات وأساليب بسيطة متفق على قوانينها وضوابطها بشكل عرفي، هادفة إلى تنمية الذكاء والإيمان بروح الجماعة والارتباط بالخصوصية المحلية، ومكرسة للعلاقات الإيجابية المبنية على الصدق والتعاون والنظام والانضباط والإخلاص ونكران للذات وتحمل المسؤولية، في انسجام أصيل مع المحيط الواحي وخصوصياته.

بذلك تكون الذاكرة الشعبية بقصر أسا قد حافظت على أنماط وأنواع من الألعاب الشعبية شكلت على مر التاريخ جزءا هاما من الثقافة والفنون الشعبية، تراكمت عبر العصور، انتقلت من جيل لآخر، إلا أنه في الآونة الأخيرة، لوحظ كيف أن الحياة السريعة والتحولات التي عرفها المجتمع ساهمت بشكل كبير في اندثار جل هذه الألعاب، التي لطالما رسمت على محيا الأطفال الابتسامة والضحك في زمن قلت فيه الموارد، وأضحى يطالها النسيان والتهميش. ألعاب لم يتبق منها اليوم إلا الأسماء، لتحل محلها ألعاب أخرى خاصة منها الألعاب الإلكترونية بتكلفتها المالية المرتفعة وتداعياتها السلبية على صحة الأطفال الجسدية والاجتماعية والنفسية.

المبحث الثاني: الثقافة المادية[1]

منذ القديم عرفت حياة الإنسان تحولات متواصلة على مستوى نمط المعيشة والتفكير، حيث

1- في سياق حديثه عن الثقافة المادية أشار محمد الجوهري إلى أن العوامل الأولى المساهمة في ازدهار دراستها، راجعة إلى البلاد الناطقة بالألمانية، حيث نشر «فيلهلم بومان Wilhelm Bouman «كتابه الشهير عن «المسكن الريفي والعمل الزراعي في إقليم ساكسونيا الدنيا القديمة» وقد اعتمد فيه على مجموعة متحف «سيلار CELLAR» للتراث الشعبي، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في لفت انتباه المهتمين لهذا القسم الغني من التراث الشعبي.

انتقل من الاقتيات على الثمار وممارسة الصيد إلى الزراعة والإنتاج، مستغلا ما تجود به الأرض من منتوجات زراعية كالحبوب والقطاني وغيرها، الأمر الذي فرض عليه السعي إلى اختراع العديد من الأدوات والأوعية الجلدية والعظمية والخشبية ومن سعف النخيل وغيرها. وانعكست التحولات التي عرفتها الحياة الاجتماعية بشكل إيجابي على النشاط التجاري، حيث ازدهرت المبادلات التجارية خاصة منها المنتجات الحرفية من أدوات ومواد زينة وطب وأنواع من الأخشاب والزجاج والفخار، ومنتوجات بعض الأغذية كالثمار المجففة والسمن، وبعض الحيوانات كالحمير والخيول وغيرها، فضلا عن الألبسة والحلي.

ساكنة قصر أسا عاشت هي الأخرى هذه التحولات، مما مكنها من توسيع معاملاتها، واكتساب خبرات وتجارب متنوعة أغنت حياتهم بمعارف وأساليب إنتاجية جديدة، شكلت على امتداد التاريخ وحدة ثقافية استمدت مقوماتها ومكوناتها من الوسط الواحي وما جاد به، وتجلت مظاهرها بشكل كبير على مستوى البناء والإنتاج الفلاحي والأدوات والأواني والأوعية ذات الغاية الخدماتية وغيرها، والتي تعد رصيدا هاما من الثقافة المادية[1].

وفي معرض حديثه عن تصنيف موضوعات الثقافة المادية، أشار مفلح البكر إلى أن هناك محاولات عديدة في أنحاء المعمور يبذلها العلماء والباحثون لوضع تصنيف عملي يسهل تصنيف مواد الثقافة المادية، ومن ثم توثيقها وأرشفتها ودراستها[2]، إلا أنه حسب الباحث نفسه، تكمن صعوبة التصنيف في تداخل مواد الثقافة المادية مع الفنون الشعبية-خاصة- ومع غيرها من جوانب التراث الشعبي[3].

سبقت الأشارة إلى أن من مظاهر التراث المادي نجد المباني والحصون والقصور والقلاع والأبراج والأسوار وغيرها والتي تدخل في إطار المعالم الثابتة، ثم الآثار المنقولة كالأواني والأدوات والتحف والمعدات التقليدية المستعملة والمستخدمة من طرف القدامى في مختلف مجالات الحياة اليومية، فضلا عن التراث الواحي والمائي وغيرها من العناصر والتجليات كالملابس والحلي. وسنقف في هذا المبحث عند مجموعة من موضوعات التراث المادي بقصر أسا، علما أنه من الصعب الإحاطة بجميعها، نظرا لتعدد مظاهرها وتعبيراتها وعناصرها.

1- حسب محمد الجوهري فقد ترتب عن الظروف الطبيعية والجغرافية خاصة الارتفاعات العالية ووعورة المواصلات في المناطق الجبلية، صعوبات كبيرة في وصول الأدوات الحديثة بسهولة إلى متناول الأشخاص لبناء مساكن جديدة هناك، ولذلك ظل بناء المساكن حتى عهد قريب معتمدا على الأساليب والخدمات التقليدية، مما خلف عددا هاما من المواد والأدوات الشعبية التقليدية، استهوت المهتمين ودارسي التراث الشعبي، زد على ذلك ما لقيته موضوعات الثقافة المادية من إهمال في الماضي، مما استدعى ضرورة استجماع الجهود من أجل العناية بجمعها ودراسة عناصرها واستعمالاتها، اعتبارا لدورها الهام في فهم وتفكيك العديد من رموز الحياة الاجتماعية للمجتمعات.

2- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، مرجع سابق، ص: 95.

3- نفسه، ص: 95. للإشارة فقد صنف الباحث محمود مفلح البكر موضوعات الثقافة المادية إلى: الحرف الشعبية، المهن، أدوات العمل، الأدوات والتجهيزات المنزلية، خبرات الفلاحة، خبرات البناء.

أولا: الأزياء الشعبية

صنف مؤلف مكنز التراث الشعبي المغربي[1] اللباس والأزياء الشعبية المغربية إلى أصناف عدة: لباس المناسبات، اللباس بحسب الانتماء الإثني والجغرافي، اللباس حسب الجنس، اللباس حسب الموضع في الجسم، اللباس حسب الفئة العمرية، اللباس حسب الفصول، ثم اللباس حسب الحياة العامة وغيرها، تصنيف يبرز مدى أهمية تناول موضوع الأزياء الشعبية في الدراسة والتحليل لإبراز ومعرفة عادات وخصوصيات المجتمعات واختلافها من منطقة لأخرى من حيث الأسماء والألوان وطريقة اللباس.

من أشهر الأزياء التراثية الشعبية بقصر أسا، والتي لازالت الساكنة متمسكة بها، نجد عند النساء: «أحَايَكْ»[2]، «زِيفْ»[3]، «إيدُوكَانْ»[4]، «النّكْشَة/ لِزَارْ»[5]، «صَايَة» «أدّالْ» و«تَامَلْحَافْتْ» التي تكتمل بها الإطلالة الأنيقة للمرأة القصروية، وهي عبارة عن قطعة ثوب مستطيلة الشكل بألوان مختلفة -عادة ما يكون اللونين الأبيض والأسود هما المفضلان عند نساء القصر- يوضع على الكتفين بشكل محكم ويشد بعقدتين ويسترد من الخلف فوق الرأس، دون أن يشد بحزام، ويطوى الهدب الذي ظل حرا على نفسه في اتجاه العرض، ويظل رحبا ليكون في وسع المرأة التدثر به كاملة[6].

لـ «تَمَلْحَافْتْ» حضور متميز بأنواعها وأشكالها وبأسمائها الكثيرة، وشكلت على مر التاريخ رمزا للحشمة والوقار والاحترام وللهوية الأمازيغية الأصيلة لدى نساء قصر أسا، يرتدينها في تناغم وانسجام فريدين مع «لِزَارْ/ نَكْشَة»، في مختلف المناسبات الدينية والاجتماعية، وأيضا داخل البيت وحتى أثناء العمل في المنزل، حرصا منهن على الحياء والحشمة كما هو متأصل فيهن.

أما بالنسبة للرجال نجد من بين الملابس التقليدية:

«تَقَشّابْتْ»[7]، «رَزّة»[8]، «السَرْوَالْ الفَضْفَاضْ»[9]، «لْفُوقِيَة»[10] و«إدُوكَانْ»، «لْكَمِيتْ» «أقْرَابْ»

1- السعدية عزيزي، سعيد آيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، مرجع سابق، ص: 366.

2- «الحَايَكْ»: يوظف للقطعة الطويلة من الصوف الخفيف التي يصل طولها إلى 5 أو 6 أمتار وعرضها متر و80 سنتمترا وهو في الغالب أبيض، وقد يرتدى الحايك فوق قميص، ولكنه أحيانا يشكل لباسا وحيدا. نفسه، ص: 374.

3- «زِيفْ»: يوظف لزينة رأس الفتاة وهو عبارة عن منديل للرأس من القطنية البيضاء عادة يغلف الظفيرتين المتهدلتين، ويطلق كذلك على منديل تضعه المرأة فوق رأسها. نفسه، ص: 380.

4- «إيدُوكَانْ»: يوظف للخفاف الحمراء ذات النعل الطافح والعقبية الصاعدة ويرادف مفهوم البلغة بالأمازيغية، نفسه، ص: 382.

5- «النّكْشَة»: يوظف للإزار الأبيض الكثير التجاعيد الذي تديره المرأة الصحراوية على خصرها ويتدلى إلى قدميها، نفسه، ص: 368.

6- نفسه، ص: 375.

7- «قَشَابَة» «تَقَشّابْتْ»: يوظف للدراعة الرحبة المصنوعة من قطعة قطنية كبيرة قياسها حوالي متران وخمسون على متر وستين، وبها فتحة في الوسط لإخراج الرأس وتسقط بالطبع فضفاضة على الجسم، ويستعملها الرجال في المناطق الصحراوية وفي مناطق أخرى من الأطلس الصغير، نفسه، ص: 373.

8- «الرَزّة» أو «أدّالْ»: يوظف للعمامة الصغيرة الملفوفة حول الرأس التي يضعها الرجل، توضع على الرأس بطرق مختلفة كما أنها تلقى على الكتفين مما يزيد صاحبها جمالا، نفسه، ص: 378.

9- «السّرْوَالْ الفَضْفَاضْ»: يوظف للسروال الفضفاض الذي يرتديه الرجل الصحراوي تحت الدَرّاعَة الفَضْفَاضَة، نفسه، ص: 368.

10- «الفُوقِيَة»: يوظف للباس الخارجي الرجالي الخفيف في شكل قميص طويل ذو كمين أو بدون كم ويغطي البدن كله، نفسه، ص: 373.

ثم «تَجَلاَبِيتْ» أي الجلباب الذي غالبا ما كان يخيطه فقهاء القصر، ومنهم من يرتدي «أَسَلْهَامْ» وهو عبارة عن قميص بملمس خشن ينسج من وبر الماعز، مفتوحا من الجهة الأمامية يلقى على الكتفين في أوقات البرد.

واعتبارا للتعايش الذي عرفته ساكنة قصر أسا مع العديد من التجمعات البشرية والقبائل والتأثر بثقافاتها، شكلت «الضَرّاعَة» المعروفة عند أهل الصحراء بمظهرها الرحب والمتميز، أهم الأزياء خاصة في المناسبات والأعياد الدينية والوطنية منذ القديم.

من خلال هذه الوقفة السريعة عند مختلف الأزياء التي كانت تتزيا بها ساكنة قصر أسا، يتضح مدى أصالتها وعمقها التاريخي، فهي أزياء شعبية متميزة نابعة من خصوصيات المجال المحاط بالكثير من الوقار والاحترام والبساطة، ملابس تؤدي العديد من الوظائف كالوقاية من البرد والحرارة فضلا عن بعدها الجمالي.

تبقى هذه الأزياء جزءا هاما من التراث الشعبي بقصر أسا، بما تحمله من رموز ثقافية شعبية متشبعة بالأصالة والهوية الأمازيغيتين، ورغم صيحات الموضة وتيارات التجديد الثقافي والتحولات الاقتصادية والاجتماعية المتسارعة والانفتاح على المحيط الخارجي الذي عرفته ساكنة قصر أسا، فإن هذه الأزياء لا زالت محافظة على معالم التباث فيها، رغم التغييرات التي لحقت بعضا منها، خاصة على مستوى الأنواع والألوان، وأيضا التمييز بين «تَمَلْحَافْتْ» التي ترتديها المرأة الشابة بألوانها الزاهية والمتنوعة وتلك التي ترتديها كبيرات السن بألوانها الداكنة والقاتمة، وفي ذلك ميول إلى البساطة في الحياة انسجاما مع المحيط الواحي.

إن دراسة الملابس والأزياء عند المجتمعات القديمة وتوثيقها وربطها بالعوامل البيئية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الحاضنة لها، تؤكد على أهمية الموضوع، بما يفيد أنها لم تعد مجرد ملابس تقليدية مميزة لمختلف المناطق، بل أضحت تحفا تراثية متوارثة قرونا جيلا عن جيل، وبما تقدمه من أبعاد ثقافية وحضارية وما تحمله من دلالات ورموز مشجعة على البحث والدراسة بشأنها.

ولا نريد أن نختم هذا الجانب دون الحديث عن الأماكن الخاصة لحفظ الأزياء عند ساكنة قصر أسا، ذلك أنه غالبا ما كان يتم حفظها في صناديق خشبية، أو في «تَسُوفْرَة»، كما يتم تعليقها في حبل مزركش مصنوع من الجلد يتم تثبيته في حائط البيت يسمى «أَصَرْمِي/ أَعَكّادْ».

ثانيا: الزينة الشعبية

تعتبر الحلي وأدوات الزينة عنصرين هامين من عناصر التراث المادي، وتكمن أهميتهما في كونهما يساهمان بشكل كبير في التعرف على عادات وتقاليد وأصالة المجتمعات ومدى تأثرها بالثقافات الأخرى المحيطة بها، فضلا عن التعرف على مستواها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، لذلك حضيت بالدراسة والتدوين من طرف الباحثين والمهتمين.

1 - الحلي

تعود صناعة الحلي لعصور قديمة من تاريخ البشرية، وتتعدد أشكالها وألوانها وفقا للأماكن الجغرافية والعادات والتقاليد والثقافة الاجتماعية للمجتمعات، وتشمل الحلي الشعبية الأساور والقلائد والخلاخل والعقود وغطاء الصدر والإكليلات إلى جانب الأقراط والخواتم وغيرها، سواء منها الخاصة بالرجال أو النساء في مختلف المناسبات والأفراح والأعياد، مضفية على الجسد حلة جمالية تكتمل بتناسقها مع الأزياء التقليدية.

تتعدد أسماء الحلي وأوصافها بقصر أسا وفقا لاستخداماتها ومكان وضعها، منها على مستوى:

- الرأس: «غَنِي رَاسُو»، «لَمْفَنْشَة»، «بُوفْ»، «بُوجَنْدَارْ»، «لْمَثْلُوتَة»، «أَحْمَدْ عَوْدَانْ»، «زْرَيْبَة»، «جَلْسَاتْ»، «سَدْغَاتْ»، «إدْلاَلَنْ»، «تَوَلِيمْتْ»، «لَمّاشَعْ»، «بُونْزُورْ»، «حَبْ شُوفْنِي»، «فَنْشِي» وغيرها، وهي عبارة عن حلي ومكملات توضع فوق الرأس أو تتدلى منه.
- الأذن: توضع بها حلي عبارة عن أقراط منها: «تِلْخُورْصِينْ»، «تْوَيَنْكَاتْ»، «لْخَرُوبْ» وغيرها.
- الرقبة : توضع بها: «تِيفِلِيتْ»، «صّرْعْ»، «أمْزَيَرّادْ»، «لْحَرْزْ»، «بُوزْرَادَة»، «تَسْبِيحْ»، وغيرها.
- الصدر: توضع به «تِزَرْزِيتْ»، «إسَرْسَلْ» وغيرها.
- الوسط: يشد بحزام من مقاسات وأشكال مختلفة تلف به المرأة «نَكْشَة/ لِزَارْ».
- اليد : توضع في الساعد أساور «مْحَيَصْرَاتْ»، «تَنْبَالِينْ»، «المْزَبِي»، «دْبَالَجْ نَقْرَة»، «دَكْ مُورِيتَانْ»، «لَكْلاَبْ»، «مَكَانَة نَقْرَة»، «تَسْبِيحْ» وغيرها، بينما تزين الأصابع بخواتم من فضة.
- القدم: توضع فيه «إخَلْخَالْنْ».

إن المتتبع للأدوار التي تلعبها الحلي يجدها متعددة، حيث أنها لا تقتصر فقط على الزينة، بل لها قيمة جمالية ومادية وفنية، كما لها دلالات حضارية تراثية متعددة ووظائف علاجية، خاصة المصنوعة منها من الفضة؛ إذ تحتفظ الذاكرة الشعبية بقصر أسا بخصائصها العلاجية الكثيرة وارتباطها بجانب المعتقدات، منها معالجة «الرّومَاتِيزم» وطرد الجن وغير ذلك، كما كانت بعض الأسر تحرص على تعليق «خْمَيْسَة» المصنوعة من الفضة داخل البيت لطرد الحسد والعين، أما فيما يتعلق بأماكن تخزينها فكانت النساء يحرصن على العناية بها وتخزينها في محصلة تسمى «تَوَلْكْتْ»، وتعرف هذه الحلي مجموعة عند النساء بـ «لْقَشْ نْ تَمْغَارْتْ» أي مجوهرات المرأة[1].

1- أنظر الصورة رقم 40.

الصورة رقم 40: بعض الحلي التي كانت تتزين بها نساء قصر أسا. من أرشيفي الخاص (19 يوليوز 2018)

يعد توثيق وتسجيل وتصنيف الحلي المستعملة من طرف نساء قصر أسا جزءا هاما من التراث المادي، وإرثا عريقا وخطوة أساس لتعريف أجيال المستقبل بجزء من مظاهر التزيين التي كانت تتزين وتتحلى بها النساء، ونشير هنا إلى أن جل هذه الحلي لم تعد ترتديها النساء القصرويات بفعل عدة عوامل خاصة منها المرتبطة بالتحولات الاجتماعية والاقتصادية للساكنة.

وتجدر الإشارة إلى الأهمية الكبيرة التي كانت تخصها نساء قصر أسا للحلي، حيث كن لا يتخلين عنها أبدا حتى أثناء الأشغال المنزلية، وغالبا ما تتوارث هذه الحلي من الأمهات إلى بناتهن، نظرا لقيمتها الجمالية والرمزية والمادية، ويظهر هذا الحرص كذلك في جعلها من الأولويات في جهاز العروس وما يقدم لها مع مهرها. ونختم بالتأكيد على أهمية البحث في العقود العائلية التي كانت تتضمن أنواع وأسماء الحلي المقدمة للعروس[1] خاصة منها تلك التي تعود إلى فترات تاريخية قديمة، لا محالة ستساعد الباحثين والمهتمين على دراسة وفهم هذا الجانب الأصيل من التراث المادي، وطبيعة الحلي ونوعيتها كما كانت متداولة قديما.

1- أنظر الصورة رقم 41.

وثيقة زواج تتضمن الحلي المقدمة لعروس في زفافها. من أرشيف الحسين أحشوش

مضمون الوثيقة:

الحمد لله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد آله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي أحل النكاح والبيع وحرم السفاح وخلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا. تزوج على بركات الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام براهيم بن الحفيظ احماد أبناء بَحْمَانْ زوجته المباركة المسعودة عليه إن شاء الله عزيزة بنت عبد الجليل بن الحسين امبارك أحشوش وهي بكرة سالمة من العيوب في الظواهر والباطن لا يعلمها إلا الله بصداقها معلوم غير مجهول سبعة مثاقيل نَقَدَ منه ربوع دينار والباقي مؤجلا على سائر الحلول. والله يؤلف بذريته الصالحة. إن إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ويلي جهازها من دار أبيها إلى بعلها الأول من ذلك **بَنْشَكْرَا وتَجَمَعْتْ** بعشرين ريالة **والخَرُوبْ** بريالتين **والأخْرَابْ** وشيء من **المُجُونْ** بريالتين **وتِزْرَارْ**

بستة ريالة **والمَلَحْفَة** بخمس ريالة **والضَبْيَة (تَوَلْكْتْ)** وعمارتها بريالتين **وبُزُرُودةْ** وخنشة بريال وصندوق وعمارتها بريال وطَبْقَتَيْنْ وأزُوضْ بريال والأدَامْ بخمس ريالة والرِيحَتَيْنْ بريالتين والرِيحَتَيْنْ أيضا بخمس عشرة واقية وثلاثة صْكِيطَة بريالتين وثلاثة أيضا بخمسة مثاقيل وريالتين في الزرع سوى ربوع ونصف ربوع وجملة ذلك المال اثنين وخمسون ريالة حَسَنِيَة عشر ريالة ونصف من شروضها وصداقها والباقي من جهازها من عند أبيها إلى الحساب بين إخوانها وقبل ونعم الزوج في ماله وذمته بقيام وكيل الزوج سيدي امبارك بن بجمع أنير بحضور الشهود الحسن بن احمد عبد الدايم وسي بجمع احمد أحشوش ومولود أبه ابزيز ومحمد احمد امحمد بن أحايك ومبارك أتهرى وهذا ما حضرناه. كتب بتاريخ ستة أيام في شهر الله صفر عام 1340 بدار عبد ربه الحسن بن الحسين أبه أصالح لطف الله به آمين. وعبد ربه امبارك بن محمد أحمد لطف الله به آمين.

2 - الزينة وأدواتها

الزينة وأدواتها فرع هام من فروع التشكيل الشعبي، حضيت هي الأخرى بالبحث والتدوين والدراسة من طرف الباحثين والمهتمين، لما لها من أهمية في إبراز خصوصيات وعادات المجتمعات خاصة في الشق المتعلق بالتزيين والحرص على المظاهر الصحية والجمالية للنساء.

ويقصد بمواد الزينة تلك المواد والخلطات من النباتات أو الأعشاب الطبيعية المستخدمة مباشرة أو بعد معالجتها وسحقها ومزجها، وتحويلها إلى مستحضرات تجميلية من طرف النساء، إما للبشرة أو الشعر أو الوجه وفي بعض الأحيان جميع أجزاء الجسم، فضلا عن رائحتها الزكية، كما تظل استخداماتها رمزا للثراء والمكانة الاجتماعية وأداة للعلاج وغير ذلك من الغايات.

ككل النساء القرويات، استمدت نساء قصر أسا زينتهن من البيئة المحلية، من خلال استغلال النباتات والأعشاب الطبيعية المنتشرة في الصحراء، بعد معالجتها ومزجها وتحويلها إلى مستحضرات تجميلية باستعمال أدوات تقليدية من بينها: «أغْنْجَا أوسَرْفْ»، «أغْنْجَا نْ زِيتْ»، «تِمَشْطْ أوكْشُودْ»، «أسَنّانْ نْ تَارُوشْتْ»، المِرآة وغيرها، وعادة ما كانت نساء قصر أسا يستعملن في زينتهن:

✓ **«لْحَنَا»**

تحضى «الحِناء» في الثقافة الشعبية بقدسية خاصة، وهي من أقدم عادات التزيين ممارسة من طرف النساء كما الرجال، وفي سياق حديثها عن «لْحَنّا» واستعمالاتها، عرفتها الباحثة في علم الاجتماع حنان حمودا بقولها: «لْحَنَا» أو «الحَني» بالأمازيغية نبتة مباركة من الناحية الثقافية، يتم أخذ أوراقها الخضراء اللون ووضعها تحت أشعة الشمس لساعات، بعد ذلك تنقى من الزوائد وتدق في المدق الخشبي «أفَرْدُو» أو بواسطة طاحونة يدوية صغيرة دائرية الشكل، تتكون من أسطوانتين تتوسطهما عموديا عصا خشبية سميكة عبر فتحة توجد في وسط هذه الطاحونة والتي تسمى «الرْحَا» مصنوعة محليا من نوع خاص من الحجر، ويصفى مسحوق الحناء في قطعة ثوب «حَيَاتِي» أبيض اللون، لم يتم استعماله من قبل، بغية الحصول على مسحوق أخضر رطب وناعم، رائحته زكية

وعطرة[1]، ونشير هنا إلى أن استعمالات هذه الطاحونة اليدوية الصغيرة «أزَرْكْ»[2] عديدة، فإلى جانب طحن الحناء هناك أنواع خاصة منها تستعمل لطحن الزرع والقمح وغيرهما من الحبوب.

الصورة رقم 14: «أزَرْكْ» الخاص بطحن الحناء. من أرشيف جمعية قصر أسا (19 يوليوز 2018)

تعددت استعمالات «لْحَنَا» فلا يقتصر دورها فقط على التزيين والتجميل لمختلف أجزاء الجسم خاصة اليدين والرجلين، بل هناك من يعتمدها في التداوي والعلاج، وهناك من يستعملها للوقاية من العين أو تأثيرات السحر والشعوذة، كما أنها تحضى باهتمام خاص في المعتقد الشعبي، وجرت العادة منذ القدم في الثقافة الأمازيغية والواحية بأن تضع النساء المتزوجات والكبيرات السن أو اللائي سبق لهن الزواج فقط الحناء في أيديهن بأكملها وبأسفل أقدامهن، بينما الفتيات غير المتزوجات ممنوع عليهن أن يضعن الحناء في أقدامهن، كرمز ودلالة على أن الفتاة ما زالت عذراء وأنها لم يسبق لها الزواج[3].

✓ «تَزُولْتْ»

تحضى عملية تكحيل وتجميل العيون لدى النساء والفتيات في قصر أسا منذ القديم بعناية خاصة في مختلف المناسبات وفي الأيام العادية، و«تَزُولْتْ» عبارة عن مادة تطلق على الكحل الذي تستعمله النساء لتجميل العيون، يتم تحضيرها من طرف نساء لهن خبرة خاصة، وتتعدد استعمالاتها، فإلى جانب التجميل، يضعها العريس وأصدقاؤه ليلة الدخلة «إضْ أرُوحْ»، ويعتقد أن استعمالها بشكل منظم فيه علاج ووقاية للعيون من الأمراض.

1- حنان حمودا، الماء كمنشط أنتروبولوجي لإنتاج الطقوس بواحة سكورة جنوب المغرب، المجلة العربية لعلم الاجتماع، إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 34/33 شتاء /ربيع، 2016، ص: 149.

2- أنظر الصورة رقم 42.

3- حنان حمودا، الماء كمنشط أنتروبولوجي لإنتاج الطقوس بواحة سكورة جنوب المغرب، مرجع سابق، ص: 149.

✓ **«الوَشْمْ»**

ظل الوشم برموزه وأشكاله وخطوطه من بين وسائل الزينة المستعملة لدى المجتمعات الأمازيغية، يضعه الرجال كما النساء على أجزاء معينة من الجسم، خاصة الوجه واليدين والأرجل، وللوشم أبعاد استيطيقية جمالية متميزة، ودلالات عميقة، جعلته جزءا هاما من مظاهر الزينة الشعبية بقصر أسا، ونشير إلى أن عملية الوشم هذه كانت تتم عن طريق رسوم تزيينية وليس بالوخز.

✓ **«لْحَمِيرَة»**

مسحوق كانت توله نساء قصر أسا اهتماما كبيرا ويستعمل لتزيين خدود المرأة.

✓ **«لْمَسْوَاكْ»**

السواك أو كما تسميه ساكنة قصر أسا «لْمَسْوَاكْ» من أدوات الزينة التي تستعملها النساء في مختلف المناسبات وحتى في الأيام العادية، وهي عبارة عن نبتة تضفي جمالية خاصة على الفم والشفتين.

✓ **«لَخْوَاضْ «الطِيبْ»**[1] مستحضر تجميلي يتم إعداده عن طريق مزج نباتات وأعشاب طبيعية كـ «قْرُنْفَلْ»، «تَارَة»، «وَرَقَة سَنْبَلْ»، «أَدَادْ» وغيرها ومعالجتها باستعمال أدوات تقليدية، وعادة ما كانت نساء قصر أسا يستعملن «لَبْخُورْ» للتطيب، و«تَلْحَمّامْتْ» للاغتسال ونظافة الجسم، وهي عبارة عن حمام تقليدي.

الصورة رقم 24: بعض أدوات الزينة ونباتات وأعشاب التجميل. من أرشيف جمعية قصر أسا (19 يوليوز 2018)

1- أنظر الصورة رقم 43.

عموما؛ تبقى الملابس القديمة والحلي وأدوات الزينة وطرق استعمالها، رافدا من روافد الأصالة والعمق التاريخي الأمازيغي ووثائق تراثية، تؤرخ لجزء هام من التراث المادي لساكنة قصر أسا خاصة عند النساء، وتبرز مدى عنايتهن وحرصهن الشديد على استعمالها في مختلف المناسبات والأعياد، فضلا عن كونها تعكس صورة مصغرة عن الحالة الاجتماعية والمستوى المادي لديهن.

إن جمع وتسجيل وتصنيف أدوات الزينة والحلي والملابس القديمة، ووضعها في متحف خاص، ستساهم بشكل كبير في حفظ هذا الجانب الهام من التراث المادي بقصر أسا من الاندثار والضياع، كما سيساعد ذلك الجهات المهتمة بتاريخ الحلي وأدوات الزينة من الحصول على معلومات قيمة للبحث في تاريخ المنطقة وتأثرها بثقافات المناطق الأخرى.

ثالثا: المهن والحرف الشعبية

مجموعة من الأبحاث والدراسات التي اهتمت بدراسة الثقافة الشعبية انصبت عنايتها بالأساس نحو دراسة النصوص المدونة والشفوية، وفي المقابل لم تول اهتمامها لمظاهر وأنشطة فنية أخرى شديدة الأهمية في ترسيخ الوعي الذي يحكم هذه الثقافة، من جملتها تلك التي لها علاقة بالصناعة اليدوية باعتبارها أحد أوسع الفضاءات لتجلي الإبداع الإنساني.

وفي هذا الإطار تعددت مظاهر المهن والحرف الشعبية بمناطق الواحات بصفة عامة، واحة قصر أسا بصفة خاصة، حيث استغل الإنسان كل عناصرها ووظفها بشكل تقليدي أصيل، وشكلت على مر التاريخ فضاءات للخلق والابتكار، لتصبح مع مرور الزمن جزءا هاما من التراث الثقافي المتوارث جيلا عن جيل.

كانت ساكنة قصر أسا تستقبل ضيوفها بالكرم والترحاب، للتخفيف من تعب السفر وحدته، وتحرص الساكنة على توفير أجواء الراحة، ومن طبيعة الحال فإن وجود الفراش المناسب والمتميز الذي لا يخلو من جمالية كفيلة بتحقيق الراحة والشعور بالحبور لدى الزائر، ولأجل ذلك سعت الأسر، خصوصا المرأة إلى لعب أدوار طلائعية في تجسيد هذه القيم النبيلة.

شكل «أفكُو»، «بَنْشَكْرَة» و«تِكْضِيفْتْ/الزَرْبِية» فضاءات فنية حاولت المرأة القصروية من خلالها إعادة ابتكار الحياة، متوسلة في ذلك بما جادت به الواحة من مواد وأدوات تقليدية حملت دلالات عميقة «إفَكِيكَنْ»، «تِمَنْضِوِينْ»، «تغَانِيمْتْ »، أقَرْشَالْ»، «إمَشَضَنْ»، «إزْضِي»، «تِزْضِيتْ»، «تَصَكّا»، «إسَلْدِي»، «تِغُرْغَارْ»، «تَكْرَاتْ » وغيرها، وتعرف هذه الصناعة محليا بـ «أصَطَا»[1]، فبمجرد توفر المواد الأولية، تستدعى النساء المتخصصات ممن لهن تجربة ومهارات يدوية. على هامش ميلاد «أصَطَا» وفي أفق فضاء مواز للعمل اليدوي يتفجر الامتداد النسائي لخطاب معتقل لا تدركه سوى النساء[2]، لتتناسل بذلك مهارات

1- أنظر الصورتين رقم 44 و45.

2- محمد علوط، جماليات التشكيل اليدوي فضاء الزربية، مجلة الثقافة المغربية، السنة الأولى، العدد 03، أكتوبر، 1991، ص: 72.

يدوية نسوية هي في الأخير تعبير عن لغة يومية مواكبة للحضور الإنساني الجمالي والاجتماعي.

الصورة رقم 34: ورشة نسائية يدوية لصناعة «أصْطَا». من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

الصورة رقم 44: نسوة تشتغلن على «أصْطَا». من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

المتأمل للزربية المحلية يلمس أنها تقليدية في كل حيثياتها، سواء فيما تعلـق بالأدوات أو الألوان المستعملة، وغالبا ما تكون هذه الأخيرة خالصة وتعتمد على تفريعات بألوان متعددة، منها اللون الأسود، الأحمر، البني، الأصفر، ثم الأخضر، وهي ألوان مستمدة من البيئة المحلية وجغرافية المحيط، والذي يزيد من جماليتها مبدأ التكرار، أي تكرار «مُوتِيفَات» محددة من أشكال ومربعات ومستطيلات، ويذهب محمد علوط إلى أن مبدأ التكرار هذا هو الذي يقود الوحدات المتشابهة إلى

وحدة التشكيل في العمل الزربي اليدوي[1]، كما تتميز ببعض الخشونة في الملمس وهي تعود في الأصل إلى طبيعة وخصوصيات الحياة القروية.

نشير إلى أن صناعة الزربية ترافقها عادات وتقاليد، بحيث تتناوب النساء بشكل منظم عند صناعتها طيلة أيام العمل حتى نهايته، مما يؤكد أن هذه الصناعة هي عمل جماعي بامتياز بين نساء قصر أسا، وتخصص وجبات متنوعة من طرف الأقارب والجارات، في أجواء احتفالية متميزة، وعند نهاية «أصْطَا»، تردد النساجات أهازيج أمازيغية منها:

أسِي تِمِّي دُو أصْطَا دْ لاَ إلَهَ إلاّ الله
أتِغْزِي نُصَطَا أكُونْتْ يَدَا رَبِي
سَلْبَرْكْتْ لاَلَة فَاطِمَة دْ مُولاَيْ عْلِي
سْوِيخْكْ أيَا صَطَانُو غْ دُونِيتْ سْ تِرْفَكْتْ إنُو
أيتَسُوتْ غْ لِيخَرْتْ..

معنى ذلك:
قد أشرف «أصَطَا» على نهايته
حمدا لله ولا إله إلا الله على جمالية شكل «أصْطَا» طولا وعرضا
حفظك الله وحفظ من ساهم في صناعتك
ببركة لالة فاطمة ومولاي علي
«أصْطَا» حرصت على إتمامك على أحسن وجه في الدنيا
انتظر الجزاء في الآخرة
رحم الله عبدا قام بعمل فأتقنه.

هكذا فإن الصناعة اليدوية المحلية شكلت فضاء إبداعيا تميز بابتكارات عفوية وبسيطة وبخصوصيات مستمدة مما جادت به الواحة، وموروثا حضاريا مرتبطا بالنساجات داخل المنزل، يندرج ضمن الفنون الشعبية التي لا تستعمل الألفاظ وحتى وإن استعملتها ففي نطاق محدود.

كما ظهرت صناعات وحرف يدوية محلية استخدمها إنسان قصر أسا في حياته اليومية للانتفاع بها عند الحاجة، منها صناعة أدوات الفلاحة كـ «القُفَفْ»، «شْوَارِي»، «أسَرْتِي»[2]، «الحَصِيرْ»، «الحِبَالْ»، «تَزْكَاوْتْ»، «السّلاَتْ»، «السّرُوج» ومجموعة من الأواني المطبخية[3] كـ «تَسْدَلْتْ»، «أزُوضْ»، «لَمْكَبْ»، «تِيَشيشْتْ»، «تَرَبْعِيتْ»، «وَاسَكْسُو»، «أجْكَالْ»، «تَجْكَالْتْ»، «تَشَطّابْتْ » وغيرها، كما

1- محمد علوط، جماليات التشكيل اليدوي فضاء الزربية، مرجع سابق، ص: 72.
2- أنظر الصورة رقم 46.
3- أنظر الصورة رقم 47.

انتعشت صناعة بعض الملابس كـ «أَسَلْهَامْ» «تَجَلّبِيتْ»، «تْشَامِيرْ»، فضلا عن صناعة الفخار[1]، وهي صناعات وحرف يدوية غنية بمجموعة من الابتكارات والمهارات.

الصورة رقم 54: ورشة لصناعة «أَسَرْتِي». من أرشيف جمعية قصر أسا (17 يونيو 1993)

الصورة رقم 64: بعض أواني المطبخ المصنوعة من سعف النخيل. من أرشيف جمعية قصر أسا (19 يوليوز 2018)

في معرض حديث عن العمل، يذهب بن محمد قسطاني إلى أن لفظ العمل في مناطق الواحات غير مستعمل في الأمازيغية اليومية على الأقل، إذ نجد الألفاظ المتداولة عربية، «لَخْدَمْتْ»، «أَمْشَغَالْ».. وهناك لفظ أمازيغي لكنه مشحون بالثقافة والمخيال والطقوس بل وحتى بالشعرية إنه «تَاوُرِي» ويعني العمل المثمر[2].

1- تروي الذاكرة الشعبية أن قصر أسا ضم قديما أماكن خاصة لصناعة أواني الفخار، من طرف صناع محليين قبل أن تنقرض هذه الحرفة وتختفي معالم وأماكن صناعتها بالقصر.

2- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار «غريس نموذجا»، مرجع سابق، ص: 108.

واعتبارا لطبيعة الاقتصاد بمناطق الواحات المرتكز أساسا على الفلاحة وما تنتجه الأرض كمصدر هام للعيش والأمن والاستقرار، أشار بن محمد قسطاني إلى أن الأمن النفسي الذي تقدمه الأرض رغم سرعة عطبها، لا يوازيه أي أمن[1]، لذلك تعددت المهن والحرف التقليدية الشعبية المرتبطة بها، وهي تشكل جزءا هاما من التراث المادي بهذه المناطق، فمن بين الحرف والصنائع المنتشرة بقصر أسا قديما نجد حرف البناء بالطين والحجر، الحدادة كإصلاح المحاريث وباقي أدوات الفلاحة، حرفة النجارة: نجارة المحاريث، المقابض والمعاول، نجارة الأبواب والنوافذ والموائد، حرفة الدباغة عبر استغلال جلود أضاحي العيد، حرفة الإكافة؛ والإكاف حلس البغل أو الحمار وهي صناعة شريفة مطلوبة، يحترم أهلها لاحتياج كل ذي بغل أو حمار إليها[2]، حرفة الحبالة والشباكة المرتبطة بصنع وفتل الحلفاء والفدام لتلبية ما تحتاجه الساكنة وما تتوقف عليه مختلف الأعمال والأشغال من الحبال والشباك، ثم حرفة الخشب وحرف المشغولات النباتية ونساجة وحياكة الصوف، حرفة الخياطة التي كانت من اختصاص الطلبة والفقهاء، وحرفة الرفاءة أي رفو الأثواب القديمة بشكل مميز ودقيق، أما على مستوى المهن فهي كثيرة منها مهن التجارة في مختلف الحاجيات الضرورية والمواد الغذائية ثم مهن المصنوعات، مهن الخدمات، ثم الفلاحة وما اشتملت عليه من مهن شعبية مختلفة حسب الاختصاص، كاستصلاح الأراضي وفلاحتها وزراعتها والرعي والسقي والحرث والحصاد وجمع المنتوجات والحبوب وغيرها، وتعد من الأساسيات المعتمدة في تشغيل يد عاملة هامة تحمل أسماء خاصة منها: الفلاح، الحراث، الحصاد، الخَمّاسْ[3] ثم الرّبَاعْ[4] وغيرها.

كسائر الأيام العادية وخلال أيام الفيض، أو عندما تكون السنة الفلاحية جيدة، وفي مختلف مواسم جني التمور والحبوب والخضروات، ينتعش العمل وتزداد المردودية بواحة قصر أسا في المهن المرتبطة بالفلاحة واستصلاح الأراضي الزراعية والسواقي وغيرها، وطبيعي جدا أن تدب الحركة في الحقول والمراعي، وكل من لم ينخرط فهو إنسان فسد وفقد إنسيته وتربطه الحكاية.. بالموت[5] «إمُوتَاكْ وُولْ» أي: مات قلبك، لذلك طبيعي جدا وكما أشار إلى ذلك بن محمد قسطاني، أن ينصح المرء بمرافقة الرابح «أمَسْكُورْ» والابتعاد عن الخاسر «أمَخْسُورْ» ويعني الأول الرابح كما يتضح ذلك من المثل التالي: «مُونْ دُو مَسْكُورْ تَسْكَرْتْ، مُونْ دُو مَخْسُورْ تَخْسَرْتْ»، وأمَسْكُورْ ربما من «إسْكَرْ» بمعنى فعل. وتقاربها لفظة «إسَنْكَرْ»، بمعنى أنبت لاحظ الحمولة الزراعية للدليل، وتعني القولة

1- نفسه، ص: 112.

2- محمد المختار السوسي، المعسول، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، DKI ، 2014، بيروت، لبنان، ص: 66.

3- تطلق مهنة خماس على الشريك الفلاحي الساهر على غلات الحبوب، ويأخذ عادة خمس الغلة وقد يأخذ أكثر، والجمع «الخماسة»، وهو شريك بعمله فقط، أما الأرض والبذور والأدوات والدواب فهي للملاك وحده. السعدية عزيزي، سعيد أيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، مرجع سابق، ص: 448.

4- تطلق مهنة ربّاعْ على الشريك الذي يتولى القيام برعاية البساتين وغرسها وسقيها وحراستها ويأخذ ربع غلتها والجمع «رباعة»، نفسه، ص: 448.

5- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار «غريس نموذجا»، مرجع سابق، ص: 109.

حرفيا: صادق الفاعل تفعل، صادق المفسد تفسد[1].

على ضوء ما سبق، لا زالت الذاكرة الشعبية بقصر أسا محافظة على بعض من هذه الحرف والمهن الشعبية بمختلف حقول الواحة، خاصة منها المرتبطة بفلاحة الأرض، كما حضي أصحاب خبرات الفلاحة بما فيها مواعيد زراعة كل نوع، ونوع الحراثة وغيرها بحضور متميز خاصة عندما يتعلق الأمر بالاستشارة وتبادل الخبرات والتجارب، وفي مقابل ذلك انقرضت أخرى كصناعة أدوات العمل الزراعي وأدوات البناء وأدوات العمل في الحرف الأخرى وحلت محلها أدوات أخرى حديثة.

أما عن خصوصيات التنظيم الاجتماعي للعمل بواحة أسا تبين أنه غير بعيد عن باقي مناطق واحات المغرب. وأشار بن محمد قسطاني إلى أن أي محاولة لفهم التنظيم الاجتماعي للعمل في الواحات لابد أن تمر بمفهوم الخماسة، إنها التنظيم الاجتماعي النموذجي للعمل في الواحات[2]، الأمر الذي لم تستثنى منه واحة قصر أسا، وعادة ما كان ملاك الحقول الكبيرة يعتمدون هذا التنظيم لما له من نتائج إيجابية على الأطراف المتعاقدة.

إن مفهوم العمل في الواحات... مفهوم ثقافي بالدرجة الأولى، لكنه ينزع رغم ذلك إلى ربح ما وإلى ملكية قوية ركز دعائمها الفقه المالكي عبر الإرث خصوصا والمعاملات الأخرى عامة[3]، وهذا ما يثبته العدد الهام من العقود الذي تتوفر عليه جل الأسر في مناطق الواحات ومنها واحة قصر أسا.

خلاصة

حاولنا من خلال هذا الفصل الوقوف عند جوانب هامة من التراث المادي واللامادي بقصر أسا، والتي أبدعها الضمير الجمعي للساكنة في انسجام مع خصوصيات المجال ومميزاته التراثية التي ساهمت بشكل كبير في تقديم صورة عامة للفنون الشعبية والثقافة المادية التقليدية المتوارثة عبر الأجيال.

كان للاستفادة مما جادت به واحة أسا و«أسِيفْ نْ دْرَا» دور كبير في ظهور مجموعة من الأنشطة والمهن والحرف التقليدية التي مكنت ساكنة قصر أسا من صنع مجموعة من الأدوات والآلات والأواني الخدمية، انتفعت بها الساكنة خلال مراحل سابقة، أما اليوم فأصبح أغلبها خارج إطار الاستعمال اليومي، وعرفت تراجعا كبيرا ولم يعد الانتفاع بها واردا وانقرض حرفيوها، وما تبقى منها مجرد أدوات وأوانٍ تستعمل كقطع فنية تزيينية معلقة على جدران بعض المنازل وبعض الفضاءات الأخرى، مما يستدعي ضرورة بعثها وإحيائها باعتبارها جزءا أساسا من التراث المادي بقصر أسا الواجب الحفاظ عليه.

1- نفسه، ص: 109.

2- نفسه، ص: 110.

3- نفسه، ص: 113.

تعتبر مسألة الحفاظ على الإرث الثقافي المادي واللامادي بقصر أسا من أكثر القضايا التي ينبغي التعامل معها ومن الأولويات الواجب إيجاد حلول مستعجلة للحفاظ عليه وصيانته، خاصة معلمة قصر أسا من خلال عمليات التأهيل والترميم وإعادة بناء الأبنية المهدمة أو الآيلة للسقوط وفق معايير محافظة على هندسة القصر المعمارية التقليدية وخصوصياته من جهة، ومن جهة ثانية الحرص على استجماع باقي العناصر المكونة له من حلي وملابس وأدوات الزينة ومختلف الأدوات والآلات والأواني الخدمية وتوثيق الألعاب الشعبية ووضعها في متحف خاص من أجل تثمين استعمالاتها في أهداف علمية وثقافية تنموية خدمة للسياحة الأيكولوجية والسياحة الثقافية العلمية بالمنطقة.

تبقى هذه الآثار التي خلفها الأجداد على مر تاريخ طويل وممتد، جزءا هاما من التراث المادي لساكنة قصر أسا، وهي تقف اليوم بشواهدها ركائز مكملة للهوية الأمازيغية الأصيلة، من الواجب التمسك والارتباط بها والحفاظ عليها، ضمانا لإيصالها للأجيال كما تركها الأجداد واستثمار استدامتها وديمومتها في تدعيم التنمية الاقتصادية.

خاتمة

ونحن على مشارف وضع نقطة النهاية لهذا العمل حول جمع وتدوين جوانب من التراث الثقافي بشقيه المادي واللامادي بقصر أسا، أكيد أنه أخذ منا ومن كل من جالسناهم وزودونا بمعطيات قيمة شكلت الزاد والطاقة الايجابية، وتقاسمنا معهم لحظات ثمينة هي عبارة عن ملامح ذاكرة شعبية تراثية جماعية أمازيغية مسترجعة وقتا وجهدا كبيرين.

رغم كل ذلك؛ وحرصا منا على ضرورة الاستمرار في الاشتغال على هذه المعلمة التاريخية الضاربة في عمق التاريخ، والمساهمة في الحفاظ على ما تبقى من معمارها وتراثها الثقافي الغني التليد، فإننا نؤكد على أن وضع نقطة النهاية هذه، ما هي إلا إعلان عن بداية أعمال أخرى، وفاء لذكر وذكرى وذاكرة قصر أسا، أعمال نريدها أن تكون صمام أمان للحفاظ على قصر أسا وتراثه المادي واللامادي من الخراب والاندثار.

تقف إذن شواهد «معلمة قصر أسا» شامخة محافظة على الهوية الأمازيغية الأصيلة للساكنة، بكل ما حملته من تصورات وتمثلات ونظم وأنساق اجتماعية وعادات وتقاليد ومعتقدات ومعارف وآدب وفنون شعبية وثقافة مادية وغيرها من المقومات، كحصيلة تراثية ثقافية جماعية مشتركة سايرت مختلف التحولات الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها المنطقة خلال مراحل تاريخية مختلفة.

خلصنا من خلال هذا العمل إلى أن هناك ارتباطا وثيقا بين ساكنة قصر أسا والأرض من خلال القصر والواحة كفضاءات حاضنة، وآمنة وولادة للخير والبركة والانتفاع، مكرسة للتعاون والتعاضد والتماس النية وأسباب العيش البسيط، مبنية على الاحترام والحشمة والوقار وذوبان الذات في

الجماعة عملا بمبدأ «تَكْمَاتْ»، وأن لكل قاطن فيه دوره في تكامل متناه مع باقي أدوار الآخرين، وفق ضوابط وأعراف وقوانين عرفية صادرة عن «لَجْمَاعْتْ» يخضع لها الجميع.

سيظل ما حققه قصر أسا من تماسك اجتماعي وتكامل وتنوع ثقافي وتراثي واقتصادي على مر التاريخ، جزءا هاما من الهوية الثقافية الوطنية الأمازيغية المغربية، بخصائصه ومميزاته المتطابقة وخصوصيات باقي القصور بمناطق الواحات، يلتقي مع غيره في بعض منها وينفرد بجزئيات أخرى ميزته.

إن التداخل الذي لمسناه بشكل جلي بين مختلف مكونات التراث الثقافي بقصر أسا على أرض الواقع، يجعلنا نتفق مع ما أكده محمود مفلح البكر، في أن التراث الشعبي بمجموع أقسامه وفروعه المتشعبة المتداخلة تداخلا لحمويا إنما هو وحدة متكاملة تكامل الجسم والروح والعقل وما تشتمل عليه من خبرات وأفكار وتصورات وعواطف وأحلام وطموحات ومهارات[1].

يبقى الهدف الأسمى من هذا العمل؛ محاولة الانتقال بالرواية الشفوية للتراث المادي واللامادي بقصر أسا، التي لازمته ردحا من الزمن، إلى مرحلة أساس متمثلة في الجمع والتدوين والأرشفة والتوثيق، ووضع هذا الرأسمال التراثي كمادة خام رهن إشارة الباحثين والمهتمين، باعتبار ذلك مرحلة أولى ولبنة أساس في مسار البحوث الميدانية المتخصصة وخطوة هامة لتجاوز ما يعرفه التراث الثقافي بقصر أسا من ضياع واندثار، فتراث الأمم يتآكل منذ قرون وآن أن نتداركه، لا أن ننشغل عنه، لنجد أنفسنا يوما صفر اليدين[2].

انطلاقا مما سبق، يمكن تقديم التوصيات التالية:

❑ تأسيس مراكز بحث علمية داخل الجامعات متخصصة في جمع وتدوين وأرشفة ودراسة التراث الثقافي المادي واللامادي بالقصور والقصبات المتواجدة بمناطق الواحات بالمغرب.

❑ ضرورة تعريف الناشئة من داخل المؤسسات التعليمية بتراث المنطقة بصفة عامة، وتراث قصر أسا بصفة خاصة والتحسيس بأهميته، والشعور بالفخر والثقة والمساعدة على المحافظة عليه من أجل نقله لأجيال المستقبل بأمانة، وهو الدور المنوط أيضا بالأسر وجمعيات ومنظمات المجتمع المدني العاملة في هذا الإطار.

❑ الاشتغال في أقرب الآجال على إعداد ملف شامل ومتكامل من أجل جرد التراث المادي واللامادي بقصر أسا وتقييده وترتيبه ضمن التراث الثقافي الوطني، وترميمه والمحافظة عليه والتعريف به وإبرازه وإدراجه في المنظور التنموي الشامل للسياسات الثقافية الوطنية، كمرحلة أولى وتصنيفه تراثا ماديا إنسانيا لدى اليونسكو كمرحلة لاحقة.

1- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، مرجع سابق، ص: 64.

2- نفسه، ص: 64.

❑ الانفتاح على المؤسسات والمنظمات العالمية المهتمة بالتراث الثقافي من أجل المساعدة على صيانة معلمة قصر أسا والحفاظ على تراثها المادي واللامادي والتعريف به.

❑ بعث وإحياء الأنشطة الحرفية القديمة بقصر أسا عبر تشجيع ممارستها، وخلق ودعم التعاونيات المختصة في المجال وتأهيل عنصرها البشري.

❑ إحياء عادات «أدْوَالْ» و«تِوِيزِي» من طرف الساكنة من أجل ترميم مختلف الأماكن والفضاءات العمومية بقصر أسا، الشيء نفسه بالنسبة للواحة.

❑ تنظيم ورشات عمل وأيام دراسية ودورات تكوينية حول أهمية الحفاظ على التراث الثقافي بقصر أسا وتقديم المساعدات المادية والتقنية والفنية لفائدة المراكز والجمعيات والمنظمات المحلية المهتمة.

❑ وضع برامج استباقية هادفة ومحكمة لمواجهة الأخطار التي قد تتعرض لها معلمة قصر أسا والتراث الواحي والمائي والنقوش الصخرية وغيرها بالمنطقة.

❑ إزالة كل البنايات الإسمنتية المتواجدة بقصر أسا والتي تخل بخصوصياته المعمارية.

❑ التعامل مع قصر وواحة وزواية أسا وموسم «ألْمُوكَارْ» كوحدة دون تجزيء إذ يكمل بعضها البعض.

❑ توثيق العادات والتقاليد والمعارف والفنون ومختلف عناصر التراث الثقافي في صور وأشرطة خاصة، والحفاظ عليها ووضعها رهن إشارة الباحثين والمهتمين، والحرص على جمع وترميم مختلف الوثائق والمخطوطات القديمة بالطرق العلمية الخاصة بذلك.

❑ إحداث متحف داخل أسوار قصر أسا خاص بعناصر التراث المادي واللامادي من أوان وأدوات وملابس وحلي وأدوات الزينة والوثائق والمخطوطات وغيرها، ووضعه رهن إشارة الزوار والمهتمين والباحثين.

❑ التسريع بإطلاق عملية تشوير مختلف الأزقة والدروب والفضاءات العمومية بقصر أسا، وتوفير الحراسة والإنارة اللازمة تفاديا للمزيد من التخريب والإتلاف.

❑ جعل مدينة أسا عاصمة للتراث الثقافي بالأقاليم الجنوبية للمملكة، من خلال إحداث قرية تراثية تشمل كل تجلياته وعناصره بالمنطقة، واستثمار هذا المعطى في التنمية السياحية المحلية.

لائحة المصادر والمراجع

- **المصادر:**

- أحمد بن مبارك بن محمد السجلماسي اللمطي، الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق شرح وفهرسة سعيد محمود عقيل، دار الجيل، 2013م.
- محمد المختار السوسي، المعسول، المجلد الأول، دار الكتب العلمية، DKI، 2014، بيروت، لبنان.

- **المراجع:**

- بن محمد قسطاني، الواحات المغربية قبل الاستعمار «غريس نموذجا»، سلسلة الدراسات والأطروحات، رقم 3 ، مركز الدراسات الأنتروبولوجية والسوسيولوجيا، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط 2005.
- تدبير التراث الأثري وقضايا الهوية، أحمد سراج، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى 2019م.
- حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي ميداني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1984، الطبعة السادسة 1998.
- السعدية عزيزي، سعيد أيت زهرة، طارق المالكي، مكنز التراث الشعبي المغربي، أول مكنز للتراث الشعبي على الصعيد الوطني، القسم المصنف، المشاريع العلمية للمركز المغربي للتراث الشعبي والمخطوطات، الدار اليضاء، منشورات جمعية وادي الحجاج للثقافة والتنمية، سكورة، ورزازات، مطبعة دار القرويين، الطبعة الأولى 2008،
- شوقي ضيف، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- عباس الجراري، من وحي التراث، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971.
- عبد الجليل عبد العزيز، مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية، سلسلة عالم المعرفة، العدد 65، ماي 1983.
- عبد الرحيم العطري، بركة الأولياء بحث في المقدس الضرائحي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 2014.
- عبد الرحيم العطري، قرابة الملح، الهندسة الاجتماعية للطعام، شركة النشر والتوزيع المدرسي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2016.
- عبد الله العروي، ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي المغربي، الطبعة الرابعة، 1997، الرباط.

- علي محمد المكاوي، الثبات والتغيير في العادات والتقاليد والمعارف الشعبية مع الإشارة إلى مجتمع الخليج، سلسلة ندوات التخطيط لجمع ودراسة العادات والتقاليد والمعارف الشعبية منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية، العدد 03، يناير 1985، الدوحة، قطر.
- محمد الجوهري، علم الفلكلور، دراسة الانتروبولوجية الثقافية، الطبعة 3، الجزء1.
- محمد آيت حمزة / الوافي نوحي، التراث اللامادي بالجنوب المغربي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 54، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، طبعة 2019.
- محمود مفلح البكر، مدخل البحث الميداني في التراث الشعبي، منشورات وزارة، الثقافة، مديرية التراث الشعبي، دمشق، 2009.
- مقدمة في دراسة التراث الشعبي، مؤلف جماعي، تحرير محمد الجوهري، الطبعة الأولى، 2006.

- Vicent Monteil, Notes sur les Tekna, Editions Larose, Paris, 1948.
- Alfred Bel, « Quelques rites pour obtenir la pluie en temps de sécheresse chez les musulmans maghrébins », in Recueil de mémoire et de textes publiés en l'honneur du XIV Congrès des Orientalistes, Alger, Fontana,1905.

- الموقع الالكتروني لمنظمة اليونسكو : http://www.unesco.org/culture/ich/index.php

- **البحوث الجامعية:**

- الحسان بوغدا، جوانب من تاريخ قبيلة آيت أسا، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف الأستاذ على الجاوي، جامعة ابن زهر اكادير، 1994/1993.
- السالكة موسي، العرس الحساني-الامازيغي، منطقة أسا الزاك، دراسة في أوجه التشابه والاختلاف، بحث لنيل الإجازة في الأدب العربي، السنة الجامعية 2001/2000، جامعة ابن زهر اكادير.
- عبد الله بونا، المعتقدات والمعارف الشعبية المرتبطة بالحياة الاجتماعية «أنموذج قصر أسا»، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، 2010/2009.
- عمر ناجيه، البنيات الاجتماعية والاقتصادية لقبائل وادي نون في القرنين 19/18، قبيلة آيت لحسن نموذجا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، 1999.
- ناجم أمجود، ملكية الأراضي وتوزيع المياه في قبيلة آيت أسا، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، السنة الجامعية 2000م/2001 جامعة ابن زهر اكادير.

- **المقالات:**

- الحسان بوغدا، قصر أسا أقدم بناء أثري يعود تاريخه إلى آلاف السنين، جريدة أصداء مغربية، عدد 37.
- حنان حمودا، الماء كمنشط أنتروبولوجي لإنتاج الطقوس بواحة سكورة جنوب المغرب، المجلة العربية لعلم الاجتماع، إضافات، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 34/33 شتاء / ربيع، 2016.

- سويلام بوغدا، البنيات السياسية بقصور أسا خلال القرنين 18 و19م، حاضرة أسا، عمق التاريخ... وغنى الذاكرة، مركز الدراسات والأبحاث مشاريع، جمعية الباحثين الشباب للدراسات والأبحاث الصحراوية، تنسيق محمد بوزنكاض، المطبعة والوراقة الوطنية مراكش، الطبعة الأولى 2012م.
- عبد القادر أنزيض، جوانب من عوالم الأولياء: أولياء أسا نموذجا، مجلة وادي درعة، إصدار مركز النخيل للتوثيق، كلميم، العدد 2016/25.
- عبد القادر زمامة، الثقافة المغربية من منظور تاريخي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، العدد 35 السنة 13 ربيع الثاني 1407/دجنبر 1986.
- عبد الكريم جندي، القصر في واحات الجنوب الشرقي: موروث ثقافي فريد في وسط متحول، الحوار المتمدن، العدد 4956، بتاريخ 2015 /10/15، المحور: دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات.
- محمد زنيبر، مجلة الثقافة المغربية، السنة الأولى عدد 01 ماي/ يونيه، 1991.
- محمد علوط، جماليات التشكيل اليدوي فضاء الزربية، مجلة الثقافة المغربية، السنة الأولى، العدد 03 أكتوبر1991.

- **الرواية الشفوية:**
  - الحاج مولود بن الحسين بن المحفوظ بن الحسين فقيه، من ساكنة قصر أسا، 74 سنة.
  - الحسين بن ابراهيم النعيمي من ساكنة قصر أسا، 74 سنة.
  - الحسين بن عبد الجليل بن الحسين امبارك أحشوش، فلاح، 96 سنة.
  - الحسين بن محمد امبارك المتوكل، فقيه، 58 سنة.
  - الحسين بن مولود بن عبد الجليل أحشوش، من أعيان قبيلة آيْتْ أسا.56 سنة.
  - الحسين بن مولود بن عبد الجليل الراضي، من ساكنة قصر أسا، 74 سنة.
  - رقية كريندا من ساكنة قصر أسا، 48 سنة.
  - سويلام بوغدا، أستاذ جامعي، 53 سنة.
  - عبد القادر أنزيض، أستاذ باحث، 46 سنة.
  - عيدا بن محمود بن امبارك الأساوي، فلاح وفاعل جمعوي، 57 سنة.
  - لحبيب بن عْبَلاَ أحسون عبد دايم، إمام وخطيب، 56 سنة.
  - المرحوم امبارك ابراهيم ابريك، من ساكنة قصر أسا، 69 سنة.
  - المرحوم مبارك بن مولود بن عبد الجليل بن الحسين أحشوش من ساكنة قصر أسا، 66 سنة.
  - المرحومة فاطمة تبهات، من ساكنة قصر أسا، 63 سنة.
  - المهدي بن محمد بن امبارك المتوكل، من ساكنة قصر أسا، 56 سنة.

التراث الثقافي بقصر أسا : دراسة وتوثيق

يتناول هذا الكتاب إضاءات حول التراث الثقافي الأمازيغي بإحدى واحات الجنوب المغربي بدرعة السفلى، وتحديدا بقصر أسا. وهو معلمة تاريخية قديمة خلفت ساكنتها تراكما هاما لمجموعة من التجارب التي تجسد تفاعل الانسان مع محيطه، وما نتج عن ذلك من قيم ومهارات وممارسات وعادات ومعتقدات محلية، فضلا عن مجموعة من تعبيرات الأدب والفنون الأمازيغية وتجلياتهما التي تزخر بها المنطقة، وهي تعيش على إيقاع تحولات اجتماعية وثقافية تستدعي المحافظة عليها وتثمينها.

ⴰⵔ ⵢⴰⴽⴽⴰ ⵓⴷⵍⵉⵙ ⴰ ⴽⵔⴰⵏ ⵜⵉⴼⴰⵡⵉⵏ ⵅⴼ ⵡⴰⵢⴷⴰ ⴰⴷⵍⵙⴰⵏ ⴰⵎⴰⵣⵉⵖ ⵉⵍⵍⴰⵏ ⴳ ⵢⴰⵏ ⴳ ⵉⵖⵔⵎⴰⵏ ⵏ ⵉⴼⴼⵓⵙ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ, ⴰⴷ ⵜ ⵉⴳⴰⵏ ⴷ ⵉⵖⵔⵎ ⵏ ⵡⴰⵙⴰ. ⵉⴳⴰ ⵉⵖⵔⵎ ⴰ ⵢⴰⵜ ⵜⵓⵟⴽⴰ ⵜⴰⵎⵣⵔⴰⵢⵜ ⵜⴰⵇⴱⵓⵔⵜ ⵏⵏⴰ ⵉⵥⵕⴰⵏ ⵢⴰⵏ ⵓⵙⴳⵓⴷⵉ ⵏ ⵜⵔⵎⵉⵡⵉⵏ ⵉⵎⵎⴰⵍⵏ ⵉⵣⴷⴰⵢⵏ ⴷⵔⴰⵏⵉⵏ ⵏⴳⵔ ⵓⴼⴳⴰⵏ ⴷ ⵓⵎⵏⴰⴹ ⵏⵏⵙ, ⵢⴰⵏ ⵓⵣⴷⴰⵢ ⵉⵥⴹⴰⵕⵏ ⴰⴷ ⴷ ⵉⴼⵍ ⵜⵓⴳⵜ ⵏ ⵡⴰⵜⵉⴳⵏ ⴷ ⵜⵓⵙⵙⵏⵉⵡⵉⵏ ⴷ ⵜⵍⴰⵍ ⴷ ⵉⵏⵙⴰⵢⵏ ⴷ ⵡⴰⵖⴰⵍⵏ ⵙⵓⵍ ⵉⵎⴰⵏⵏ ⴷ ⵢⴰⵜ ⵜⵢⴰⴼⵓⵜ ⵉⵙⵓⴳⵔⵏ ⴳ ⵎⵏⵉⴷ ⵏ ⵉⵡⵏⵏⵉⵜⵏ ⵉⵙⴽⵍⴰⵏⵏ ⴷ ⵉⵏⴰⵥⵓⵕⵏ. ⵎⴰⵛ ⵎⴽ ⵍⵍⵉ ⵉⴽⵛⵎ ⵡⴰⵢⴷⴰ ⴰ ⵉ ⵉⵙⵏⴼⵍⵏ ⵉⵏⴰⵎⵓⵏⵏ ⵉⵇⵇⴰⵏ ⴰⴷ ⵜⵉⵍⵉ ⵜⵡⵓⵔⵉ ⵉⵡⴰⴷⵙⵏ ⴰⴼⵔⴰⴳ ⵏⵏⵙ ⴷ ⵓⵙⵙⵓⵜⴳ ⵏⵏⵙ.

46 درهم

2022